

رواية
الطبعة 14

شَرِيفُ ثَابِتٌ


أَشْرَقَ



ك

شريف ثابت

أنين رواية

دار كيان للنشر والتوزيع 

جميع الحقوق محفوظة ©

إلى ما تبقى..

شكر مستحق لـ..

د. أحمد خالد توفيق .. د. محمد المهدي ..

أحمد العايدى .. تامر إبراهيم .. حسام دياب .. محمد

الغزالي .. باسم شاهين .. طارق مصطفى .. محمد

الدسوقي ..

البحر غضبان ما يضحكش..
أصل الحكاية ما تضحكش..
البحر جرحه ما بيدبلش..
وجرحنا.. ولا عمره دبل..

نجيب سرور

سر الحياة.. لو تعرفيه.. يا حبيبتى..
سر الحياة.. نبض الحياة.. أنا وانتى..

الكلمات تنبعث من الساعات المتصلة بـ dvd
player.. وتكاد موجاتها الصوتية تتداخل مع سحب
الدخان السابحة فى فراغ الغرفة..
العينان شاردتان تحدقان فى اللاشئ.. وكأنهما
تخترقان ظلام الغرفة إلى خارجها، حيث يتألق القمر
الفضى كامل الإستدارة غامراً صفحة البحر بضوءه
البارد المنعش..

الشفتان تطبقان بقوة على سيجارة ملفوفة بإتقان..
تسحبان نفساً طويلاً.. يتوهج طرف السيجارة فى ظلام
المكان.. لحظة من السكون.. ثم تنبعث سحب الدخان
من فتحتى الأنف..

الجسد مسترخ على الفراش.. عارٍ من أية ملابس..
ساكن تماماً وكأنه جزء من الفراش.. اللهم إلا من حركة
ميكانيكية ترفع الجوان إلى الفم ثم تخفضها..
الجسد الراقد بجواره يتقلب.. يعتدل جالساً.. ضوء
القمر ينعكس على استداراته البارعة..

- نائم..؟..

يهز رأسه ببطء نافياً.. ثم.. المزيد من السحب..

قلب الحياة جواه.. بنورة مسحورة..
قلب الحياة مليون.. أحلام صغيورة..

- Shower سريع ثم نأكل..

لا رد.. تنحنى لتطبع قبلة سريعة على شفثيه.. تغادر
برشاقة.. صوت المياه المنهمرة قادم من الحمام..

مش كل شئ بيفوت.. ف عمرنا بيجرح..
قلب الحياة مليون.. حاجات وبتفرح..

ينظر بعينين خاويتين إلى سيلويت جسدها الواضح
من خلف باب المسبح الزجاجي.. المياه الساخنة تنهمر
عليه بغزارة..

طرف السيجارة يتوهج..

يدير عينيه.. ينهض.. يفتح النافذة الزجاجية
العريضة..

الهواء البارد يندفع ليجتاح الغرفة.. الستائر الحريرية
الرقيقة تتطاير بقوة..

نفتح ببيان الروح.. من تانى ع الآخر..
ادخل ف قلبى بشوق.. مايكونش ليه آخر..

يتنفس بعمق.. يملأ صدره بالهواء النقى.. يسعل..
يسعل..

السماء صافية تماماً.. حقاً يبدو القمر مزهواً ببهائه
وسط النجوم فى مثل هذه الليلة الرائعة..

الخارجى موصد كالعاده من الداخل، والمفتاح موضوع
فى ثقب الباب..
- (أحمد)..
فتشت الغرفة بينما قلبها يخفق بقوة..
- (بصوت مرتجف): (أحمد) ..please stop it..
وفى اللحظة التالية وقعت عيناها على النافذة
المفتوحة..
وبخطوات واجفة تقدمت منها..

مش كل شئ بيفوت.. ف عمرنا بيجرح..
قلب الحياة مليون.. حاجات وبتفرح..

الجزء الأول المشكلة

د. حازم أبو زيد

مرحباً بك فى (باراداييس هايتس) ..
هى - كما تعلم - تبعد بضعة أميال فى عرض البحر
عن ساحل (الإسكندرية) .. وبالطبع يمكنك رؤيتها
بسهولة من على الشاطئ إذا كان لديك منظراً مقرباً ..
سيلفت إنتباهك على الفور ذلك المسطح الشاسع من
الخضرة الذى يتكون منه حزام الأشجار المحيط
بالجزيرة والملتف - كأفعى خضراء هائلة الحجم - حول
الربوة الشاهقة التى تتوسط الجزيرة ..
لكثك بالطبع من هذه المسافة لن تتمكن من ملاحظة
أية تفاصيل .. فمثلاً لن تميز القصور الفاخرة التى يربو
عدها عن خمسمائة قصر، والمتناثرة وفق نسق معمارى
بالغ الروعة والدقة - خططت له واحدة من كبريات
الشركات الاوروبية - فى أنحاء الجزيرة ..
أعلم الإجراءات الأمنية فى الميناء مبالغاً فيها،
وبخاصة بالنسبة للزوار .. أنت تعلم الشخصيات الهامة
التى تقطن هاهنا .. ولكن أعتقد أن الأمر يختلف بالنسبة
لك .. لقد أبلغت إدارة الميناء بشخصيتك وموعد
وصولك، لذا لم تستغرق إجراءات مرورك وقتاً طويلاً ..
حسناً .. لتكن ضيفى .. و لاكونن مرشدك هاهنا ..
هل تزعجك السرعة التى أنطلق بها ..؟ نعم ..؟ .. هه ..
سيكون عليك أن تتلع مشاعرك يا صديقى .. طريق ال-
(high way) الممتد من المرفأ وحتى قلب الجزيرة

ويدور حولها لا يسمح بالسرعات البطيئة.. لذا تجدنى مضطراً، فاعذرنى..

بالطبع لدى سائقى الخاص، ولكننى أحب ممارسة القيادة بنفسى من آن لآخر..

هل تدخن..؟.. إنه سيجار كوبى فاخر.. لا..؟.. كما تحب .. فقط إسمح لى بأن أفعل .. ناولنى قذاحة السيارة..

(نفس عميق ثم).. ووووووف..

هل ترى تلك المساحات الخضراء الواسعة..؟.. إنها اشهر و أفخم أندية فى بر (مصر).. أنشطتها يصعب حصرها.. واشتراكاتها خيالية التكلفة.. لذا لن تجد مثلها فى (الإسكندرية) أو أى مكان فى (مصر) ، لأن روادها - القادرين على الاشتراك بها - لن تجد أى منهم فى (مصر) سوى هاهنا..

مرحباً بك فى (باراداييس هايتس)..

الطريق واسع جداً، ومزدان بالشجيرات.. كل طرق (باراداييس هايتس) هكذا.. بالتأكيد لن تعانى من أزمات مرورية من أى نوع.. الجزيرة شاسعة فعلاً، وعدد سكانها محدود.. كما أن التصميم الحضرى الذى وضعه أحد أشهر مهندسو (أوروبا) محكم بحق، ولا يسمح بأزمات من هذا الطراز.. يمكنك -على فكرة- إغلاق النافذة المجاورة لك اذا ماضيقك الهواء المندفع بسبب السرعة.. ستجد زر الإغلاق فى المسند بجوارك..

(نفس من السيجار ثم).. ووووووف...

هذا الكوبرى الذى نصعده هو كوبرى (السلام) .. إنه أكبر كبرى الجزيرة.. ويعبر ما يقرب من عرضها.. وهو أهم المنافذ التى تنتقل بك مباشرة الى المناطق السكنية..

هل ترى..؟!.. توجد بأسفل الكوبرى منطقة الdown town .. إنها تضم أضخم وأروع منطقة تسويقية وترفيهية فى الشرق الأوسط .. وكم المولات فيها لا يصدق..

الساعة الآن الثانية عشر ظهراً.. لن تجد الكثير من الرواد هاهنا.. لن تجد أحداً مستيقظاً من الأصل.. الجميع هاهنا - وأغلبهم من الشباب - لا يستيقظون قبل ساعتين من الآن.. و..

فووو...

هل لمحت هذا الوميض..؟!.. إنها سيارة (هانى عزيز) البورش الجديدة.. إنه - الطائش - لا ينطلق بها بسرعة أقل من مائتى كيلومتر فى الساعة.. وأكم من حوادث تسبب فيها خلال العشرة أيام الماضية التى انقضت منذ شرائه لها.. ولكن من يملك محاسبته..؟!.. ماذا..؟!.. ألا تعرفه حقاً..؟!.. إنه نجل (حامد عزيز).. أكبر رجل أعمال فى البلد، وأحد الرؤوس الكبرى فى الحزب.. فمن يملك أن يرفع إصبعاً فى وجهه فضلاً عن محاسبته..؟!.. (نفس من السيجار ثم).. ووووووف..

لا.. لن نهبط من هذه التفريجة.. إنها تؤدى إلى واحدة من أهم المناطق على الجزيرة.. المنطقة التى تضم

محطات الطاقة ولوحات التوزيع التى تغذى الجزيرة كلها بالطاقة.. كلها بالطبع تتبع شركة (Egy - Nergy) كما تعلم.. لذا فمن غير المسموح لنا ولوجها..

مرحباً بك فى (باراداييس هايتس)..

بالفعل ملاحظتك سليمة.. الطرق والشوارع تكاد تكون خالية من المارة.. لو ظللت تراقب ستلاحظ أنّ هذا يكاد أن يكون مستمراً طيلة ساعات النهار.. اللهم إلا من الدراجات البخارية التى تقوم بتوصيل الطلبات إلى المنازل.. عشرات الـ delivery boys يقطعون الشوارع ليلاً نهاراً حاملين الأطعمة والأدوية وكافة المستلزمات إلى الفيلات والقصور..

لا.. ولا هذه التفرّعة أيضاً.. لأنها - لو لم تك - تؤدى إلى منطقة معزولة هادئة تضم مستشفى (باراداييس هوسبيتال) العام، إلى جانب بعض المستشفيات التخصصية منها مستشفى الذى أنشأته مؤخراً لعلاج الأمراض النفسية والعصبية (و هى الأمراض الأكثر شيوعاً هاهنا).. وهذه ليست وجهتنا بطبيعة الحال..

النفق الذى نعبه الآن يمر خلال باطن الجبل.. وهو يؤدى مباشرةً إلى المربع السكنى الذى تقع فيه فيلتى.. دائماً ما أستغرق ثلاثة دقائق بالضبط فى عبوره.. ألا تصدقنى..؟..

حسناً.. لأهدئن السرعة لأننا سنهبط الكوبرى من خلال التفرّعة التالية..

كما ترى.. الأرضيات والممرّات مرصوفة بالأحجار

الفرعونية.. الأشجار الخضراء والحمراء والصفراء فى كل مكان.. ماذا..؟.. هذه الموسيقى المنبعثة فى كل مكان..؟.. هل تروق لك..؟.. إنه النظام الصوتى الممتد فى أرجاء المكان، والذى يبث أروع المقطوعات الموسيقية طيلة الوقت.. إمتزاج هذه النغمات الرقيقة مع خرير شلالات المياه الموزعة بإحكام عبر الشوارع والبيادين يبعث استرخاء غير عادى فى الأعصاب..
مرحباً بك فى (باراداييس هايتس)..

تفضل.. البيت بيتك..
اقدم لك زوجتى: الدكتورة (نشوى عبد الظاهر)..
مرؤستى - إحم.. لنقل زميلتى - فى قسم الأمراض النفسية والعصبية بكلية طب (الاسكندرية).. دعنى أهمس لك بألا تمد يدك لمصافحتها لأنها تؤمن بعدم جواز مصافحة الرجل للمرأة إتباعاً لسنة رسول الله (صلى الله عليه و سلم) فلا تخرج نفسك.. إنها مشغولة اليوم فى تشذيب أشجار الحديقة - و هى تعشق أداء هذه المهمة بنفسها - لأن جدولها اليوم خال من أية محاضرات أو أعمال..
- (مبتسماً): هل لدينا طعام لضيفنا اليوم يا دكتورة..؟..

- (بمرح وهى تنفض أوراق الشجر الجافة من على معطفها): خير ربنا كثير يا (حازم).. ماتقلقش..
ثم تستطرد بابتسامة ترحاب :

- تفضلاً فى ال reception ريثما أنتهى من إعداد
الغداء

- (بينما نحن نبتعد) : على فكرة .. (مودى) إتصل من
(كلورادو) و سأل عليك..

(مودى) ..؟.. إنته (محمّد) إبنى .. ألم أخبرك بشأنه
..؟.. يحضّر رسالة الدكتوراة فى ال states.. فى أى
مجال ..؟!.. سؤال غريب.. فى مجال تخصصه بالطبع..
جراح مخ و أعصاب.. فيم سيقدم رسالته البحثية..؟..
فيزياء الصواريخ مثلاً..؟.. هه هه.. لا تعبس هكذا.. أنا
أمزح معك فقط..

نعم.. لدىّ إبنة اخرى هى (آية).. طالبة فى السنة
الثانية بكلية الاعلام بجامعة (باراداييس كولدج).. وهى
-إبنتى- شيطانة حقيقية.. عاصفة من الحيوية
والنشاط وخفة الدم.. أين هى..؟.. تعيش حالياً مع
زوجها فى الخليج..

أحمد الله سبحانه وتعالى أن وفقنى لتربية هذين
العزيرين وفقاً لما أنزل على نبيه الكريم (صلى الله عليه
و سلم) فى كتابه الكريم.. وإن كان لا يخفى عليك مدى
صعوبة ذلك، و خاصة فى مجتمع مثل مجتمعنا هنا فى
(باراداييس هايتس)، حيث كل عوامل الإنحراف
متوافرة وبغزارة.. وما عليك الا أن تهبط الى أى coffe
shop أو أى night club بعد منتصف الليل و سترى
هولاً..

عندما تخلو حياة الفتى أو الفتاة من أيّة مصاعب أو احتياجات.. عندما يجد أمامه كل ما يشتهي بمجرد التفكير.. عندئذ يسيطر الفراغ على كيانه.. ويبدأ فى التفكير فى طرق غير شرعية لمقاومة هذا الفراغ.. وهو حال ٩٠% من الشباب على هذه الجزيرة..

ومن نعم الله تعالى على أن رزقنى زوجة عاقلة مثقفة تدرك مهمتها، وتعرف جيّدا كيف تقوم بها خير قيام برغم مشاغل عملها..

الطقس حار قليلاً اليوم.. هل ترغب فى بعض المياه الغازية أم تريد شيئاً معيناً يعده لك الخدم ..؟.. خذ راحتك تماماً كأنتك فى بيتك.. ماذا..؟.. مياه غازية.. أى نوع منها..؟.. (بيبسى)..؟.. أعذرنى.. أنا مُقاطع للسلع والمنتجات الأمريكية.. ما رأيك فى (شويبس)..؟.. فليكن..

بفففففففف (صوت فتح علبة الcan).. تفضّل.. أعلم أن الفضول ينهشك يا صديقى لمعرفة الأمر العاجل الذى ألححت عليك أن تأتى الى هنا لأقصه عليك.. هل تفضل أن نتحدّث الآن أم بعد تناول طعام الغداء..؟.. الآن ..؟.. حسناً.. كنت أتوقع هذا.. لحظة واحدة..

.....

.....

.....

.....

لا تؤاخذنى.. إستمع معى الآن إلى هذه التسجيلات الصوتية المطبوعة على هذه المجموعة من الفيديوهاٲ.. إنها تسجيلات لبعض جلسات العلاج النفسى الٲى خضتها مع أحد مرضاى منذ مدة ليست طويلة.. لحظة حتى أأ.. play ...
ماذا..؟.. إصبر قليلاً يا أٲى وستعرف كل شىء..
فقط أنصت..

(لحظات من الصمت المشوّب بخرفشة خافتة لوجود بعض ال bytes التالفة على القرص المضغوط ثم)..
- هل تحب عملك..؟..
- (ضحكاً): من مٲا يفترض أن يسأل الآخر..؟..
- من فضلك أجبنى..
- أعتقد أنه لم يعد هناك من يمكنه أن يقول بثقة أنه يحب عمله.. إنه عملى وكفى.. بدون حب أو كره..
- منطق غريب بالنسبة لطبيب نفسى..
- وما وجه غرابته..؟..
- وجه غرابته أنه لا يتفق وطبيعة عملك الٲى تتطلب صبراً طويلاً لدراسة ظروف وخلفيات المريض النفسىة للوقوف على أبعاد عقده وأسبابها.. ومثل هذا الصبر لا أعتقد أنه من الممكن توافره إلا لدى من يعشق مهنته ويستمتع بممارستها لأطول وقت ممكن..
- يمكننى أن أقول لك أن هذا الصبر يتحوّل بمرور

الوقت والتجرب إلى جزء من إحترافية المهنة.. ولكن
أخبرنى أنت.. هل تحب مهنتك..؟..

- أكيد.. رغم كل شئ..

- هلا شرحت لى أكثر..؟..

- (يزفر بحرارة): أغلب من أتعامل معه يكون محتفظاً
فى ذاكرته بنماذج معينة من الديكورات سبق أن رآها
فى أماكن أخرى وأثارت إعجابه، فيرغب فى الحصول
على نماذج مثلها فى الفراغ الذى يرغب فى تنسيقه..
بغض النظر عن مدى ملائمة تلك النماذج لطبيعة
فراغه.. وهو ما أرفضه تماماً.. وفى أغلب الأحيان
يحدث صدام عنيف بينى وبين العميل بخصوص هذه
النقطة، وينتج عنه اعتذارى عن الاستمرار فى العمل..

- ألا يكون من الأفضل أن ترضى رغبة عميلك وتصنع
له ما يشاء..؟..

- (بانفعال): وما فائدتى إذن..؟.. ولم لا يقوم هو بهذا
العمل بدلاً منى مادامت لديه تصورات الخاصة التى لا
يرغب فى سواها..؟..

- هدئ من روعك يا باشمهندس..

- (يزفر بحنق) ..

- هل لهذا دخل بمشكلك التى تعانى منها..؟..

- مُطلقاً..

- هلا شرحت لى ما هى مشكلك بالضبط..؟..

-

- هل هى معقدة إلى هذه الدرجة..؟..

- لا أدري..

-

- (لحظات من الصمت ثم بغتة): هل تؤمن بتناسخ

الأرواح..؟..

أحمد خشبة

- تناسخ الأرواح..؟!..!!..

- نعم..

صمت يشوبه أزيز غامض ثم..

- تناسخ الأرواح عقيدة بدائية تقوم على أن الروح عند موت صاحبها و مغادرتها جسده، تعود مرة أخرى وتحل في جسد آخر.. وتتوقف طبيعة الجسد الجديد على مدى صلاح الروح في جسدها القديم.. فإذا كانت شريرة فإنها تلقى عقابها بأن تحل في جسد حيوان أو حشرة..

- أليس هناك تفسيراً علمياً لهذه الظاهرة..؟!..

- ليست ظاهرة.. إن هي إلا خرافة تحوّلت إلى عقيدة لدى البدائيين.. ولكن

- و لكن ماذا..؟!..

- هناك شواهد أو فلنقل قرائن تشير بوضوح إلى هذه الخرافة..

-

- ولكن لماذا تسأل عن تناسخ الأرواح..؟!..

- (بيطاء وبعد لحظات من الصمت): أعتقد أنّ روحى عاشت حياة سابقة لحياتى هذه.. وقد كانت نهاية هذه الحياة السابقة شنيعة حقاً..

أعلم يا دكتور (حازم) أنّك لن تصدق حرفاً ممّا أقول ..

و لربما كنت الآن فى سرك تلعن حظك العاثر الذى أوقعك بين يديّ لتصغى لهذيان شاب تافه (كأغلب شباب هذه البلدة) لا يجد ما يشغل به وقت فراغه إلا الانصياع لهواجس عقله الفارغ المريض..

ولكن دعنى يا سيدى اؤكد لك أننى لست من هذا النوع من الشباب.. قد أكون تعاطيت المخدرات فى مرحلة ما من عمري على سبيل التجربة، ولكننى لم أسمح لها بالسيطرة على.. طيلة حياتى وأنا مغرم بخوض التجارب الصعبة والغريبة.. و كل تجربة كنت أخرج منها و قد تعلمت حقيقة جديدة من حقائق الحياة..

سأضرب لك مثلاً .. أعلم أنك رجل محافظ، وأنّ كلامى قد يسبب لك ضيقاً، ولكننى أيضاً أعلم أنك ستتحقّقنى لأن هذا جزء من حرفة الطبيب النفسى كما تسمّيها.. هل تصدق يا دكتور أننى خضت تجربة جنسيّة مثليّة كاملة..؟.. لست شاذاً على الإطلاق.. ولكنها الرغبة فى إستكشاف المجهول.. تلك الرغبة التى تمتع بقدر ما تؤلم بقدر ما تترك آثاراً محفورة على جدار روحك..

قفزت بالمظلات.. أتقنت الأيكيدو فى (بورما).. تسلقت جبال (الأنديز).. عاشرت نساء وفتيات من كل الأشكال والألوان.. مارست اليوجا بانتظام لأعوام.. تعلمت إطلاق النار.. السافارى فى الصحراء.. إلخ..

ما علينا.. كنت أقول لك أننى لست من نوعيّة الشباب الفارغ الذى لا يجد ما يفعله.. كدت بالفعل أن أكون كذلك وقد وقرّ لى أبى - وأنت بالتأكيد تعلم مدى

تراثه - كل ما كان يخطر ببالى.. كل شئ الا أهم شئ..
أبوته ذاتها .. بمرور الوقت و مع عدم وجود أية رغبة
يمكن للمرء أن يسعى ليحققها (فقد تم اشباع أى رغبة
فى مهدها).. تصبح الحياة ذاتها مملة لا قيمة لها.. وهو
ما شعرت به فعلاً وأنا أسحب موسى الحلاقة الذى
أخذته من أحد الخدم على أوردة معصمى الأيمن، وأرى
الدماء الحمراء القانية تتدفق منه بغزارة حاملة حياة أنا
فى أشد الشوق لمفارقتها..

بعد نجاتى - بمصادفة سخيفة - سافرت إلى (أوروبا)
بصحبة أمى للاستجمام ولتهدئة أعصابى.. وهناك.. فى
(فينسيا) تحديداً.. حدث شئ ما.. بينما القارب الذى
نستقله يشق مياه الشوارع العائمة.. وقفت مبهوراً أمام
طرز مبانى المدينة العظيمة.. شعرت بأننى قفزت قروناً
إلى الوراء.. الأبنية الحجرية.. الأسقف المغطاة بالقرميد
الداكن.. الأغصان الملتفة حول الأعمدة القديمة..
الكنائس الضخمة بقبابها الهائلة.. رنين الأجراس.. خرير
الماء المحيط بنا.. شقشقة الطيور.. اللغة الإيطالية
السريعة كطلقات مدفع رشاش.. لم أكن لأندesh لو
رأيت مبارزة بالسيوف الرفيعة بين اثنين من النبلاء
يرتديان ثياباً مزركشة وحرملة واسعة..

فى تلك اللحظة.. أدركت أن تاريخ الأمم والشعوب
يمكن تدوينه فى صورة مبنى قديم.. ردهة مدخل.. قبة
كنيسة.. عمود رخامى.. لوحة زيتية متسخة.. هل
تفهمنى يا دكتور (حازم)..؟.. فى هذه اللحظة

السحرية.. أدركت أنني عثرت أخيراً على ما عشت
أفقدته طيلة سنوات حياتي الماضية.. ولكم كانت
دهشة امي وفرحتها عندما أخبرتها أنني أنوى الإرتحال
إلى (لندن) لدراسة العمارة.. أما الصدمة الحقيقية
فكانت من نصيب شلة النادي..

- تدرس العمارة..؟!... هل جننت..؟!!!!!..

- (يرشف من زجاجة التكيلا الموضوع أمامه):
عمارة..؟!..

- ما المثير في هذا المجال كي تضحي بسنوات عمرك
فيه..؟!..!!!!..

- كحكحك (يسعل).. هل تفكر في العمل يا
صايع..؟!..

- مادام الأمر كذلك.. فلم لا تعمل في إحدى شركات
والدك..؟!..

- (بسخرية): هل وافقت مامي على مفارقتك
أحضانها..؟!..

طبعا لم ألق بالاً لتعليقاتهم الساخرة وأسئلتهم البلاء
التي ألقوها بينما الـ drugs تسرى في دمائهم.. وكان رد
(مايا) هو الأعنف..

- Go to hell you son of bitch ..

وأعقت هذا بسيل من الشتائم النابية، وهي تدفن
سيجارتها المشتعلة في صدري العاري.. ماذا..؟!.. لم
أخبرك من هي (مايا) أصلاً..؟!.. (مايا أبو العيون) ..
رفيقتي في ذلك الوقت.. حب..؟!.. طبعا لا.. يمكنك

القول بأنه كان مجرد توافق جسدى.. جسدانا يرتاحان لبعضهما البعض.. لا أكثر ولا أقل.. ألا تعرفها..؟!.. إنها ابنة (أكرم أبو العيون) رجل الأعمال الشهير.. لبؤة شرسة شبقة طيلة الوقت.. دعك منها على أية حال.. وهذا هو بالمناسبة ما قلته لنفسى بينما عجلات الطائرة ترتفع لتفارق أرضية ممر الاقلاع بمطار (باراداييس إير بورت) متجهة شمالاً إلى المملكة المتحدة..

متى بدأت المشكلة..؟!..
لا أذكر تاريخاً محدداً.. ولكننى أذكر جيداً أننى لم أكن أعانى من أية هواجس طيلة فترة دراستى فى (لندن)، والأشهر التى تلت عودتى إلى (مصر)..
لا لا.. لم أعد على الفور إلى (باراداييس هايتس).. كان إلحاح أبى كبيراً كى يفتتح لى شركة كبرى للمقاولات.. ولكننى كنت أملك خططاً من نوع آخر..
قمت بشراء شقة صغيرة فى (العامرية) وأعددتها لتكون مكتباً هندسياً.. كنت أعرف أن فرص العمل فى (القاهرة) أفضل بكثير، ولكن طموحاتى كانت مرتبطة بـ (الإسكندرية) بشكلٍ خاص.. بالفعل تم تحقيق الكثير من الإنجازات على مستوى تجميل الشوارع والميادين، غير أن هذه الإنجازات لم تمتد للعديد من الأحياء والمناطق العشوائية التى يقطنها عشرات (أو مئات) الآلاف من البسطاء.. أى أن الأمر اعتمد بصورة رئيسية

على جمال السطح دونما اعتبار للباطن الملىء بالمشاكل..
لذا، فلك دكتور (حازم) أن تتصوّر مدى حاجة سكان
هذا الباطن الفهمل لما فى جعبتى من علم حديث فى
مجال التخطيط و المعمار..

وبالطبع لم يرق هذا لأبى على الإطلاق..

- يا (مودى) يا حبيبي.. هذه الفرصة يحلم بها أى شاب
فى مثل عمرك.. إننى أحتفظ بالفعل بعلاقات وثيقة مع
شخصيات نافذة.. وفى خلال عام واحد ستصبح
المقاول رقم واحد فى البلد.. وستجرى الأموال كال مياه
بين أصابعك..

- (منهمكاً فى إعداد ماكيت لمبنى من طابق واحد):
وهل تنقصنا الأموال يا أبى..؟..

- (ينفث دخان سيجاره بغضب): هل تغزبت طيلة
الأعوام الماضية لتعود فتنغمس فى هذه الأعمال
التافهة..؟.. (و ضرب الماكيت الذى أعمل عليه بظهر
يده فطار ليتحطم على أرضية الغرفة)..

تماكنت غضبى وقلت بهدوء:

- هذه الأعمال التافهة كما تسميها هى من صميم عمل
المعماري.. تصميم الفراغ المناسب لمتطلباته.. مهما كان
حجم هذا الفراغ أو أهميته.. أما ما تريدنى أن أفعله
فهو أعمال المقاولين.. وأنا لم..

- لا أريد سماع محاضرات..

ثم...

- (متلفتاً حوله بازدراء): هل ستمارس عمل المعماري

الذى تتكلم عنه فى هذا الوكر...؟..

- (ساخراً): لن يستطيع أى من عملاى الوصول إلى لو
اتخذت مكتباً فى الـ (هايتس)..

- و ما حاجتك إلى عملاء من خارج الـ (هايتس)..؟..
أين ستجد عملاء من هذا المستوى فى أى مكان
آخر..؟..

- هؤلاء بالذات لا حاجة لهم بى.. لديهم شركاتهم
الأجنبية التى يتعاملون معها.. أما عملاى الحقيقيون..
فهم البسطاء.. الذين يعيشون فى العشش والعشوائيات،
ويناموا أسفل الكبارى..

- (يرمقنى بنظرة ساخطة): غبى..

وتحرّك نحو باب الحجرة، وقبل أن يجتازه إلتفت إلى
وأشار بسيجاره قائلاً:

- هؤلاء البسطاء سكان العشش وأسافل الكبارى
يستحقون ما هم فيه من بؤس.. إنهم حيوانات راضية
بما هم منقوعون فيه.. عقود وعقود وأدميتهم تسلب
منهم وهم لا يرون أبعد من أنوفهم، ولا يحركون ساكناً
تجاه من يسرقهم.. بل على العكس.. تراهم ينتفضون
بقوة ضد من يحاول إيقاظ عقولهم وإنارة طريقهم..
لذا.. فلا تتوقع أيها الرفيق (ماركس) أن ينتظموا صفاً
وراءك لإستعادة حقوقهم..

كدت أرد عليه بأننى لا أحاول ارتداء عباءة الزعامة، و
أننى فقط أرغب فى افادة هؤلاء البسطاء بما تعلمته..
غير أنه لم يمنحنى الفرصة..

- طيلة عمرك ترغب فى خوض التجارب بنفسك.. لا بأس.. خض هذه التجربة أيضاً.. وعندما تستيقظ على الحقيقة المرة.. ستجدنى بانتظارك..

ودون كلمة اخرى غادر تلك الشقة التى اتخذتها مكتباً.. راقبته من النافذة بينما سائق سيارته المرسيديس يغلق باب السيارة خلفه، ثم ينطلق بها متجهاً نحو المطار..

الحق دكتور (حازم) أننى لم أكن أعب دور الزعيم كما توهم أبى .. غير أننى كنت شديد التأثير بتعاليم استاذى الانجليزى الدكتور (إدوارد هيجز).. كان الرجل اشتراكياً قديماً، وعضواً فى حزب العقال.. واسع العلم شديد الثقافة ذو كاريزما غير عادية..

«لعنة الرأسمالية هى أنها ألهمت الأشياء.. فبدلاً من أن يصير المرء مالكا لها.. صارت هى مالكة له.. و صار هو عبداً تابعاً لها»..

ويقول وهو يحاول إشعال غليونه:

- انظر إلى المأسى التى حاقت و تحيق بعالمنا البائس .. لن تجد شراً واحداً لا و كانت الرأسمالية وراءه بشكل أو بآخر..

- وما هو الحل الذى تراه يا دكتور ..؟..

- الإشتراكية ولا شئ سواها..

- ولكن الإشتراكية فشلت فى (الإتحاد السوفييتى) بلد منشؤها..

- (يبتسم و يداعب لحيته الشقراء القصيرة): لم تفشل

فى (الإتحاد السوفىيىتى) لفساد النظرىة.. بل لخطأ
التطبيق.. ولعلمك الخاص.. لم تنشأ الاشتراكىة فى
(الإتحاد السوفىيىتى) أيام (ماركس).. بل هى أقدم
بكثير..

والتمعت عىناه الزرقاوىتىن وهو يقول بحماس:
- أنت مصرى مسلم مستر (أحمد).. فهل قرأت تاريخ
الفتح العربى لبلدك (مصر)..؟..

- مستغرباً علاقة السؤال بالموضوع): لا..
- عندما دخل المسلمون (مصر) طالبوا بتوزيع أراضىها
- وكانت شدىة الخصوبة حول وادى (النيل)- على
الجنود الفاتحىن.. واستندوا فى ذلك لإحدى التعاليم
الواردة فى كتابهم (القرآن) والتى تقضى بتوزيع الغنائم
بنسب معىنة على أهل رسولهم (محمد) وعلى المقاتلىن
فى الجيش وعلى الفقراء والبؤساء وغيرها من موارد
الإنفاق.. ولكن الخلىفة المسلم آنذاك - (عمر بن
الخطاب) إن لم تخنى الذاكرة أعلن أن هذه الأرض -
أرض (مصر)- ستظل بىن أىدى فلاحىها المصرىىن
مقابل ضرىبة ما.. ورفض نزعها من أىدىهم و توزيعها
على عدد قلىل من الأفراد..

كنت أنظر إىه مشدوهاً لسعة علمه بىنما هو يستطرد
مبتسماً (فتبرز عظام وجهه النحىل):

- ألىست هذه هى عدالة الاشتراكىة فى أرقى
صورها..؟.. ومتى ..؟.. قبل ولادة (كارل ماركس)
بقرون طوىلة..

سنوات ممتعة بحق قضيتها أنهل من علم هذا الرجل العظيم.. كان أحد أتباع مدرسة المعماري الألماني الكبير (ميس فان درو) صاحب نظرية الوظيفية..

- الوظيفية قبل أى شئ.. بدونها يفقد العنصر قيمته مهما بلغت درجة جماله .. فما قيمة الجمال العنصر إذا ما كانت وظيفيته ضعيفة..؟..

و كان سعيداً بى بشكلٍ خاص.. قال لى ذات مرّة ونحن جالسين أمام المدفأة فى غرفة المكتب بمنزله فى (ديفون):

- خروجك عن النمط الرأسمالى الذى نشأت فيه سيكون بمثابة ميلاد جديد لك..

إبتلعت ما بقمى من (أبو فروة) وقلت:

- خرجت لتلقى العلم..

- وقد كنت مخلصاً مجتهداً.. وأشهد لك بذلك.. ولكن هناك درس أخير لابد أن تعيه جيداً.. لأنه سيكون معيار تطبيقك لما تعلمته..

تطلعت إليه متسائلاً.. مال نحوى.. نيران المدفأة تنعكس على عويناته الصغيرة فتخفى عينيه تماماً:

- قناعات المعماري الإجتماعية والسياسية لا تنفصل أبداً عن حرفته.. بل على العكس.. فهى المؤشر والبوصلة اللذان يوجهان هذه الحرفة.. وبدونهما لا يستحق المعماري أن يكون كذلك فعلاً مهما بلغت حرفيته وبراعته.. ويصبح بالفعل مجرد مقاول كل مهمته هى بناء أكبر عدد من المكعبات الخرسانية

العملاقة لحشر أكبر عدد من البؤساء داخلها..
ظللت أنظر إليه مأخوذاً بكلماته بينما هو يتابع:
- وفى بلد مثل بلدك (مصر) - جميعنا يعرف الوضع
المزرى الذى صارت إليه - الحاجة ماسة إلى كل عقل
متحرر من قيود الأنانية والرأسمالية لإنتشالها من
مستنقع الجهل والتخلف والدكتاتورية التى غرقت فيه..
سيقتضى منك هذا التضحية بالكثير من الرفاهية
والم لذات التى تحققها لك الرأسمالية على حساب
الكثيرين.. ولكن ثق أن التاريخ - إذا ما صمدت
وأصررت على قناعاتك - سيكتب إسمك بحروف من
نور..

وامتزجت قرقة الأخشاب الخافتة بين نيران المدفأة
بصوته العميق:

- وعندئذٍ .. تصبح المعمارى كما يجب أن يكون..

تذكرت هذه الكلمات وأنا أرقب الصفحة العملاقة
الزرقاء من حولى بينما اللانش يشق أمواجها الهادئة -
أمواج البحر المتوسط - بسرعة شديدة متجها نحو
مرفأ (باراداييس هايتس)..

إلى جوارى يجلس سكرتير أبى الشاب.. منظار داكن
يغطى عينيه.. بينما ابتسامة آلية هى جزء من عمله
ترتسم على شفثيه..

هدير محرك القارب السريع يمتزج بهدير الأمواج
المحيطة وصيحات طيور النورس المحلقة فى السماء

الصافية من فوقنا فيصنع هذا الإمتزاج منظومة متكاملة من الضوضاء..

«و فى بلد مثل بلدك (مصر) - جميعنا يعرف الوضع المزرى الذى صارت اليه - الحاجة ماسة إلى كل عقل متحرر من قيود الأنانية والرأسمالية لانتشالها من مستنقع الجهل و التخلف و الدكتاتوربة التى غرقت فيه»..

أدرت رأسى.. ألقىت نظرة طويلة على مرفأ نادى المهندسين بـ (الإسكندرية) وهو يبتعد.. ويبتعد..

للأسف بروفيسور (هيجز).. لم تعد بلدى بحاجة إلى عقول متحررة من الأنانية والرأسمالية لانتشالها من الجهل والفقر والدكتاتوربة.. بلدى صارت بالفعل بحاجة لشيء آخر..

بلدى بحاجة إلى قنبلة نووية تهوى عليها فتحرق كل شيء.. البشر.. المبانى.. الأفكار.. العادات.. التقاليد.. كل شيء..

النار هى الحل الوحيد للشيء الذى صارته (مصر).. لا يا أستاذى.. لست مغالياً ولا متجئياً.. ما تعيشه (مصر) حالياً هو نتاج مئات السنين من القهر و الذل.. لقد التوت طبيعة الناس أنفسهم.. صاروا كما قال أبى حيوانات راضية بما هم منقوعون فيه.. وبمرور السنين أصبح النفاق الفج والذل والخضوع للأقوى جزء من طبيعتهم.. وصاروا يقفون بقوة ضد أى محاولة للارتقاء بهم..

اليدين .. كانت بالنسبة لى مكاناً خانقاً مبتذلاً خالياً من
أى عوامل جذب .. و عند عودتى من الخارج كنت موقناً
أن البداية لابد أن تكون بتحويل هذا المكان المبتذل
الخانق الى مكان صالح بكل المعايير للمعيشة البشرية ..
بدأت فى عمل بعض التصميمات البسيطة لبعض
المساكن فى العشوائيات .. لم تكن تصميمات بقدر ما
كانت حلولاً لبعض المشكلات الناجمة عن عشوائية
البناء و عدم وصول شبكات البنية التحتية إلى هذه
المواقع ..

- بداية جيدة ..

- لا .. ليست كذلك .. و حقاً ما زلت لا أفهم كيف يمكن
أن تكون البداية .. أتدرى يا دكتور ما هى المشكلة ..؟
- ما هى المشكلة ..؟

- المشكلة هى أن أحدا لا يريد التغيير و لا الإصلاح ..
الناس سعيدة و قد اعتادت على ما هى فيه .. أما
المسؤولين فقد نفذوا أيديهم تماماً من مسؤوليتهم .. و
كأن عملهم يتلخص فى الجلوس إلى مكاتبهم، و إخفاق
أى مشروع يطمح للإصلاح ..

تريد مثلاً .. ليكن ..

بعد شهور طويلة من السعى و الإخلال بالمواعيد ..
حصلت على موعد مع رئيس حى شرق .. و ذلك بالطبع
بعد أن تعرّف مدير مكتبه على إسمى ، فنظر إلى
متشككاً من خلف عويناته و تساءل :

- حضرتك ابن السيد (ممتاز خشبة) رجل الأعمال المعروف ..؟..

- (أزفر بحنق) : نعم ..

و لم تكذ تمضى دقائق حتى كنت جالساً على المقعد المجاور لمكتب رئيس الحى .. إستقبلنى الرجل - أشهد - ببشاشة .. أنصت إلى بأدب و أنا أعرض عليه مشروعى لاعادة تنظيم و تطوير منطقة (العامرية) و اعادة تأسيس شبكات البنية التحتية و الخدمات الأساسية وفقاً لمخطط دقيق إستغرقت ما يقرب من عام فى وضعه وفقاً لأحدث تقنيات تخطيط المدن التى درستها .. استمع الرجل إلى حتى انتهيت فأثنى بشدة على المشروع و أهدافه الوطنية ، و رجانى أن أترك نسخة منه لعرضها على المحافظ قبل تشكيل لجنة من أساتذة هندسة المدن لإعتماد المشروع و إتخاذ ما يلزم للبدء فى التنفيذ على الفور .. ثم سألنى و هو ينظر الى نظرة لم أفهمها فى حينها :

- هل يعتزم السيد الوالد المشاركة فى هذا المشروع ..؟؟..

أجبتة مندهشاً :

- لا شأن لوالدى بهذه النوعية من المشروعات ..

أطلق ضحكة مفتعلة و قال :

- آه .. بالطبع ..

شكرنى و وعدنى بالإتصال بى لتحديد موعد مع السيد

المحافظ فى أقرب وقت ...

أسابيع طويلة قضيتها أحلم بنجاح المشروع و أنتظر الإتصال دون جدوى .. بدأت من جديد سلسلة من المحاولات المضنية لمقابلة الرجل .. و عندما فعلت كان الجواب هو أن المشروع قيد الدراسة .. مرّت شهور .. تكررت المقابلات و الإجابات .. مازال المشروع قيد الدراسة .. إلى أن جاء اليوم الذى التقيت به رئيس الحى - و كان قد مرّ أكثر من عام على لقائى الأوّل به - و قال لى بأسف أن اللجنة لم توافق على المشروع لأن تكاليف تنفيذه لا تتفق مع النتائج المرجوة من وراءه .. - و لكن يا (سيّد) بك هذا مشروع خدمى لسكان هذه المنطقة الذين يعانون من تدنى مستوى الخدمات الأساسية .. ليس لديهم صرف صحى سليم .. يشربون مياه مخلوطة بمياه الصرف .. و غيرها الكثير من المشكلات .. و بالتالى فلا مجال لإعتباره مشروعاً تجارياً ترتجى أرباحاً من وراءه .. الربح الوحيد من وراء مثل هذه النوعية من المشاريع هو تحقيق راحة و رخاء الناس ، لأنّ هذا هو واجب الحكومة تجاههم ..

ابتسم كأنما يحادث طفلاً و قال :

- و ماذا عن التمويل يا باشمهندس ..؟؟.. ما الذى يغرى مستثمر أو رجل أعمال لتمويل مثل هذا المشروع ..؟؟.. هل سيفعل ذلك لوجه الله ..؟؟.. - لا أتكلّم عن رجال الأعمال أو المستثمرين ..؟؟.. أتكلّم عن الحكومة ومسئوليتها..

- لا شأن للحكومة على الإطلاق بمثل هذه المشروعات .. لم تعد لدينا أية شركات تستطيع المشاركة بها .. كان لدينا فيما سبق و لكنّها بيعت كلّها لمستثمرين عرب و أجنب .. و دور الحكومة الآن أصبح مقصوراً على المتابعة و الاشراف على التنفيذ ..

و مال نحوى قائلاً :

- ودعنى أنصحك بالألا تشغل بالك بمشروعات من هذا النوع لأنها لن تعود على أحد بفائدة .. لن يكسب من وراءها أحد .. لا أنا و لا أنت و لا الحكومة و لا أى مستثمر .. و لو سألت والدك السيد (ممتاز) لقال لك نفس الشئ ..

- (باستنكار) : و ماذا عن سگان المنطقة البؤساء ..؟..

- (بتهمك) : ماذا عنهم ..؟؟.. انهم يعيشون على هذا النحو منذ عشرات السنين .. و لم يحدث أن شكا منهم أحد ..

و ضحك مستطرداً :

- دعهم على ما هم عليه و لا تحاول ازعاجهم و تعكير حالة الرضا التى يعيشون عليها ..

ثم أردف بجديّة :

- والا فستجدهم أنفسهم أوّل من يتصدى لك ..

وجدت يا دكتور أنّ اللعبة أكبر مما كنت أحسب .. كنت أمشى بين الناس فى الحوارى و الأزقة .. أجيل بصرى فى الوجوه الصفراء الذابلة والأجساد الناحلة

المعروقة.. فى العشش والبيوت الآيلة للسقوط.. فى
أسراب الذباب الكثيفة المحلقة فوق الرؤوس و بين
الأجساد.. أسير محاذرا الخوض فى برك الطين وروث
البهائم.. أكتم أنفاسى لكيلا تتسلل لأنفى روائح البول
والفضلات مختلطة بروائح الأطعمة المنبعثة من فتحات
البيوت.. شتائم بذئمة وضحكات صاحبة تخرج من
أفواه نخر السوس أسنانها الصفراء.. وأجواء معبقة
بدخان المزاج..

كنت أخوض فى كل هذا.. وعقلى يصرخ: هل من
الممكن حقاً إصلاح مثل هذا المسخ..؟..

تنمو مشاعر التقزز بداخلى وتتضخم.. ومعها كانت
ذكريات حياتى فى (باراداييس هايتس) تراودنى فأشعر
بحنين شديد إليها..

يوماً بعد يوم.. كانت فكرة محددة تترسخ فى ذهنى:
هذا ليس مكانى.. وهؤلاء ليسوا قومى..

ثم جاءت القشة التى قصمت ظهر البعير..

كانت هذه القشة هى (سميرة).. من (سميرة)..؟.. تلك
الفتاة التى عملت لدى فى مكتبى الوليد.. مزيج من
السكرتيرة ومديرة المنزل والخادمة.. ثلاثينية سمراء
على شئ من الامتلاء.. صموت كسيرة العينين.. أقبلت
على العمل فى مكتبى بنشاط وتفان بالرغم من تواضع
أجرها.. كانت تاتى للمكتب باكراً.. تقوم بتنظيفه
وترتيبه (وهى مهمة شاقة حقاً نظراً لفوضويتى
الصارخة).. أستيقظ من نومى (لاحظ أنى أقيم فى

نفس الشقة) فأجدها لامعة بزّاقة، وأجد فطوري جاهزاً
ومَجّ النسكافيه يتصاعد منه البخار.. وتكون هي قد
أبدلت ثيابها وارتدت ثوباً أنيقاً إبتعته لها وتجلس خلف
مكتبها لتقوم بمباشرة عملها كسكرتيرة للمكتب..

كم ظل هذا الوضع..؟.. ما يقرب من العامين.. كنت فى
ذروة الإكتئاب والإحباط بعد تجاهل الجهات الرسمية
للمشروع الذى أنفقت عاماً كاملاً فى دراسته و
التخطيط له.. عدت إلى المكتب وشفقت الباب خلفى
بعنف.. كانت جالسة خلف مكتبها ووجهها مدفون بين
كفيها و كأنها مستغرقة فى النعاس.. سمعت صوت
الباب يُصفق فجفلت ورفعت وجهها إلى.. نظرت لها
حانقاً.. كدت أصرخ فيها بأن السكرتيرة التى تنام فى
العمل لا تصلح له وأنها مفصولة، لولا أن لمحت خيطان
لامعان من الدموع يترقرقان على وجنتيها سارعت
أصابعها لمسحهما.. هبت واقفة..

- مساء الخير يا (سميرة)..

- مساء الخير يا باشمهندس..

إقتربت منها..

- هل كنت تبكين..؟..

أحنت رأسها..

- (بصوت مختنق): لا أبداً..

أمسكت ذقنها بين سبابتى و إبهامى ورفعت رأسها
إلى.. نظرت فى عينيها الواسعتين السوداويتين
المبللتين.. شعرت بأننى أغوص فيها.. مرت الثوانى

والدقائق.. بحركة لا إرادية ضمنتها إلى صدري..
كانت أكثر من عاشرت في حياتي حرارة و عاطفة..
ضاجعتها وكأننى أفرغ بداخل جسدها كل طاقة الغضب
والسخط المحتشدة بداخلى منذ شهور.. أمّا هى فكنت
أشعر بأصابعها تنغرس فى لحم ظهري.. تعتصرنى بقوة
وكأنها تخشى أن أفر منها.. كانت لحظات نادرة من
الحميمية الصادقة لم تمر بى من قبل على كثرة
علاقاتى.. بعد المرة الأولى نظرت مفزوعة إلى الدم
وراحت تبكى بكاءً مريباً وهى تضم طرفى قميصها
المفتوح.. فيما بعد عرفت أنها كانت تبكى لدى دخولى
بسبب معايرة زوجة أخيها المقيمين معهم فى نفس
البيت لها بتأخر زواجها.. حكت لى عن ظروف أسرتها
شديدة العوز و الفقر والتي تنفر أى عريس من الإقتراب
منها.. بئسة حقاً كانت عطشى للحب والحنان.. نمنا
سويّاً عشرات المرات على مدى الأسابيع التالية لدرجة
أنها باتت ليالى عديدة معى فى المكتب.. تحديق فى
وجهى كل مرة عقب انتهائنا.. عيناها السوداويتان يطل
منهما مزيجاً مدهشاً من الرضا والحب والبؤس
والرجاء.. هذا الرجاء بالذات حيرنى لبعض الوقت حتى
بدأت أفهم.. أكاد أسمعها تردد فى أعماقها..

- ما تستر على و تتجوزنى واعيش خدامة تحت
رجليك..

ألتقط سيجارة من علبتى وأشعلها.. أنفث الدخان بعمق
وأنا أنظر إليها.. وجهها الأسمر.. خصلات شعرها

المجعدة.. عينيها الضارعتين الحزینتین.. هل ستصدقیننی یا صغیرتی عندما أخبرک أننی لا أعترض علیک لشخصک..؟.. هل ستفهمیننی عندما أقول لک أن هذا العالم القذر المحیط بنا لا یشتحق علاقة محترمة نقیمها فنکافئه بها..؟.. لا یشتحق أطفالاً نجلبهم إلیه فتتمزق أرواحهم بین تروس الرأسمالیة والإستهلاکیة من جهة، وتروس الجهل والتخلف من جهة أخرى..؟.. هل ست..

متی بدأ الکاوس..؟.. لا أذكر تاریخاً محددأ.. طرقات عنیفة علی الباب.. تجفل.. تهب واقفة وتستتر عربها بثیابها الملقاة.. أنهض أنا.. أغلق باب الغرفة من خلفی.. أخطو عبر الردهة نحو المدخل.. الطرقات تزداد عنفاً.. أفتح الباب.. وجوه شرسة ناضحة بالغضب.. - من أنتم..؟.. وماذا تريدون..؟..

فی الواقع لا أذكر كثيراً ما جرى وما قیل بعد ذلك.. أذكر فقط أول ضربة هوت علی رأسی فأسقطتني أرضاً.. ثم..

”هو ابن الکلب ده اللی صَحَّک علیها و غواها“ .. «هی فین..؟».. «شوفوها جوه».. صوت صراخ (سمیره).. الضربات تنهال علی جسدی من جمیع الجهات.. الألم رهیب رهیب.. «إدبحوه و ادبحوها».. «خدوها ع البيت الوسخة».. (سمیره) تصرخ.. أتلوی علی الأرض.. الضربات.. مذاق الدم.. سنتی الأمامیة تنکسر.. فیما بعد.. روى لى (فتحی) -الديلر الذى یمدنی

بالحشيش - وهو يجفف الدماء المتجلطة على وجهي
بقطنة مبللة كيف هرع إلى هنا بعدما رأى أهل الفتاة
قادمين والشر «بينط من عنيهم»، وأته عندما رآهم
يكادون يقتلوننى اطلق من حلقه «شخرة طيرت الطير
من ع الشجر» وفتح عليهم مطواته صارخاً بأنه سيقطع
أول يد تمتد نحوى..

- يعنى إنت يرضيك يمرمط شرفنا ف الطين و نسيبه
يا معلم (فتحى)..؟..

- هو كان ضربها على إيدها..؟.. ماهى قدامكم أهى
إسألوها..

- يا معلم مايصحش كده إنت تفهم ف الأصول ..
- اللى أفهمه دلوقتى إنكوا تاخدوا بنتكم و تغوروا من
هنا .. و اللى انكسر يتصلح .. وانا بالليل هانعدى عليكم
ونتفق على كل حاجة..
- بس يا مع..

- (بغلظة) : مابسش .. ياللا غوروا من هنا قبل ما
الشيطان يوزنى واعملها معاكو..

و غمس قطنة جديدة فى الماء و هو ينظر لى بلوم
قائلاً:

- مالقيتش يا باشا غير البت المعفنة دى و تنام معاها
..؟! دى حتى معصصة و فقرية و أهلها كلهم ولاد كلب
جربانين.. ما كت قلت لى إنك ليك غرض ف النسوان و
أنى كنت نجيبك اللى أجمل و أنصف منها ميت مرة زى
مابنجيبولك مزاجك..

و ناولنى سيجارة حشيش مشتعلة مردفاً بجديّة:
- بس خلى بالك.. أنى ادبتهم كلمة إنك هاتصلح اللي
إنكسر.. العالم دى معفنة بس ف موضوع العرض ده
مايبرحموش.. وانت برضه كسرت برشامة بنتهم..
نفثت دخان الحشيش و سعلت متسائلاً بصوت
متحشرج :

- يعنى إيه..؟..
- تعقد عليها يا باشا.. حبر على ورق.. وبعد كده ابقى
إرميلها هى وأهلها قرشين وكل واحد يروح لحاله ويا
دار ما دخلك شر..
لم أجادله لأننى كنت أشعر باختناق وأرغب فى الفرار
من كل هذا الهراء بأى ثمن.. نفذت السيناريو حرفياً..
وعقب خروجى من دارهم سحبت الموبايل من جيبى
وطلبت رقماً.. سمعت الصوت العزيز..
- (بصوت مختنق) : بابى.. أرسل إلى من يأخذنى من
هنا..

(صمت طويل .. طويل ..) ثم ..
- (بصوت خفيض) : حتى الآن لم أعرف ما دخل
تناسخ الأرواح بهذا الموضوع ..
- Sorry دكتور .. لا أدرى لم استفضت بهذه الصورة ..
- لا عليك .. تكلم كما تشاء ..
- (يتنهد) : عدت غير نادماً إلى (باراداييس هايتس) ..
مرّت أيام عديدة قبل أن أسمع الأنين ..

- أنين...!!..

- (بصوت متوثر): أنين طويل متألم تسلل إلى أذني..
كأن أحدهم قد تمزقت أوصاله منذ وقت قليل في
الجوار..

عقار

ليه أمشى حافى، ونا منبت مراكيبيكم..
ليه فرشى عربان، ونا منجد مراتبيكم..
ليه بيتى خربان، ونا نجار دواليبيكم..
هى كده قسمتى..؟..
الله يحاسبكم..!
بيرم التونسى

- إفتحى الشباك شوية يا ولية .. الدنيا حر ..
- الصهد كده هايدخل يا (ابو فوزى) ..
- يدخل واللا يطلع .. يا ولية افتحى آنى خلاص
هانتخنى ...
- بعد الشر عليك يا خويا ..
مسحت قطرة من العرق سالت على جبيني و كادت
تتسلل الى عيني لتحرقها ... نفس عميق .. أشعر أن
الشقة - الضيقة أصلا - تضيق أكثر و أكثر حتى لتكاد
تخنقنى ..
سمعت الولدان يصرخان و يتعاركان فى غرفة النوم
الوحيدة بالبيت .. هتفت :
- بظل خناق يا كلب منك له أحسن و رب العزة نقومو
لكم ...
«مشروعنا (إيجى - نيرجى) من المشروعات الطموحة
التي تستهدف بالدرجة الاولى تحقيق نهضة صناعية و

خدمية للوطن بأكمله...»..

بعينين لا تكادا تريان .. و باذنان لا تكادا تسمعان ..
رحت اتابع تلك الفقرة الإعلانية مدفوعة الأجر التي
يعرضها برنامج (مساء الخير يا مصر) ...

«يعانى العالم كله من مشكلة تناقص مصادر الطاقة ...
و دخلت جميع الدول فى سباق محموم لتوفير طاقة
رخيصة و نظيفة.. دول لجأت الى الطاقة الشمسية ... و
دول اخرى اعتمدت على الطاقة النووية.. و دول ثالثة
مازالت تعتمد على مخزونها من البترول و الغاز الطبيعي
... «..

الخدر يسرى فى جسدى بعد صحنى البصارة اللذين
التهمتها.. ومذاق البصل مازال يحرق جوفى بشدة..
- فين البطيخ يا ولية ..؟..

«(إيجى – نيرجى).. أول شركة مصرية عالمية
متخصصة فى إنتاج وتوليد وإستخلاص طاقة الرياح..
وقد أثبتت الأبحاث والدراسات العلمية أن طاقة الرياح
من أهم و أوفر مصادر الطاقة المتجددة غير المستغلة..
ووفقا لجداول الاحصاءات والدراسات الجغرافية
وتقارير متابعة الأرصاد الجوية فإن المنطقة الممتدة
بطول الساحل الشمالى لـ (مصر)، والمطل على البحر
الأبيض المتوسط تعتبر من أغنى مناطق العالم بطاقة
الرياح نظراً لتلاقى تيارات هوائية مختلفة أقواها
بالطبع الرياح الشمالية الغربية القادمة من (اوروبا)
شمالاً»..

شرائح البطيخ الحمراء توضع أمامى مرصوصة على
صينية معدنية ..

- (وأنا أختطف واحدة): تسلمى يا (ام فوزى)..
- بالهنا و الشفا يا خويا .. (ثم ترفع عقيرتها): يا عيال
.. تعالوا كلوا بطيخ ...

«تمتلك (إيجى - نيرجى) أحدث تكنولوجيا لاستقبال
طاقة الرياح وإستخلاصها وتحويلها إلى طاقة كهربية
متدفقة بلا انقطاع ... و قد أقامت سلسلة من محطات
الإستقبال و الإستخلاص على طول الساحل الشمالى
المصرى .. و تقوم هذه المحطات بإرسال الطاقة المولدة
والمستخلصة الى محطة المحولات الرئيسية المقامة
عند الكيلو ٥٢ .. وهناك يتم خفض جهدها و إرسالها إلى
لوحات توزيع جهد ٢٢ فولت، والتي تقوم بدورها بتوزيع
الطاقة الكهربائية على مناطق الاستهلاك المختلفة ..» ...
مذاق البطيخ البارد اللذيذ يملأ حلقى و معدتى
فيرطب نيران جهنم المستعرة بداخلهما .. الحمد لله رب
العالمين ...

خرووووشش ... خرووووووش ...

- بالراحة يا واد مئك له .. هو الأكل هايطير ..؟...
قالت امرأتى ضاحكة و هى تلوك الفاكهة لذيذة الطعم :
- يووه يا (ابو فوزى) .. ما تسيب العيال تاكل .. ربنا
يخليك لينا ...

خرووووشش ... خرووووووش ...

لفظت البذور السوداء فى راحة يدي ، و أسقطت ما

وصاح الصغير مقلداً بصوته الرفيع :

- أيوه عايزين فلوس يا بويا ..

قلت بغيظ :

- روحوا خدوا من امكم بقى ...

جاء صوتها من المطبخ ممزوجاً بصوت المياه

المتساقطة من الحنفيّة:

- تعالى يا (فوزى) خد الجنيه اللي ع النملية ...

- مايكفّيش .. هاتى جنيه كمان عشان نشربو صاروخ

...

- وانتوا لازم يعنى تشربوا صاروخ..؟.. خد نص جنيه

تانى أهو مفيش غيره ...

و دون كلمة اخرى اختفى الولدان كأنما انشقت الأرض

و ابتلعتهما.. استندت الى الأريكة المتهالكة ، و نهضت

بصعوبة من على الأرض، واتّجهت بخطوات متثاقلة الى

غرفة النوم - الوحيدة - و استلقيت - كالجوال -

على الفراش ...

رحت أتنفس بصعوبة ، شاعراً بأن ثقل الطعام يجثم

على روعي ...

أسمع صوت خطواتها .. واضح من لهفتها أنّ الرغبة

تملؤها .. إنقلبت على جانبي.. فشش فششش .. رائحة

عطرها تملأ الغرفة .. اغلق عيني.. أتظاهر بالنوم ...

السريـر يئن تحت ثقلها الاضافى .. أشعر بأصابعها

تزحف على كتفى .. أسمع صوتها الناعم :

- (أبو فوزى) ...

تجمع منها فى الصينية (لوضعها فى الشمس) بجوار
قشور البطيخ .. تجشأت بصوت مسموع ، و لعقت ما
تبقى من آثار البطيخ على أصابعى ، و أنا أتأمل الطفلين
- (فوزى) و(على) - وهما يزدردان البقايا الموجودة
فى الصينية...

«طاقة (إيجى - نيرجى) تمتد لتخدم ما يزيد عن
عشرين مليون وحدة سكنية وتجارية و صناعية ، و
نخطط لتغطية جميع أنحاء الجمهورية فى أقل من
عامين»...

تنهض (محفوظة) - امرأتى - حاملة الصينية من
على الطبلية الى المطبخ .. تخاطب الطفلين :
- ياللا يا عيال .. انزلوا العبوا تحت مع العيال ف
الحارة ...

أدركت على الفور ما تخطط له ، فصحت منزعجاً :
- لعب ايه يا ولية ف الحر ده ..؟.. إنتى عاوزة العيال
تجيلها ضربة شمس ..؟..

- الشر بزّه و بعيد يا خويا ... سيب العيال تلعب
وتنبسط ... دى حتى الحبسة مش كويسة علشانهم ..
- (بالحاح) : و بعدين العيال ولاد (جمعة) الحلاق دول
حلايف وبيضربوا الواد (على) .. وآنى مش عايز نعملو
عاركة معاه ..

- أهم عيال و بيلعبوا مع بعض ...

زفرت بحنق .. سمعت الولد الكبير يهتف :

- عايزين فلوس يا بويا ..

- خخخخخخ ...

- أيوووه .. انت لحقت تنام يا راجل..؟!..

«(إيجى – نيرجى) .. الطاقة و الأمان يتواصلان»..

على عكس فترة الظهيرة و ما بعدها، جاء الهواء بارداً منعشاً فى المساء.. كنت جالساً على تلك الأريكة الخشبية القديمة أعلى سطح بيت الرئيس (فتح الله) فى (المزريطة).. تراجعت مسنداً ظهري إلى الوسادة الموضوعه عرضياً على ظهر الأريكة ورحت أداعب بأصابعى أوراق اللبلاية المدلاة الى جوارى.. سمعت (عاشور) يقول بصوته الأَجَش:

- احنا مش لازم نستئو أكثر من كده..

قال الرئيس (فتح الله) و هو يقبل حاملا صفحة عليها أكواب الشاي الساخن :

- اهدا يا بنى ..

هب (فرحات) ليلتقط منه صينية الشاي و يوزع علينا الأكواب بينما قال (عاشور) :

- نهذا ازاي بس يا ريس..؟!.. هانقعدو نتفرجو عليهم كده و همّا بيبيعوا يشتروا فينا ..؟!..

سكينة جميلة تغمرنى منذ أن أدت صلاة العشاء فى مسجد (القائد ابراهيم) المجاور.. إلتقطت كوب الشاي الساخن.. لأول وهلة ملأت صدرى رائحة النعناع الأخضر المتصاعدة مع أبخرة الشاي.. سمعت الرئيس (فتح الله) يقول برزانة:

- التسرع مش هايفيدنا ف حاجة.. ده ممكن كمان
بيوظ الدنيا كلها..

رشفة مسموعة من الشاي.. ثم تساءل (نعمان):
- سسلففف (رشفة شاي).. طب انت شايف ايه يا عقنا
..؟..

- سسلففف (رشفة شاي).. أنى بنقول نستئو رد اللجنة
النقابية.. هفا وعدونا انهم يردوا علينا بعد اسبوعين..
والاسبوعين هاخلصوا بعد ٣ تيام ..

السطح مضاء جيداً بواسطة كلوب معلق على سطح
غرفة غير مكتملة البناء.. ومن الحارة المجاورة
تصاعدت ضوضاء مختلفة هي مزيج من أبواق
السيارات و صراخ الأطفال و ضحكات الرجال و نداءات
بعض الباعة وسباب الصيغ..
قال (عاشور) بحنق:

- بس انت عارف يا ريس ان اللجنة النقابية بتقبض من
صاحب المصنع.. وعمرهم ماهايعضوا معاه..

مددت يدي اليهم بعلبة سجائري المفتوحة متمتما :

- طب و (حسين مغاوري)..؟..

- (يسحب سيجارة من العلبة): ده بقى بالذات كرشه
واسع أوى.. وذمته أوسع ..

تساءل (نعمان) مرة اخرى:

- طب واذا ماردتش اللجنة علينا بعد ال ٣ تيام ما
يخلصوا..؟..

- ساعتها بقى هايبقى فيه تصرف تانى..

- زى ايه..؟..

هنا تكلم الرئيس (حمدى) لأول مرّة فقال:

- زى اننا نسحب الثقة من اللجنة.. و نعمل لجنة جديدة..

أسرع الرئيس (فتح الله) يقول:

- ده كلام سابق لأوانه يا اخواننا.. أمّا نشوف الاول رد اللجنة..

ارتشفت الشاى بصوت مسموع، بينما سمعت الرئيس (حمدى) يقول بهدوء :

- احنا لازم نكونو جاهزين برد فعل سريع لآى تصرف من اللجنة يا حاج..

- سسلففف (رشفة شاى).. أنى عارف ان اللجنة مش هاتبيعنا.. الاستاذ (محمّد حسبو) بلغنى انهم مش راضيين عن الوضع.. وهايفضلوا ورا المالك الجديد لغاية ما يرجعوا لنا كل حقوقنا..

نفث (عاشور) دخان سيجارته بعنف قائلاً:

- ماتآخذنيش يا حاج.. الاستاذ (محمّد حسبو) ده ماتخدش منه كلام..

لمعت عينا الرئيس (فتح الله) بالغضب وهو يقول:

- قصدك ايه..؟..

أسرعت أنا أقول:

- مايقصدش حاجة وحشة يا حاج لا قدر الله.. هو بس يقصد ان الاستاذ (محمّد حسبو) راجل طيّب، والعالم اللى حواليه دول ولام حرام.. بينيموه بكلمتين حلوين،

ويلعبوا بديلهم من وراه..

- (بغضب): ولو.. الراجل وعد ان الموضوع مش هاتركن.. ولازم نستنى عليه..

و نفث سحابة من دخان التبغ متابعا:

- أى تصرّف هانقوم بيه ضد اللجنة هايكون ليه مردود وحش ف اتحد العقال.. واحنا مش عايزين نخسر الاتحاد.. فلأزم نصبر شوية لغاية مانشوف آخرتهم ايه.. أنهى كلماته، وساد من بعدها صمت متحفّز.. رحت أتحمس البلاط البارد تحت قدمى العاريتين (و قد خلعت حذائى)، ودرت بعينى فى الجالسين.. سحب الدخان تموج فوق الرأس.. أطرق (عاشور) بوجهه المحتقن المربد بالغضب أرضاً، بينما ظل قناع من الهدوء يغطى وجه الرئيس (حمدى).. تشاغل (نعمان) بارتشاف ما تبقى من قطرات الشاي فى كوبه.. أما (فرحات) فراح -كعادته الوسخة- يعبث باصبعه فى ثقب أنفه..

طال الصمت و جثم فوق النفوس.. تنهدت قائلاً:

- وحده..

«لا اله الا الله»..

تساءل الرئيس (حمدى):

- يعنى آخر كلام يا حاج اننا نستنى رد اللجنة ..

أوما الرئيس (فتح الله) برأسه مجيبا :

- واللى فيه الخير يقدمه ربنا ..

هب (عاشور) واقفا وقال بحدة :

- لا أفهم شيئاً يا باشمهندس.. من هو (عاشور) و(فتح الله)..؟.. ومن هو (أبو فوزى) هذا..؟.. وما دخلك أنت بكل هذا..؟..

- (بعد لحظات من الصمت): لا يمكننى الجزم بشئ.. كل ما أستطيع قوله لك هو أننى عشت هذه الأحداث بكامل تفاصيلها من قبل..

- ممكن أعرف مطالبكم بالتحديد..؟..
تساءل المهندس (عادل المهدي) -مدير عام التنفيذ بالمصنع- وهو يسترخى فى مقعد مكتبه الوثير، فأجاب الرئيس (حمدي) بصوت قوى:
- مطالبنا انتو عارفينها كويس يا (عادل) بيه.. وعرضناها عليكم قبل كده، وماحقتولناش منها أى حاجة.. مع إننا مش طالبين أكثر من حقوقنا..
قال (حسين مغاورى) -رئيس اللجنة النقابية- الجالس الى أريكة جانبية:

- مفيش مانع إننا نسمعها تانى دلوقت..
التفت اليه الرئيس (حمدي) قائلاً بحزم:
- إنتو بالذات يا (حسين) بيه راسيين على موضوع المكافآت وأرباح الأسهم بتاعتنا اللي ماصرفناهاش من سنين.. وسنة ف سنة تعشّمونا اننا خلاص هانصرفها.. ولا صرفنا مليم احمر.. لغاية م الشركة والمصنع اتباعوا واحنا اتبعنا معاهم.. والمستثمر ضرب طناش على فلوسنا..

قال (عادل المهدي) بلهجة دبلوماسيّة:

- يا رئيس (حمدي).. إنت عارف إن الإدارة الحالية بتسعى انّها تطوّر الإنتاج و ترفع معدّلات الأداء.. وده بيتطلب ضغط النفقات.. يعنى مانقدرش إننا نصرف الأرباح ونحقق التطوير ف نفس الوقت.. فكان لازم حاجة تستننى وحاجة تتقضى.. وانت برضه رئيس عقّال وتهمّك مصلحة الشركة بتاعتك..

- الناس مالهاش دعوة بالكلام ده يا (عادل) بيه.. إحنا بنطالب بحقوقنا بقالنا سنين و ماطلناش منها حاجة..

تدّخل (حسين مغاوري) بسرعة قائلاً:

- آنى اتكلّمت مع الرئيس (فتح الله) وقلت له اننا أقنعنا الادارة إنها تصرف مكافأة ال ٢١ يوم..

- ال ٢١ يوم دول تصرفهم لنفسك يا (حسين) بيه.. إحنا مصرّين المرة دى اننا ناخذ كل حقوقنا..

فتح (مغاوري) فمه ليتكلّم، ولكن الرئيس (حمدي) تابع:

- كنا عارفين انكم مش هاتعبّرونا.. ورغم كده سمعنا كلام كبيرنا الرئيس (فتح الله) وقلنا نصبر لقا نشوف آخرة الكلام الجميل و الوعود ايه.. لكن اتضح إن مصلحة العقّال هى آخر حاجة بتفكّروا فيها.. ده إذا حصل أصلاً و فكرتوا فيها..

- (غاضباً): إيه اللهجة اللى بتكلّمنى بيها دى يا رئيس (حمدي)..؟.. إنت هاتنسى نفسك واللا إيه..؟..

تدّخل (عاشور) لأول مرّة صائحاً:

- إنت اللى ماتنساش نفسك يا (حسين) يا (مغاوري)

(... مصيبة لاتكون فاكر نفسك رئيس اللجنة النقابية
بصحيح ..

إربد وجه (مغاوري) بالغضب وهو يهتف:

- إحترم نفسك يا (عاشور) واعرف انت بتكلم مين.. أنا
ممکن نوديك ف داهية عشان طولة لسانك دي..
كاد (عاشور) يصرخ فى وجهه مزّة اخرى لولا أن قبض
الرئيس (حمدى) بقوة على ذراعه فى حين صاح (عادل
المهدى) بحزم:

- بس كفاية.. الخناق ده تروحوا تتخانقوه ف الشارع..
أما هنا ف مكتبى.. كل واحد يلزم حدوده..
شدّ الرئيس (حمدى) قامته قائلاً:
- الكلام يبقى معايا انا يا (عادل) بيه..
- بصفتك ايه..؟..

- بصفتى رئيس اللجنة النقابية..
هنا صاح (حسين مغاوري) باستنكار:
- سمعنى كده تانى بتقول ايه..
- (بصرامة): انت سمعتنى كويس ..
- (بغضب هادر): إنت أكيد جرى لمخك حاجة.. رئيس
اللجنة..؟.. أمال أنىبقى ايه يا .. يا اسطى..؟..
- إنت عارف كويس انت ايه.. وجيت مكانك ده ازاي..
إنت جاي علينا من فوق بتعليمات.. لا حد انتخبك ولا
حد اذاك صوته.. وعشان كده مش هامك حد م العقال..
قال (عادل المهدي) بحزم:
- كفاية كده يا رئيس (حمدى)..

- (وكأنه لم يسمع): احنا عارفين ده كويس.. ومتأكدين
انك مابتسعاش غير ورا مصلحتك.. انت واللجنة
بتاعتك.. وعشان كده عمال المصنع سحبوا الثقة من
لجنتك.. وكوّنوا لجنة جديدة اختاروني ريس ليها..
صاح (مغاورى):

- ده كلام فارغ.. محدش من سلطته إنه يسحب الثقة
من اللجنة النقابية.. و لجنتك دى مش قانونية..
تجاهله الرئيس (حمدي) والتفت إلى المهندس (عادل)
وأشار إلى قائلاً:

- الاسطى (عقار) معاه صور توكيلات أكثر من ٣٠٠
عامل من عمال الشركة عشان اللجنة الجديدة لو
حضرتك تحب تطلع عليهم.. وبصفتى الرئيس
المنتخب.. أبلغك إن العمال ابتداء من النهاردة بعد ما
تخلص وردية الساعة ٣ .. فى حالة إضراب واعتصام
مفتوح داخل المصنع لغاية ما الادارة تستجيب لمطالبهم
وترجع لهم حقوقهم..

ساد للحظات فى الغرفة صمت مشحون بانفعالات
شتى تمثلت فى إحتقان وجه المهندس (عادل) و
تصاعد أنفاس (مغاورى) المنفعلة، قبل أن يردد الأول
بغضب مكتوم :

- إضراب واعتصام..؟..

- (بهدوء): أيوه ..

- هنا ف المصنع..؟..

لم يرد الرئيس (حمدي)، وظللنا نتبادل نظرات التحدى

مع الرجلين، قبل أن يقول المهندس (عادل) بهدوء
مفتعل:

- بس ده تصرف مش سليم يا ريس (حمدى).. ومش
هايجيب أى نتيجة..

- ماخليتولناش طريق تانى يا باشمهندس..
صاح (حسين مغاورى):

- إنت بتلعب بالنار يا (حمدى).. وأنى ليّا كلام تانى مع
الريس (فتح الله) لقا يقوم بالسلامة..

لوح الرئيس (حمدى) بسبابته قائلاً بصرامة:

- إسمى الرئيس (حمدى).. والحاج (فتح الله) لا يمكن
يتفاوض معاك حتى بعد لقا ربنا يشفيه.. ده ماوقعش
من طوله الا لقا عرف انك انت واللجنة بتاعتك بعتونا
لصاحب المصنع..

وأدار عينيه إلى المهندس (عادل) قائلاً:

- بالاذن يا باشمهندس.. لغاية ما توصلوا لحل مع
صاحب الشركة وٹصرفوا لنا حقوقنا.. إحنا مش
متتعيين م المصنع.. سلام عليكم..

والتفت مشيراً إلينا:

- بينا يا اسطوات..

لم تكن الأيام التالية سهلة على الإطلاق..
قمنا بايقاف الماكينات، وتوقف المصنع عن الانتاج،
وتوقف معها صرف رواتبنا، ولكننا لم نكن مستعدين
للتراجع..

كان هناك الكثير من الصراخ والتهديد من قِبَل الادارة،
وتوَعَدنا الباشمهندس (عادل) بخراب بيوتنا، وبأن
الادارة تدرس خطوة الفصل الجماعى لعقال المصنع،
ولكننا لم نتزعزع..

ذات يوم حضر السيد (عمران الشايب) نائب المنطقة
فى مجلس الشعب، واجتمع بالرئيس (حمدى) لساعة
كاملة فى مكتب رئيس العقال، خرج بعدها بوجه محمّر
كالطماطم، وبينما هو سائر نحو سيارته قال له الرئيس
(حمدى) - وكان واقفاً عند البوابة - بصوت مرتفع:

- خاف ربنا يا (عمران) بيه.. المفروض إن انت النايب
بتاعنا.. يعنى ترعى مصالحنا وتقف معنا بدل ما تقف
معاهم..

و بعدها بيومين.. حضر ضابط شاب من مباحث أمن
الدولة أخبرنا أنه الرائد (حاتم البكرى)..

- المعلومات اللى عندنا بتقول ان الإخوان المسلمين
بيدعموا الاضراب بتاعكم..

- دعم إيه بس يا باشا..؟.. إحنا مالناش دعوة بإخوان
ولا حتى بأخوات.. إحنا ناس غلابة بندور على حقوقنا..
- (نفث دخان سيجارته المستوردة): بس الإخوان ليهم
ناس وسطيكو..

يقصد بذلك (محمّد فرحات) - وكان زوج شقيقته
إخوانيًا- وكان الرئيس (حمدى) يدرك ذلك جيّدًا:

- يا باشا لو كنت تقصد (محمّد فرحات)، فسيادتك
أكيد عارف ان نسيبه هو اللى بيشتغل مع الاخوان.. لكن

هو لأ.. هه هه.. (فرحات)..؟.. ده حتى ما بيركعهاش..
- ع العموم احنا هانخده عندنا كام يوم.. وهناك
هانعرف اذا كان بيركعها والا ما بيركعهاش..
- إرحمه يا باشا الله لا يسيئك.. ده راجل غلبان
وصاحب عيال..

- (بلهجة حازمة): مش عايز كلام كثير ...
وارتدى منظاره الشمسى متأهباً للانصراف..
- إحنا ساينكو تحلوا مشاكلكم بنفسكم مع صاحب
المصنع.. لكن لو عرفنا ان فيه اتصال حصل بينكم وبين
الإخوان .. أو أى محطة فضائية.. هانوقف اللعبة
وهاتروحوا كلكم ورا الشمس.. مفهوم..؟..

كان الأمر عبارة عن لعبة صبر وقوة احتمال.. صاحب
المصنع - وهو سعودى الجنسية بالمناسبة - يخسر
أموالاً طائلة عن كل يوم يمر بلا انتاج.. بينما حالتنا
نحن تزداد سوءاً يوماً بعد يوم بسبب توقف الإدارة عن
صرف رواتبنا التى تعيش عليها الأفواه المفتوحة التى
تملاً بيوتنا.. وكان السؤال هنا: من سيصرخ أولاً..؟..
كانت الأيام تمر، والأوضاع تزداد صعوبة.. قالت لى
(محفوظة) - إمرأتى - ذات مرّة وقد جاءت لزيارتى فى
المصنع حاملة بعض الطعام:

- و آخرتها إيه يا (ابو فوزى)..؟..

- مالك يا ولية..؟..

لم ترد.. ظلت واجمة شاخصة العينين.. اقتربت منها..

إحتويّت وجهها بين كفى.. رفعت رأسها نحوى.. هالنى
منظر عينيها وقد التمعتا بالدموع.. قلت بارتياح:
- فى ايه يا (محفوظة)..؟..
أسرعت تمسح عينيها وتقول:
- مفيش يا خويا.. ربنا يخليك لينا..
صحت:
- اتكلمى يا وليّة..
صمتت للحظة ثم خفضت بصرها قائلة بصوتٍ دامع:
- الواد (على) سخن بقاله يومين.. خدته ع
المستوصف.. الداكتور كشف عليه ولقى عنده نزلة
معويّة.. قاللى ان المية اللى بنشربها وسخة.. قلت له
ماحنا طول عمرنا بنشربوها وعائشين زى الفل.. قام
زَعَق فياً وقال ان جتتنا ملايانه بلاوى.. وكتب للواد
شوية أدوية على كام حقنة..
مع كلماتها.. هوى قلبى بين قدمى.. سألتها بقلق:
- جبتى فلوس الدوا منين..؟..
- (بابتسامة مفتصبة): ربك مايسيبش حد..
ولكنى كنت أعرف الحال جيّداً.. خفضت بصرى إلى
أصابع يدها الخالية.. قلت بصوت متهدج:
- ديلتك..؟..
ربتت على كتفى قائلة بحنان:
- بكرة إن شاء الله يا خويا تجيبلى اللى أحسن منها..
بس بعد ربنا ماينصركم على ولاد الكلب الظلمة دول..
نظرت إليها عاجزاً عن الكلام..

تمزّ الأيام، والأوضاع تزداد دقةً وحرماً.. ورغم ذلك احتفظنا - نحن العقال - بقدرٍ عالٍ من التماسك.. وشيئاً فشىء.. بدا أن الإدارة صارت أكثر مرونة وأقل تعنتاً في التفاوض معنا.. إنتعش الأمل في قلوبنا.. ورحنا نعدّ الأيام والساعات في إنتظار اللحظة التي تستجب فيها الإدارة لكامل مطالبنا.. حتى جاءت تلك الليلة..

عقب صلاة العشاء.. توجهت إلى العنبر الذي أنام فيه.. وجدت الرئيس (حمدي) ينتظرنى فى الممر المؤدى الى العنابر.. إنتحى بى.. همس فى اذنى:
- خلاص يا (عقار).. فُرجت..
سألته غير مصدق:
- إزاي يا رئيس..؟..
إبتسم فبرزت التجاعيد المحيطة بفمه والمجاورة لشعيرات لحيته البيضاء وهو يقول:
- (عادل المهدي) اتصل بيا من عشر دقائق.. وقاللى إن الإدارة مستعدة تصرف كل مستحقات العقال.. وبكره ان شاء الله هاتيلى لجنة ومعاها تعهد موثق من الإدارة بدفع الحوافز والأرباح المتأخرة..
لثوانٍ تلاحقت أنفاسى.. دمعت عيناي.. همست:
- الحمد لله رب العالمين..
قال بجديّة:

- إنت بقى شايف ايه..؟.. نقول للرجالة بره ع الخبر ده
دلوقتى واللا نستنى لبكرة لقا اللجنة توصل وناخد
التعهد..؟..

- (بانفعال): ونستنى لبكره ليه يا ريس..؟!.. نتوكل
على الله و نفرّحهم دلوقت.. دى حالتهم ما يعلم بيها الا
ربنا..

صمت مفكراً للحظات قبل أن يتنهد قائلاً:
- على بركة الله..

مهما حاولت فلن أستطيع وصف فرحة مئات العقال
المشاركين فى الاضراب بموافقة الإدارة على صرف
مستحقّاتهم..

كان اليأس قد بدأ يتملّك النفوس بعدما مرّت أسابيع
طويلة دون أى نتيجة.. ودون أية موارد ماليّة أيضاً بعد
أن أوقفت الإدارة صرف المرتبات طيلة فترة الإضراب..
راح الرجال يتبادلون الأحضان ويغنون ويرقصون..
وكانت سهرة رائعة لم نسهرها طيلة فترة الإضراب
استمرّت حتى قرب الفجر..

كانت ساعتى تشير إلى الرابعة والنصف صباحاً عندما
استيقظت من غفوة قصيرة.. إعتدت جالساً وتمطّأت..
لم يكن قد تبقى سوى ربع الساعة على آذان الفجر..
نهضت بصعوبة - بعد سهرة الأمس - متوجّهاً إلى دورة
المياه ..

قضيت حاجتى.. توفّأت.. رحت أجفف ما تساقط

على وجهى من ماء الوضوء أثناء سيرى عبر ظلام قاعة
الماكينات مئجها نحو المصلى.. الصمت يسود المكان..

.....

.....

.....

.....

كرييبيبيبيك ...

.....

أجفلت.. تجفدت فى مكانى.. أدت بصرى نحو مصدر
هذا الصوت.. صحت بصوت مبوح:
- ميين..؟..

لا جواب سوى الصمت.. كدت أكمل سيرى على
افتراض أن فأراً هو الذى أحدث هذا الصوت، غير أننى
حدثت نفسى بأن الصوت أعلى من أن يسببه فأر..
- ميين..؟..

لا رد.. تقلصت أحشائى من الخوف.. تحسست طريقى
عبر الظلام إلى زرّ الانارة.. زحفت أصابعى على الحائط
الجيرى المئسخ.. ضغطت الزر.. الإضاءة الصفراء
الشاحبة تغمر القاعة.. لابد أنها ستجذب انتباه العقال
الساهرين فى الساحة خارجاً، وغيرهم ممن استيقظوا
لأداء الصلاة..

تحزكت - وقلبى يدق بسرعة من الخوف - نحو
الماينة التى صدر الصوت من ناحيتها.. درت حولها.. لا
شئ مريب.. تنفست الصعداء.. إنه مجرد فأر كبير إذن..

كدت أن أعود لإستكمل سيرى وقد اطمأن قلبى.. لولا
أن لاحظت وجود جسم غريب مثبت بقاعدة الماكينة..
غريبٌ هذا.. إقتربت لأتفحص هذا الجسم عن قرب و..

بروووووووووم

أحمد خشبة

تنميلٌ غريب يسرى فى أطرافى.. فى جسدى كله.. لا
أقوى على تحريك إصبعاً واحداً.. ما الأمر..؟.. هل
أصبت بالشلل..؟.. أم لعله الموت..؟..
أرقد على فراشى.. عيناي مثبتتان على السقف الملئ
بالشقوق.. البرد شديد.. شديد.. لابد أنه الموت قادماً..
زُغماً عنى ملأتنى الفكرة خوفاً.. وشعرت بدمعة باردة
تفر من عيني..

أيام عديدة مضت منذ عودتى إلى الـ (هايتس).. لا
أذكر عددها، ولا كيف مرّت.. الحقيقة دكتور (حازم)
أنى كنت مخموراً طيلة هذه الأيام.. لم أكن أفيق إلا
لأتجرّع المزيد والمزيد من الخمر بصحبة عدد من
أصدقائى القدامى..
كان الإحساس بالفشل يملؤنى.. يمزقنى طيلة الوقت..
أحلام وآمال كبرى بنيتها فى خيالى، وعشت لشهور
وسنوات أراها تنهار حلماً وراء الآخر.. أنت أب يا دكتور
ويمكنك أن تفهمنى جيداً.. أن تنجب طفلاً.. تراه
أمامك.. تتحسس بشرته الناعمة.. تداعب أصابعه
الصغيرة.. ترى صدره ينبض بالحياة.. ثم تجد حفنة من
الجهلة والمتخلفين يطرحونه أرضاً ويضربونه بأقدامهم
حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة.. هذا هو بالضبط ما
أحسست به..

أتذكر هذا وأشعر بمرارة شديدة وبثقل يجثم على
صدرى، فأرفع الزجاجاة إلى فمى وأتجرع المزيد
والمزيد..

كان استقبال رفاقى القدامى لى حافلاً.. بعضهم تغيّر
و انخرط فى البيزنس، والبعض الآخر ظل كما هو
يمتهن إنفاق أموال ذويه وما أكثرها..

غير أنى لاحظت أن عديدين أصابهم تغيّر من نوع
آخر.. توقفوا عن ممارسة كل ما كانوا يفعلونه، فأطلقوا
لحاهم وارتدوا الجلابيب البيضاء القصيرة، وامتنعوا
تماماً عن مرافقة أصدقائهم القدامى.. رحلات عمرة
شهرية.. إعتكافات فى المساجد.. و.. و..

كانت (مايا أبو العيون) - رفيقتى السابقة التى
حدثك عنها من قبل- هى أول من لاحظت غيابه..
تذكرتها ذات ليلة فاشتعل جسدى بالرغبة.. إستعدت فى
لحظة واحدة التوافق التام الذى ساد بين جسدنا قديماً
أثناء لقاءاتنا فى الفراش.. لم أطق الإنتظار.. سألت أحد
أصدقائى عنها فضحك قائلاً:

- الشيخة (مايا) ..!!؟.. إنسى..

- الشيخة (مايا) ..!!؟..

- (يضحك): أى والله العظيم.. يبدو أنها لم تجد مزاجها
مع أحد من بعدك فاعتزلت..

- منذ متى ..؟..

- عامين أو ثلاثة لا أذكر.. فجأة اختفت من النادى و ال

coffe shops.. لم تعد ترد على مكالمات.. لم تعد تخرج.. ظللنا مدة لا نعلم عنها شيئاً، حتى رأتها (هايدى) ذات مرة فى الـ down town تتسوق.. كانت ترتدى ثياباً سوداء تغطيها بالكامل ماعدا عينيها..

- وكيف تعرّفتها (هايدى)..؟..

- تعرّفت سيارتها الـ (شيروكى) أولاً.. ثم ميّزت طريقة مشيها.. نادتها فالتفتت إليها..

- وماذا دار بينهما..؟..

- لا شئ.. حاولت (هايدى) أن تحادثها وتستفسر منها عن سبب إختفائها، غير أنّ (مايا) لم تمنحها أية فرصة.. أجابتها بإقتضاب وبصوت خفيض أنها أغلقت صفحة حياتها القديمة، وبدأت صفحة جديدة مع الله.. ثم فرّت منها وكأنها تفرّ من عقرب..

كان الخبر مفاجئاً لى بحق.. ويبدو أنّ هذا بدا واضحاً على وجهى ممّا جعل صديقى يقول وهو يشعل سيجارته:

- نصف الشلّة فعلوا مثلها.. وفى أوقات متقاربة.. الأعراض تبدأ بأحاديث عن برامج (عمرو خالد) وسيديهاته.. ثم تأتى حمى الأعمال خيرية وزيارة دور الأيتام وجمع التبرّعات لعلاج مرضى السرطان.. التردد على جامع (الصحابة) فى حى (المدينة) و الإنتظام فى حضور الدروس.. ثرثرة فى الدين بمناسبة وبدون مناسبة.. الحلال.. الحرام.. ثم.. هووووب.. الإختفاء النهائى..

لا تسئ الظن بى دكتور (حازم).. لست كافراً بأى حال..
 أنا مؤمن بالطبع بوجود الله.. لابد من وجود خالق لهذا
 الكون المحيط بنا.. وكما يقول (دستويفسكى): «إذا لم
 يكن الله موجوداً.. فإن كل القيم والأخلاقيات تسقط
 من تلقاء نفسها».. وأى كلام آخر حول قدرة الطبيعة
 على الخلق هو مجرد هراء..

غير أنى مؤمن أيضاً أن ما يريد الله منا هو أن نعيش
 حياتنا دون أن نؤذى أحداً.. لا أعتقد أنه خلقنا ليعذبنا
 ويكبت حريتنا ورغباتنا.. الرغبات والشهوات جزء من
 تكويننا.. ولو أرادنا الله أن نكبتها لما خلقها لنا من
 الأصل.. إنها هى التى تجعل لحياتنا طعماً.. تجعلنا
 بشراً.. ماذا..؟.. لا.. لا أصلى.. الصلاة والصوم والحج
 والعمرة وغيرها شعائر لا شأن لى بها.. هل هى مقياس
 حقيقى للإيمان بوجود الله..؟.. هل مجرد صلاة المرء
 وحجه يكفيان للحكم على إيمانه.. لا أظن.. كثيرون
 يمارسون الشعائر بانتظام، و رغم ذلك لا يتوزعون عن
 ارتكاب أى شئ لتحقيق مصالحهم وعلى رأسهم أبى
 نفسه.. أين صلواتهم وشعائرهم هنا..؟!.. أين إيمانهم
 بالله..؟!.. هل نسوا وجوده..؟!.. أيهما أفضل عند الله
 .. إيمان حقيقى بالوجود أم واجهة إيمانية زائفة أمام
 الناس لا تمنع صاحبها من ارتكاب أبشع الموبقات..؟!..!!!

...

من فضلك دكتور.. هذه قناعتى، ولست مستعداً

لمناقشتها.. دعنا نعد إلى موضوعنا الأساسي..

«هل هذا صحيح..؟.. أنا ميت حقاً..؟.. هل هذا هو ما يحسه الموتى..؟..»

لا ألم هنالك.. هذا مؤكد.. فقط قليل من الصعوبة في التنفس.. ولا شيء آخر.. تنفس..؟.. نعم تنفس.. أنا أتنفس.. إذن فأنا حي.. ما زلت حياً.. حمداً لله.. عبثاً أحاول تحريك أطرافى بلا جدوى..

وجه يطل على من أعلى.. لا أرى بوضوح.. الصورة أمامى مهتزة كأنما هي مطبوعة على صفحة ماء.. جبهة عريضة.. عينان ضيقتين قاسيتين.. الأنف والفم مختفيان تماماً خلف كمامة سوداء.. أو لعله قناع..»
يميل على.. إصبعان يمتدان ليفتحا عيني اليمنى على إتساعها.. العينان الضيقتان تحدقان بتركيز..
الوجه يبتعد عني.. يتلاشى.. بصعوبة أسمع الصوت وكأنه قادم من أعماق بئر سحيقة:
- خذوا هذا..

لم يطل إنغماسى فى الشرب كثيراً.. فجأة.. ذات يوم.. أصابنى الملل.. نفور مفاجئ من حالة انعدام الوزن.. إشتياق عارم للعمارة.. هل كلامى واضح بما يكفى..؟.. عندما تتذوق طعاماً معيناً وترتاح له، يصبح من الصعب أن تتركه إلى نقيضه مهما حاولت أن تبتعد وتقع نفسك أنك تعافه..

غير أننى هذه المرة كنت مختلفاً.. أقيت جميع نظريات البروفيسور (هيجز) عن الإشتراكية وقناعات المعمارى السياسية والإجتماعية ومحاربة الدكتاتورية والجهل والتخلف وراء ظهري.. ما شأنى أنا المعمارى التقنى الحرفى بكل هذا الهراء..؟! .. لماذا أهدر وقتى وموهبتى وعلمى من أجل حفنة من الجهلة المنافقين هم أنفسهم لا يريدون أن يغادروا كهوفهم المظلمة..؟!.. ماذا يعرف هذا الإنجليزى المتحذلق عن (مصر) والمصريين أكثر مما يقرأه فى الصحف والكتب، ويراه على شاشات الـ(BBC) و(الجزيرة إنترناشونال)..؟!.. أنت لم تر(مصر) يا بروفيسور.. أنا فعلت.. وبصدق أقول لك أن أى كلام أو فعل لا فائدة منه.. لقد انتهت (مصر) يا سيدي.. ماتت وتعقنت منذ قرون.. والموتى لا يعودون إلى الحياة..

- وعدت لممارسة عملك..؟!..
- نعم..
- فى (الإسكندرية)..؟!..
- لا..
- أين إذن..؟!..
- إتخذت لنفسى مقراً بسيطاً.. فيلا صغيرة هادئة على الساحل الجنوبى للهايتس.. كانت ملكاً لأبى، ووافق على الفورعلى منحى إيّاها بمجرد أن فاتحته فى الموضوع وقام بتجديدها وتزويدها بكل ما يلزم..

- لابد أنه سعد كثيراً بعدولك عن أفكارك السابقة..
- بالتأكيد.. كان شديد الإبتهاج.. وكذا «مامى».. غير
أنها حزنت عندما أعلنت عزمى على الإنتقال إلى مقر
عملى..

- إنتقلت لتقييم فى مقر عملك..؟!..

- نعم..

- لماذا..؟..

- (يتنهد): لم يكن لدى متسع نفسى لتبادل فيض
العواطف الذى غمرانى به.. كنت أريد الوحدة.. متلهف
على تذوق طعم النجاح.. أما «مامى» فكانت لديها
خطأ من نوع آخر.. متعلقة برغبتها فى أن تفرح بى..
- (ضحكة خافتة): وماذا عن الوالد..؟..

- كان يريد أن يؤسس لى شركة مقاولات كبرى، غير
أننى رفضت وأصررت على رغبتى فى البدء بمكتب
ديكور أمارس فيه عملى كما أشاء..

- ووافق..؟..

- على كل ما طلبته منه.. بل وجلب لى بعض العملاء..

- جميل جداً..

- لا.. ليس كذلك..

- لماذا..؟..

- لأننى فى هذه الأيام.. بدأت أسمع الأنين..

الألم.. لم يكن هيئاً على الإطلاق.. الضوء الأبيض
الباهر يخرق حدقتى عينى.. يحرقهما.. أحاول

إغماضهما بلا جدوى ..

الممر طويل.. طويل..

بقع الضوء فى سقف الممر تتوالى أمام عيني.. لا أشعر
بجسدى على الإطلاق.. ممدد فوق طاولة.. طنين
عجيب يملأ أذنى.. برغم ذلك أميز أنفاس ذلك الذى
يدفع الطاولة .. أسمعها عالية مدوية و كأنها صادرة من
هاى فاى باناسونيك أصلى.. همف .. همف...
خذوا هذا..

قالها الرجل الذى أطلّ على فى الزنزانة.. يأخذوننى
إلى أين..؟.. وما الذى سيفعلونه بى..؟.. وما سر هذا
الشلل الذى سيطر على جسدى..؟.. أنا خائف.. خائف
جداً..

همف.. همف...

المزيد من الأضواء.. المزيد من الطنين.. المزيد من
الألم..

لم يعد لدى سوى الأنين..

الأنين المحبوس فى الصدر بلا أى قدرة على إطلاقه..

برنامج ترفيهى ضخم.. على غرار البرامج المماثلة فى
المحطات التليفزيونية الأمريكية والأوروبية..
هناك العديد من المتسابقين قادمين من بلدان عربية
مختلفة.. الكثير من المشجعين.. محطة تلفزيونية
ناجحة.. مذيع ومذيعه فائقة الشهرة.. إنتاج ضخم..
ستوديوهات عملاقة.. ديكورات فاخرة..

قالت لى مدام (أمل) وهى تقدم لى سيجارة:

- هل يضايقك أن نتحدّث بصراحة..؟..

- (أتناول السيجارة): مطلقاً.. أشكرك..

أشعلت لها سيجارتها، فسحبت نفساً عميقاً نفثته دخاناً،

وتراجعت فى مقعدها قائلة:

- لى مهندس ديكور تعاملت معه فى برامج عديدة

سابقاً.. وبتوالى الأعمال تولد بيننا تفاهم وانسجام كبير

فى العمل.. الباشمهندس (محمود مفيد).. هل

تعرفه..؟..

هزرت رأسى نافياً وأنا أنفث دخان سيجارتى.. تابعت:

- الواقع أننى كنت أنوى تكليفه بتصميم وتنفيذ

ديكورات هذا البرنامج أيضاً.. قبل أن يبلغنى الدكتور

(حافظ) أنك ستتولى هذه المهمة..

ونظرت إلى عينى مباشرة وهى تتابع:

- ميزة (مفيد) الكبرى بالنسبة لى أنه كان يحقق وفراً

كبيراً فى تكاليف الديكور دون أى إخلال بجودتها سواء

على مستوى التصميم أو التنفيذ.. هذه النقطة مهمة

جداً بالنسبة لى كمنتجة منفذة للبرنامج.. ديكور مبهر

مع ضغط التكاليف إلى أقصى حد ممكن.. هل أنت

معى..؟..

- بالتأكيد..

- (تتنهد): أعلم أنها معادلة صعبة، ولكن لا غنى عنها..

وإلا فلن أجد ما أذفع به رواتب الفريق الذى يعمل

معى.. (تبتسم).. عموماً ستجدنى إلى جوارك دوماً إن

شاء الله.. ستكون هناك العديد من جلسات العمل..
وبإذن الله سنصل لنتيجة جيدة..

لم أكن أحب أن يتدخل أحد فى عملى.. غير أن كلامها
لم يكن يخلو من منطق.. كما أن أسلوبها المهدب الدمث
-برغم عمليته- لم يدع لى مجالاً للرفض أو الاعتراض..

السيد (رأفت عابدين).. رجل الأعمال السكندرى
الشهير.. حوت الميناء.. عضو الحزب القوى.. شريك
أبى العزيز..

- لا تكن طفلاً يا (مودى).. عملية مثل هذه ستختصر
لك الكثير والكثير.. لقد رفضت أن أؤسس لك شركة
مقاولات و فضلت البدء منفرداً فى مجال الديكور
بالرغم من أن مكاسبه أقل بكثير.. فدعنى على الأقل
أضع قدمك على أول الطريق..
- ولكن..

- محطة (رأفت عابدين) تعد بالفعل لبرنامج ضخم..
وستستعين بمهندس لعمل الديكورات.. فلم يحصل
غيرك على هذه الفرصة..؟.. أنت مهندس شاطر وحاصل
على شهادة من أكبر الجامعات الأوروبية.. فأثبت
نفسك.. وثق أن أحداً لن يجاملك إذا لم تكن على
المستوى المطلوب..

لم أفكر كثيراً.. الفرصة طيبة بالفعل، والحقيقة أننى
كنت بحاجة إلى فرصة كهذه يا (د. حازم) لإقتحام
السوق.. ومن حماقة أن أتركها تضيع منى لمجرد أن

أبى هو من جلبها لى من شريكه.. وبالتأكيد سيدفع
ثمنها شيئاً ما..
- (أتهد): ok dad..

رائحة عجيبة تملأ أنفى.. مألوفة إلى حدٍ ما.. غريب
هذا.. الحوائط ذات لون داكن كئيب.. الأغرب أنها
تتمايل وترتعش.. تنضغط بشدة فى لحظة، ثم تعود
لتنبعج بشدة فى اللحظة التالية.. كأنها مصنوعة من
الجيللى.. وجه أنثوى رائع الجمال ينظر إلى من أعلى..
عينان زرقاويتان.. أنف دقيق.. فم مكتنز.. بشرة شاحبة
قليلاً.. شعر أشقر ناعم.. عارية تماماً، أو هى تتدثر
بثوب أبيض شفاف.. من تكون..؟..

أحدق فى العينين الجميلتين.. تمران على وجهى
بسرعة دون توقف.. خاليتان من أى تعبير.. غريب أن
تحمل عيون جميلة كهذه مثل هذا القدر من الجمود..
أرغب بشدة فى أن أسألها عما حلّ بى، ولكننى لا
أستطيع.. تختفى من أمامى.. تتحرك هنا وهناك.. ألمح
خصلات الشعر الأشقر تتطاير من خلفها.. ثم أسمع
الصوت الرقيق لأول مرة..

- الأرضية جاهزة يا باشمهندس.. تحب تستلم
دلوقت..؟..

تحركت معه على رمال شاطئ (بورتو مارينا) - حيث
سيتم تصوير أحد حلقات البرنامج- نحو أرضية البيست

دائرية الشكل المصنوعة من ألواح الباركيه..

- تعبنا أوى ف الشغلانة دى يا بيه..

لم أرد عليه.. بالواقع كنت أعانى من مشكلة فى التعامل مع أمثاله من الحرفيين سواء أكانوا نجارين أو حدادين أو بنائين أو.. أو..

حالة من البلادة وفقدان الثقة تنابنى عندما أقف أمام الحرفى لأشرف على عمله.. أسمعته يتكلم كثيراً.. يحاول تزلفى والتقرب إلى.. يثرثر عن أعماله السابقة واللاحقة.. عن الشخصيات العظيمة التى تعامل معها وكم أثنت على براعته وأمانته لدرجة أنها صارت تستعين به فى الكثير من الأعمال..

- (محمد باشا الدمهورى).. بتاع المجلس.. عملنا له الفيلا بتاعته بنته كان متكيف مئا أوى.. المدام بتاعته بقى كان يحلا لها انها تيجى تتفرج عليا وانا باشتغل، وتقوللى الله ينور يا اسطى (شلبى)..

أسمعته يتكلم وأنا أكاد أنفجر غيظاً.. ما شأنى أنا بكل هذا الهراء..؟!.. فال «تولع بجاز» أنت و(الدمهورى) وحرمة وابنته والمجلس كله..

أتأمل الدائرة الخشبية التى لا يقل قطرها عن عشرين متراً.. أخطو عليها.. أنحنى لأتأمل الوصلات.. يسير إلى جوارى وهو لا يكف عن الثرثرة ليصرف انتباهى عن أخطائه.. أخبره أن عدد من الألواح بحاجة إلى الخلع والاستبدال..

- ليه يا هندزة..؟!.. ده شغل آخر حلاوة بالصلاة ع

النبي..

أجيبه بأن نوعية هذه الألواح مخالفة للمواصفات
الموجودة بالمقاييسه..

- إزاي بقى يا بيه..؟.. دا خشب أرو زى الفل..

ألقي نظرة مترددة أخرى على الألواح ثم..

- الخشب أكاسيا..

- و(المرسى ابو العباس) ده خشب أرو أمريكانى درجة
أولى.. يمكن بس حضرتك مش واخذ بالك.. (ينحنى
مشيراً إلى أحد الألواح).. بص اللون.. شوف
التجزيعات..

وهنا تبدأ ثقتى فى الاهتزاز.. أعلم جيداً أنه نصاب..
وأن ما جلبه من الأخشاب المطلوبة نفذ، فقام باستكمال
أعماله مستخدماً أخشاباً أخرى أقل جودة و-بالطبع-
أقل ثمناً.. ولكننى لا أجد لدى القدرة على مقارعة
حججه.. لربما كان ذلك ناتجاً عن ضعف خبرتى فى
التنفيذ العملى.. يشعر هو بذلك فيعتدل مختتماً
بابتسامة ظافرة:

- أنى بقالى ف الكار ده ثلاثين سنة ولامؤاخذه يا
هندزة.. ولا يمكن نغلط ف نوع الخشب أبداً..

ومع السخرية التى تفوح من كلامه.. أشعر بالدم يصعد
إلى رأسى.. أرغب فى أن أصرخ بوجهه بأنه نصاب وابن
ستين كلب، غير أن شئ ما يلجم لسانى فأكتفى
باعتراض خفيض الصوت لا يعبأ هو به..

هنا.. تظهر (أمل).. تخرج من الكارافان.. تخطو برشاقة

- برغم جسدها الممتلئ قليلاً - كأجساد المصريات عموماً -
على الرمال.. قميصها الواسع الفضفاض يتطاير بفعل
هواء البحر المنعش مع الطرحة التي تغطي رأسها..
تتقدّم منّا.. تحيي الرجل الذي يرد بحرارة:
- سلام ورحمة الله وبركاته.. حرماً يا مدام..
- جمعاً إن شاء الله.. أخبار الشغل إيه..؟..
- زى الفل بالصلاة ع النبي..
تلتفت إلى متسائلة فأندفع (و كأنما رد إلى وجودها
ثقتي) وأشرح لها المشكلة.. تنصت إلى بتركيز ثم
تلتفت إلى الرجل:
- (بحزم): الخشب ده يتفك دلوقتى حالاً يا معلّم..
- ثلاثة بالله العظيم يا مدام الخشب أ..
- (مقاطعة بحزم أشد): من غير حلفان.. اللي يقوله
الباشمهندس يتنفذ بالحرف..
- طب أعمل إيه يا مدام الخشب اللي اشتريناه
ماكفّاش.. وكان لازم نكفلوا الشغل.. وخشب الأكاسيا
ده مية مية برضه.. وهو انا يعنى هانجيب خشب أى
كلام..؟..
- والخشب ماكفّاش ليه..؟..
- الكمية جاية ناقصة.. الغلط م المقايسة..
- المقايسة مضبوطة مافيهاش غلط.. إنت اللي عمالك
بيستهلكوا خشب كثير..
فتح فمه ليعترض، غير أنها لم تمنحه الفرصة:
- مش عايزة كتر كلام يا معلّم.. هاتخلع الخشب ده

واللا تخلع م الشغلانة كلها..؟..

- نقول إيه بس يا ريسة..؟.. أنى مانحبش نزعلك أبدأ..

وخزة مؤلمة قليلاً فى ذراعى.. أئن بصمت..

وجه ممتلئ أصلع ذو نظارات.. يلقي نظرة ثابتة على

وجهى.. يربت على رأسى.. يقول بصوت عميق:

- لا تقلق.. قليل من الألم.. ثم سينتهى كل شئ..

أيدى قوية تنزع عنى ثيابى.. لحظات، رقدت بعدها

على المنضدة عارياً كما ولدتنى أمى..

رغم عمليتها الزائدة - بل وخشونتها أحياناً - لم تكن

مقتضبة أو ثقيلة الظل.. على العكس تماماً.. كانت

ظريفة حلوة المعشر.. تلقى النكات هنا وهناك، وتسخر

ممن حولها.. كل ما فى الأمر أنها كانت تولى عملها

إهتماماً عظيماً.. تظل طيلة اليوم فى موقع التصوير

تتقافز كالبرغوث فى كل مكان.. تتابع مع المخرج كل

صغيرة وكبيرة.. الlab top الخاص بها لا يفارقها..

مساعدتها يتبعها كظلها.. يتلقى تعليماتها وينفذها

بدقة.. سألتها ذات مرة ونحن جالسين على مقعدين

قماشيين على الشاطئ أثناء الbreak :

- هل تحبين عملك إلى هذه الدرجة..؟..

- (مندهشة): لماذا تسأل..؟..

- هذا النشاط الجم فى العمل.. لا أعتقد أنه ليس

مدعوماً بعشق العمل ذاته..

صمتت لحظة ثم إبتسمت مجيبة:

- بالفعل أحب عملي جداً.. ولكن الأمر لا يقتصر على هذه النقطة فقط..

- (بفضول): ماذا أيضاً..؟..

- مجال الميديا الذى أعمل فيه مجال ضخم إلى درجة لا تتصوّرها.. أنت تتعامل مع كيانات ضخمة.. وتنافس كيانات هائلة.. والمنافسة شرسة جداً.. ومالم تكن مسائراً للتطوّر الذى يزداد يوماً بعد يوم فستخرج من المنافسة غير مأسوفاً عليك.. ومسايرة التطوّر تستلزم العمل وبذل الجهد طيلة الوقت.. الخيار واضح محدد.. إما العمل المستمر.. وإما الخروج من المعادلة..

ورشفت قليلاً من الكابتشينو من كوبٍ ورقى تحمله بين أصابعها، وأردفت:

- النقطة الأخرى هى أننا نتعامل مع جمهور واسع عريض من المحيط إلى الخليج.. واحترام عقلية هذا الجمهور والسعى لتقديم الأفضل له شرط أساسى للاحتفاظ به..

نظرت إليها بإعجاب بينما هى تتابع:

- النقطة الثالثة هى المسئولية أمام الله سبحانه وتعالى.. أمرنا الله أن إذا عمل أحدنا عملاً أن يتقنه.. فلا أقل من أن نمثل لأمره..

لم تعجبني جملتها الأخيرة.. قلت معترضاً:

- لمّ تقحمين الدين فى الأمر..؟.. أفهم جيداً كلامك عن المنافسة المهنية واحترام عقلية المشاهد.. ولكن ما

شأن الدين بالعمل..؟..

نظرت لى بدهشة قائلة:

- سؤال غريب.. العمل جزء لا يتجزأ من الدين..
والإلتزام بقواعد الدين هو أكبر ضابط لجودة العمل..
الإلتزام يجعلك تبذل أقصى جهد فى عملك لا خوفاً من
رئيسك (فتهمل عندما يغفل عنك) ولا رغبةً فى جمع
المال (وهو ما قد يدفعك لتجاوز أخلاقيات العمل فى
غياب الوازع الدينى).. بل مراقبةً للذى لا يغفل ولا
ينام.. وهذا بالطبع لا يتعارض مع المنافسة المهنية أو
السعى لتحقيق أرباح.. وإنما يضع لهما من الضوابط ما
يمنعهما من الجنوح بصاحب العمل أو المصلحة إلى
وسائل غير مشروعة لتحقيقهما..

نظرت إليها بامتعاض ولم أرد.. الحق أن كلامها لم يكن
يخلو من المنطق.. غير أننى لم أشأ أن أظهر ذلك..
إرتفع صوت أحد عقال الجمالونات الحديدية يدعونا:
- إتفضلوا معانا.. إتفضل يا باشمهندس.. إتفضلى يا
مدام ..

نهضت واقفة، فرمقتها بنظرة متساءلة..

- يدعوننا لتناول طعام الغداء معهم..

- وهل ستقبلين الدعوة..؟..

قالت ببساطة:

- ولم لا ..؟.. لقد دعونى أمس، ولكننى كنت قد تناولت

غدائى، فطلبت تأجيلها لليوم..

-

- ألن تأت..؟..

- ميرسى..

الواقع أنها كانت نموذج مختلف عن كل من عرفت من النساء من قبل.. فى البدء شعرت بنفور من عمليتها الزائدة ومن تمسكها ببعض المظاهر الدينية التى لا أستسيغها مثل الحجاب الذى يغطى رأسها طيلة الوقت، والعباءات الفضفاضة التى ترتديها دوماً.. غير أننى بتعاملى معها، وجدتها تعمل وتتصرف بعقلية غربية بحتة كالتى اعتدت عليها طوال فترة دراستى فى (أوروبًا) مع لمسة تحفظ شرقية مميزة بالإضافة إلى كم هائل من الحنان يختفى خلف أسلوبها العملى الجِرف..

حب..؟.. لا أعتقد.. سمه ألفة.. سمه إعتياد.. فلتسمه أى شئ.. المهم أننى وبعد أسابيع من العمل بصحتها أصبحت أنزعج وأقلق عندما تغيب عن موقع التصوير لسببٍ أو لآخر..

عرفت منها أنها خزيجة كلية آداب إعلام جامعة (الإسكندرية).. تسكن مع أسرتها فى (الإبراهيمية).. فى حوالى الأربعين من عمرها (تكبرنى بثمانية أعوام كاملة).. أرملة.. لا أطفال..

يوماً بعد يوم.. وجدتنى أقترب منها أكثر فأكثر..

الأذرع تحملنى عالياً.. تسير بى فى ممر مظلم..

الرعب ينهش أعماقي.. أود أن أصرخ:

- دعوني .. أنزلوني ..

باب من ضلفتين فى نهاية الممر.. ضوء أحمر مخيف
يشع من الفتحة المحصورة بينه وبين الأرض.. على
جانبي الممر.. أرى رؤوساً أميزها بوضوح برغم الظلام..
أبى.. أمى.. أصدقائى.. (مايا).. (رأفت عابدين)..
الدكتور (هشام مدكور).. الحاج (صالح عبد النعيم)..
رئيس حى شرق يبتسم قائلاً:

- وماذا عن التمويل يا باشمهندس..؟ ..

وجوه كثيرة أعرفها.. جميعهم يقفون مصطفين..
يطبقون بأصابعهم على أطباقٍ وشوك وسكاكين..
يعقدون مناديل بيضاء حول أعناقهم.. يبتسمون..
اللعاب يسيل من بين أنيابهم الطويلة..
أنا الآن واقف -أوقفتنى الأذرع- بمحاذاة الباب ذو
الضلفتين.. الضوء الأحمر المخيف مصحوباً بحرارة
هائلة ينبعث من فرجة الضلفتين..

الوجه الأصلع الحليق يظهر مزة أخرى فى الكادر..
يلقى نظرة ثابتة على وجهى.. يكرر بنفس الصوت
العميق:

- لا تقلق.. قليل من الألم.. ثم سينتهى كل شئ..

من أنت..؟.. وماذا ستفعلون بى..؟..

وفى اللحظة التالية إنفتحت الضلفتان.. حرارة رهيبه
هبت من خلفهما لتلفح وجهى.. أنين طويل من أعماق
أعماقي.. أنا أحترق.. أحترق..

محاولة يائسة للابتعاد عن هذا الجحيم.. لا جدوى..
سمعت صوت الرجل الأضلع من خلفى يقول:
- دقائق ويكون الشواء جاهز..
ثم شعرت بقدمه تركلنى فى منتصف ظهرى لتدفعنى
بقوة لأطير عبر الباب المفتوح وأهوى لأسفل..
تعلقت عيناي بالنيران المستعرة بأسفل والتي تقترب
بسرعة مذهلة.. و.. مستحيل.. لا.. لا.....

عقار

ساكنين علالي العتب، وناللي بانيتها..
فارشين مفارش قصب، ناسج حواشيتها..
قانيين سواقي دهب، وناللي ادور فيها..
يا رب ماهوش حسد..
لكن بعاتبكم..

بيرم التونسي

بروووووووووم

.....

.....

.....

.....

.....

.....

الغبار يملأ أنفى وحلقى.. أسعل.. أسعل.. مذاق صدئ
يملاً فمى..

.....

.....

.....

.....

سائل دافئ يغطى جبهتى و يسيل على وجهى..

.....

.....

.....

.....

وجه (نعمان) يطلّ على من أعلى.. ينظر إلى بجزع
حقيقى.. يحزك فمه.. يتكلم أو يصرخ .. لا أعرف.. لا
أسمع حرفاً..

.....

.....

.....

.....

ذرات من الغبار تتطاير أمام عيني.. تصبغ الرؤية بلون
رمادى كئيب..

.....

.....

.....

.....

أحدهم يجزنى على الأرض.. جمالونات السقف تتوالى
أمام عيني..

.....

.....

.....

.....

.....

ذرات الغبار تتزايد وتتكاثر..

.....

.....

.....

.....

تظلم الدنيا تماماً..

.....

.....

.....

.....

ال ٢١ يوم دول تصرفهم لنفسك يا (حسين) بيه ..
احنا مصرين المرة دي اننا ناخذ كل حقوقنا ..

.....

.....

بطل خناق يا كلب مئك له أحسن و رب العزة
نقوملكو..

.....

.....

عايزين فلوس يا بويا..

.....

.....

سسللفف (رشفة شاي).. أنى بنقول نستئو رد اللجنة
النقابية.. هقا وعدونا انهم يردوا علينا بعد إسبوعين..

والإسبوعين ها يخلصوا بعد ٣ تيام..

.....

.....

أيوووه .. انت لحقت تنام يا راجل ..؟..

.....

.....

الداكتور كشف عليه و لقي عنده نزلة معويّة ... قاللى
ان الميّة اللى بنشرها وسخة ... قلت له ما حنا طول

عمرنا بنشربوها و عايشين زى الفل..

جبتي فلوس الدوا منين..؟..

.....

.....

ما خليتولناش طريق تانى يا باشمهندس..

.....

.....

كرييييييك ...

ميين..؟..

.....

.....

بروووووووووم

.....

.....

عينان ضيقتان تنظران لى من خلف منظار زجاجى

صغير.. أسمع الصوت وكأنه قادم من بئر عميق..
- أسطى (عقار).. إنت سامعنى..؟.. لو سامعنى حرك
عينيك..

ألم رهيب بجميع أنحاء جسدى.. أرغب فى أن أرد..
أشكى.. أصرخ.. لا أستطيع..

قبل أن أهوى فى تلك البئر السحيقة أسمع من يقول:
- صدمة عصبية.. محتاج وقت..

- طب وجرح دراعه..؟..

- جسمه قوى.. ها يستحمل..

نعم.. كنت قوياً.. لم أكن ضخماً.. ولكننى كنت - كما
يقولون - عصب..

فى الأرض الخالية الواقعة خلف مخازن شركة الورق
بالقرب من ترعة (المحمودية).. الوقت عصراً، والشمس
ساخنة تضرب الرؤوس.. مباراة الكرة الشراب حامية
حقاً.. لقد استحقت بالفعل التزويغة التى قمت بها من
الورشة التى أعمل فيها.. سيضربنى الأسطى (طه) علقه
ساخنة عندما أعود متأخراً ساعتين من مشوار شراء
السبرتو الذى أرسلنيه لشراءه.. ولكنى لا أهتم.. علقه
تفوت ولا حد يموت..

(عاشور) ضخم الجثة شرس الطباع.. لاعب الفرق
المنافسة يهابونه.. عندما يلتقط الكرة بين قدميه
وينطلق بها كالقطار نحو المرمى.. كان الجميع يفسحون
له الطريق..

هبطت إلى الملعب حافى القدمين.. إتفقت مع باقى
اللعيبة على أن أتولى أنا أمر (عاشور).. و بالفعل.. كلما
كنت أراه قادماً بالكرة مثيراً عاصفة من التراب من
حوله، كنت أندفع نحوه وأمد قدمى بخفة لألتقط الكرة
من بين قدميه، وأركلها إلى زملائى عند خط الـ ٨ ..
ينظر لى بغل حقيقى، ويبصق على الأرض الترابية..
أسخر منه.. يندفع نحوى مكوراً قبضته.. نلتحم ..
نسقط أرضاً.. نتمزغ وسط التراب.. لكمته تمزق شفتى..
روسيتى تفجر الدم من حاجبه.. أذرع كثيرة تفرق
بيننا..

فى النهاية.. نجلس على شاطئ ترعة (المحمودية)
نرمق المراكب السابحة فى ضوء الغروب.. نشعل
السجائر.. نتصافى بين سحب الدخان..
لم نفترق من يومها..

كريببيبيك ...

- ميين ..؟..

.....

.....

- حاسس بياه..؟..

- دراعى يا دكتور.. نار قايدة..

- معلش يا اسطى (عقار).. ده لأن تأثير البنج بينسحب

من الدم..

نظرت إليه بوهن، فتابع وهو يخفض عينيه لأسفل:
- الشظية مزقت ذراعك وسببت الغرغرينة.. للأسف
ماكانش قدامنا غير البتر..

تعلقت بذراعى قائلة:
- إنت جايبنى هنا نعملو إيه..؟..
- نفسحوكى يا بت..
- هئ هئ.. ف محطة الرمل يا راجل..؟.. حد ياخذ
مراته يفسحها ف محطة الرمل ف شهر غسلها..؟..
- أمال عايزانى نفسحوكى فين يا روح سئك..؟..
العجمى واللا الساحل الشمالى..؟..
- أيووه يا (عقار).. وهقا النسوان اللى بيروحوا هناك
أحسن مئى ف إيه يعنى..؟..
- يا بت دانتي ضفرك برقبتهم كلهم.. بس الحتت دى
مش للى زيننا.. لاهى بتاعتنا ولا احنا بتوعها.. احنا
يادوب آخرنا نروحو عمود السوارى.. محطة الرمل.. أبو
قير.. نضربو بنطة ع الكورنيش ساعة المغربية.. ندخلو
السيما.. إلا بالحق يا بت.. عمركيش دخلتى السيما..؟..
- لا والنبي ياخويا..
- أخوكى..!!.. ماشى.. الصبر حلو.. أنى النهارده
هاندخلوكى السيما.. الفيلم بتاع (عادل إمام).. وبعديها
نرجعو بحرى نتعشو سمك وجمبرى عند (الراوى)..
- (بفرحة): ربنا ما يحرمنى مئك يا خويا..
- بلاش اخويا دى..!!..

ونستئى لبكره ليه يا ريس..؟!.. نتوكل على الله
ونفرحهم دلوقت.. دى حالتهم ما يعلم بيها الا ربنا..

الطريق وعر.. وعر..
العربة ترتج بعنف.. النافذة الصغيرة الوحيدة فى
الصندوق الخلفى للسيارة شبه مسدودة بسلك البقلاوة..
الجو خانق تماماً.. جرح ذراعى المبتور يؤلمنى جداً..
تساءل (عاشور) بصوت حاول أن يعلو به على صوت
محرك السيارة:

- حد سامع صوت الموج يا اخوانا..؟..

عددنا لا يقل عن الخمسين رجل.. الأجساد متهالكة
بفعل الإرهاق والاستجواب فى المباحث.. أسابيع
طويلة قضيتها فى المستشفى وقضاها الرفاق فى غرف
وأقبية الأقسام ومباحث أمن الدولة لنجتمع فى النهاية
فى الصندوق الخلفى الضيق لتلك السيارة التى تكاد
تتفكك من فرط وعورة الطريق..

أجاب أحدهم:

- أنى مش سامع حاجة ... شكلنا كده باعدنا عن المالح

..

أنظر إلى وجوه رفاقى المنتفخة المتورمة.. الدماء
متجلطة على الكثير منها.. الأعين مزرقة محاطة
بالكدمات.. الأسنان مكسورة والأنوف مجدوعة.. من
الواضح أنها كانت ساعات رهيبة..

قطرات العرق تسيل على جسدى.. تلهب جرح ذراعى..
ألم لا يوصف.. أتهد فى صبر.. متى ينتهى كل هذا يا
ربى..؟..

المزيد من الرجرجة.. أئات مختلفة تخرج من أفواه
وصدور الرفاق.. (فرحات) الجالس بجوارى يتحسس
إبهامه الأيمن المكسور.. يتمتم:

- ما بَعْدناش كثير ع البحر.. أنى لسه شامم ريحة
اليود..

لم يعلق أحد لأن أحدا لم يسمع أصلاً.. ساد الصمت
لفترة قبل أن أتساءل أنا بصوت مبحوح:

- معقول يا اخواننا هانفضل زى الفراخ كده مش
عارفين رايعين فين ولا هايعملوا فينا إيه..؟..
قال أحدهم:

- يا خبر النهاردة بفلوس..

التفت آخر - (طحلاوى) - إلى الرئيس (حمدى) صارخاً
بغثة:

- إنت السبب ف اللى احنا فيه ده.. لو ماكناش مشينا
وراك كان زماناً قاعدين وسط عيالنا..

رفع الرئيس (حمدى) رأسه ونظر إليه بمرارة دون أن
يرد.. ولاحظت أن بياض شعر رأسه قد اختلط بدماء
حمراء متجلطة من أثر الإستجواب..

- قَصْر يا (طحلاوى)..

كذا قال (عاشور) بحزم، ولكن (طحلاوى) واصل وكأته
لم يسمع:

- أيوووه.. محاكم عسكرية..؟.. ليه..؟.. إحنا كئنا عملنا
إيه..؟.. نروحو السجن وتتخرب بيوتنا ليه..؟.. لا سرقنا
ولا بعنا مخدرات وطول عمرنا ماشيين جنب الحيط..
لا قلنا كفاية ولا الإسلام هو الحل.. إحنا بس قولنا
عايزين شقانا وقوت عيالنا.. يقوموا يودونا المحاكم
العسكرية..؟.. ويرمونا ف السجن..؟.. أحبييه..

لطمه (عاشور) على وجهه صائحاً:

- ما قلت لك قصر يا بن الموكنسة..

هوت اللطمة على وجه (طحلاوى) فارتعش جانب فمه
وهو ينظر لـ (عاشور) ولنا، قبل أن ينفجر باكياً ومولولاً:
- آنى ماليش دعوة.. رجعونى لعيالى.. مش عايز حاجة
بس ارجع لعيالى.. يا عياالى..

.....

.....

.....

تمر الدقائق والساعات.. لم نعد نحسب الزمن.. لربما
كئنا هنا منذ ساعات أو أيام أو أسابيع.. حقاً لم أعد
أدرى..

الإرتجاج.. الإرهاق.. ألم ذراعى.. الحر.. رائحة العرق..
وجوه الرفاق المشوّهة.. صوت المحرك المزعج الرتيب..

.....

.....

.....

.....

لم ندر أين ولا متى خفتت إرتجاجات السيارة قبل أن تتوقف تماماً..

عندما دخلت عالم النساء لأول مرة كنت فى سن الثالثة عشر..

كانت مومس من (بحرى) إلتقطها (نعمان) - وكان يكبرنى بأربعة أعوام - وساومها على قضاء ليلتها معنا.. نقلت بصرها إلينا - أنا و(عاشور) - وقد وقفنا قرب ناصية الشارع وتساءلت متشككة:

- إنتو كام واحد..؟..

أجابها (نعمان) بغلظة:

- إنتى شايفانا دستة يعنى..؟.. ما قلنا لك أنى واصحابى الجوز اللى واقفين هناك دول..
- عندكو المكنة..؟..

- (بسرعة): الورشة اللى بنشتغلو فيها.. قافلة لغاية بكرة الصبح.. واحنا مش هانسهر وكتير عشان عندنا شغل م النجمة..

فردت كفها المفتوح قائلة:

- إدينى الفلوس الأول..

- يا بت متسربعة على إيه هى الدنيا طارت..؟..

لازلت حتى الآن أذكر تلك اللحظات البعيدة وأنا اضاجعها على أرضية الورشة التى تفوح منها رائحة الشحم والزيت.. ضوء المصباح الخافت.. الحر الخانق داخل الورشة.. كانت المرة الأولى وكنت غريباً بلا

خبرة.. تصيب العرق أنهاراً على جسدى وأنا اقبلها بنهم،
وسرعان ما نهضت من فوقها وقد أفرغت شهوتى فى
ثوانٍ معدودة.. هرولت مغادراً الورشة والدموع فى
عينى، بينما ضحكاتنا الساخرة الماجنة تجلجل من
خلفى.. سمعت (نعمان) الذى كان ينتظر خارجاً مع
(عاشور) يتجرعان الطافية -

- وقد قضيا وطرها من قبلى - يهتف بى:

- رايح فين يالاا...؟..

ركضت حتى تقظعت أنفاسى.. إرتميت أسفل شجرة
الجميز على شاطئ ترعة (المحمودية) وفى الدقائق
التالية رحى أبكى بحرارة بينما جسدى يرتعد، وقد
ملأنى شعور عارم بالذنب..

لا بد أن أكثر من ساعتين مراً على وأنا أجلس وحيداً
على الشاطئ يغمرنى ضوء القمر، قبل أن أسمع أصوات
مكبر الصوت قادم من مسجد القريب إستعداداً لصلاة
الفجر.. خلعت ثيابى وألقيت بنفسى فى مياه الترعة
لأغتسل من النجاسة، وقد عزمت على التوبة إلى الله..
رحى أضرب الماء بذراعى.. أضرب..

لم تكن المرة الأخيرة على أى حال..

واقفين صفوفاً فى فناء المعتقل..
الشمس فى منتصف السماء تماماً.. الرمال التى نقف
عليها ملتهبة حقاً.. يا الله.. لكم يمضى الوقت ببطء..
- أنا اللوا (محمود البيسرى).. قائد المعتقل..

علقة ساخنة تلقيناها منذ قليل بمجرد نزولنا من سيارة
نقل المساجين.. عشرات من الجنود الأشداء انقضوا
علينا من كل اتجاه وراحوا يضربوننا بعصى من
الصلب.. تعالت الصرخات والتوسلات.. فيما بعد ذكرنى
هذا بفيلم رأيتُه لـ (أحمد زكى)..

- ثلاثين سنة خدمة فى المعتقلات..

تمرّغت على الرمال الساخنة.. ضربة عنيفة هوت على
كتفى الأيسر.. حذاء عسكري ثقيل غاص بين ضلوعى..
صرخت فى ألم.. رأيت الجندى يرفع عصاه ليضربنى
بها.. لوحت بما تبقى من ذراعى المبتور صارخاً بتوسّل:
- أبوس إيدك..

- أى كلبة منكوهاتخالف النظام..

تردد لحظة.. خفض العصا.. ثم حزم أمره.. ركلنى فى
جنبى الأيمن، ثم انصرف ليهوى بعصاه على جسدٍ آخر..
صراخ.. دماء.. أجساد مهشمة.. ملابس ممزقة..
فى النهاية أوقفونا صفوفاً.. نكاد نسقط من فرط
الإرهاق والألم.. الدماء تسيل من مواضع مختلفة من
جسدى..

- هاتندفن مطرح ماهى واقفة..

حوافر الحصان تغوص برشاقة فى الرمال الساخنة
وقد تضاعف ثقله بتأثير وزن راکبه..
- الرملة هنا بلعت جثث نسوان كثير زيكو عملوا فيها
رجالة..

بذلة عسكرية أنيقة.. قبعة رسمية تحمى رأسه من

الشمس.. منظار شمسي داكن يغطى عينيه.. جسد
ممشوق منتصب على ظهر الحصان.. يدنى الميكروفون
الصغير من فمه.. و بصوت عميق:
- إنتوا هنا يا ولاد ال (...) مالكوش دية..

(عادل المهدي) اتصل بيا من عشر دقائق.. وقاللى ان
الادارة مستعدة تصرف جميع مستحقات العمال.. وبكره
ان شاء الله هاتيلى لجنة ومعاها تعهد موثق من
الادارة بدفع الحوافز والأرباح..

ما الذى حدث بالضبط..؟
الإضراب كان يسير بشكل جيد جداً.. وقفنا جميعاً
وقفة رجل واحد أمام ضغوط الإدارة.. تحمّلنا الفقر
الشديد مع امتناع الإدارة عن صرف رواتبنا.. تركنا
بيوتنا وأقمنا فى المصنع.. نظّمنا أنفسنا وحرصنا على
الحفاظ على سلامة الأجهزة والماكينات حتى لا ندع
فرصة للإدارة لتفسد الإضراب.. وبالفعل إقتربنا من
النصر..

فما الذى حدث..؟

بروووووووووم

شخص ما..

شخص ما ثبت عبوة ناسفة فى جدار الغلاية الرئيسية

بقاعة الماكينات..

شخص ما خان زملائه ورفاق عمره وسمح لقوات
الأمن باعتقالنا بتهمة ارتكاب العنف وإتلاف الممتلكات..
شخص ما سمعته يتحرك في ظلام قاعة الماكينات..
شخص ما تسبب في بتر ذراعى حتى المرفق..
شخص ما.. ولكن من هو..؟..

صارحت الرئيس (حمدى) ذات ليلة في ظلام العنبر
الذى يجمعنا بالسؤال الذى يشغلنى، فأجاب على الفور:
- دى مش عايضة سؤال..

دق قلبى بقوة مع كلماته:

- (نعمان) طبعاً.. محدش غيره..

وجه (نعمان) يطل على من أعلى.. ينظر إلى بجزع
حقيقى.. يحرك فمه.. يتكلم أو يصرخ.. لا أعرف.. لا
أسمع حرفاً..

حقاً.. أين إختفى (نعمان)..؟.. ولماذا لم أراه منذ لحظة
انفجار العبوة الناسفة فى المصنع..؟.. ومتى كانت آخر
مرة رآه الرفاق..؟.. وأين..؟..

قال الرئيس (حمدى) وهو يتحسس جرح رأسه:

- محدش شافه من يوم ما اتقبض علينا.. زى ما يكون
فص ملح وداب..

فى حين أجابنى (عاشور):

- آخر مرة شفته يوم العاركة.. العساكر كانوا بيضربوا

ال... (صمت)..

- ال (ماذا)..؟..

- الأحلام..

- الأحلام..؟..

- نعم.. ما أن أستلقى فى فراشى وأستغرق فى النوم حتى أجد غرفتى وعالمى كله يتلاشيان من حولى.. كما يحدث فى السينيما.. فى لحظة واحدة أجد نفسى أسير فى أحياء (الأنفوشى) و(كرموز).. روائح العطن والزفارة تملأ أنفى.. أتلفت حولى فأرى البيوت العشوائية القديمة المتهاكة.. الوجوه الشاحبة المصفرة.. أجد نفسى جالساً على أريكة متهاكة فى صالة منزل ضيق كالقبر.. أحياناً فى الفراش أضاجع امرأة بدينة أوقن من داخلى أنها زوجتى (محفوظة).. أداعب طفلين شقيين كالشياطين أعرف جيداً أنهما ولدئ.. أحياناً أرى نفسى عاكفاً على ماكينة خراطة فى مصنع أمارس عملاً أفاجأ بنفسى أجيده بكفاءة عالية..

-

- (يتنهد): عشرات الوجوه والأماكن أراها وأتعامل معها وكأننى أعرفها طيلة عمرى، برغم أنى متأكد من أننى لم أرها من قبل..

لحظات من الصمت ثم:

- هل تتعاط زرزرز ... ددزرز... درات أو عقاكير الهلوسة..؟..

- فعلت وتوقفت عن ذلك منذ سنوات طويلة كما سبق وأخبرتكم..
- هل سبق وعانيت من الوسواس والضلالات..؟..
- لا.. لا..
- ما الذى جعلك تفكر فى تناسخ الأرواح..؟.. لماذا لا تكون أحلامك مجرد أحلام عادية..؟..
- ليست كذلك.. صدقنى..
- ولماذا اصدقك..؟..
- (يتنهد مرّة اخرى): لأنها ليست أحلاماً بالفعل.. ولأننى.. (صمت)..
- لآنك ماذا يا باشمهندس..؟..
- لأننى ذهبت بالفعل إلى المكان الذى أرانيه أعيش فيه فى أحلامى.. وهناك تأكدت أنها ليست مجرد أحلام..

الجزء الثاني

البحث

أمل الشافعي

لم أرد دكتور (حازم) أن أحضر جلساتك مع (أحمد) منذ البداية حتى يتحدث معك على سجيته بالرغم من أني اقترحت عليه منه أن يلجأ إليك.. بالطبع أعرف حضرتك من قبل.. إبتك (آية) كانت إحدى طالباتي عندما تم انتدابي لمدة عام للتدريس في (باراداييس كولدج).. كنت آنذاك معيدة بكلية الآداب قسم الإعلام بجامعة (الإسكندرية) قبل إقالتى.. ماذا..؟.. أى سؤال بالطبع.. تفضل.. لماذا أقلت..؟.. بعض الخلافات مع مجلس الكلية بخصوص مشروعات الطلاب.. مشروعات أشرفت عليها تم رفضها وأخرى تم حذف بعضها، والسبب هو مخالفتها لسياسة الجامعة.. وعندما اعترضت، أبلغنى أحد أساتذتى أن الأمن هو الذى رفض وحذف، وأن مجلس الكلية لا يملك مناقشته، وحذرنى من أننى تحت المراقبة.. بعد أيام صدر قرار بفصلى فصلاً نهائياً.. هه.. لا داعى للأسف يا دكتور.. أنا سعيدة جداً فى عملى الحالى كمنتجة منفذة فى محطة (asc).. بالطبع صرت أتجنب البرامج ذات الطبيعة السياسية بعد الدرس الذى تلقيته فى الجامعة، وتوافق هذا مع الاتجاه العام فى محطة (asc).. ما عيب البرامج الترفيهية..؟.. قبول واسع لدى شرائح عديدة من الجمهور.. شهرة لا بأس بها.. دخل مناسب.. المهم هو الحفاظ على مستوى معين من الإحترام لا أتنازل

عنه بأية صورة..

يبدو أننا ابتعدنا كثيراً عن الموضوع.. آسفة لثرثرتي.. سمعت عن الباشمهندس (أحمد خشبة) للمرة الأولى عندما استدعاني الدكتور (حافظ تقام) نائب رئيس مجلس إدارة المحطة، وأخبرني أنّ السيد (رأفت عابدين) مالك المحطة ورئيس مجلس إدارتها يبلغني بأنّ مهندساً من طرفه سيتولى تصميم ديكورات البرنامج الجديد -الذي أتولى أنا تنفيذ إنتاجه- والإشراف على تنفيذها.. صراحةً كان الأمر غريباً ومستفزاً بالنسبة لى.. القواعد المتعارف عليها فى عملنا تجعلنى أختار الفريق الذى يعمل معى دون تدخل من أحد مادمت قد توليت مقاوله تنفيذ إنتاج البرنامج.. صارحت الدكتور (حافظ) بهذا، وأخبرته بأننى لىس لىدى إستعداد لتحفل خسائر مادية بسبب ما قد ىنجم عن اختلافات فى وجهات النظر قد تحدث بينى وبين المهندس الجديد، فطمأننى بأنه مهندس متميز تلقى تعليمه فى الخارج..

- ولكن يا دكتور (حافظ).. العلوم النظرية شىء، والتنفيذ العملى شىء آخر..

- (مبتسماً): أعلم ذلك بالطبع.. و(رأفت) بك يعلمه أيضاً.. غير أن أمر هذا الشاب يهقه جداً.. ولم ىجد أحداً سواك لىستأمنه عليه فى العمل.. هو ىثق كثيراً بك، وبقدرتك على التعامل معه بمرونة، وىتعهد بتحفل أية خسائر قد ىتسبب فىها..

وهكذا أسقط في يدي، وقبلت العمل معه على مضم
مجاملةً لمالك المحطة على طريقة تقديم السبت لتلقى
الأحد..

كان نطباعى عنه عندما التقيته للمرة الأولى على
شاطئ (بورتو مارينا) - موقع تصوير أولى الحلقات -
لا بأس به.. شاب عادى جداً، لا يميّزه إلا نحافته
الواضحة.. ملامح دقيقة.. سكسوكة خفيفة تحيط
بفمه.. وعندما ابتسم، بدا واضحاً أن جزءاً من إحدى
سنتيه الأماميتين قد تهشم..

برغم نحوله وشحوب وجهه والهالات السوداء
المحيطة بعينيه - دليل الإفراط فى السهر- إلا أنه كان
جم النشاط.. جلس معنا -مخرج البرنامج وأنا-
واستمع إلى فكرة البرنامج وسيناريو الحلقة الأولى،
والمطالب الخاصة المطلوب توفرها فى الديكور وغيرها
من النقاط الهامة، ثم قام بعمل معاينة لموقع التصوير،
ووعده بإنجاز التصميم خلال أيام..

كنت صريحة معه منذ البداية.. أخبرته أنني كنت
أتعامل مع مهندس آخر أرتاح له فى العمل، وأنه
مفروض على من طرف مالك المحطة، وطلبت منه أن
يتعاون معى كى لا ينهار العمل، فأبدى موافقته
وتحمسه، وكان ذلك هو أول هدف يحرزه فى مرمى..
أما الهدف الثانى، فكان عندما عاد فى الموعد المحدد
بالضبط حاملاً lab top الخاص به، وأخبرنى أن
التصميمات جاهزة..

- (ضحكاً): ما موضوع الأهداف هذه..؟.. هل تحبين كرة القدم إلى هذه الدرجة..؟..
- أحبها بجنون.. أنا أهلاوية متعصبة.. وأكم من مباريات حية تابعتها فى الإستاد مباشرةً مع زوجى وطفلى.. بالمناسبة : حضرتك أهلاوى أم..؟..
- (مقاطعاً بسرعة): أعوذ بالله.. أهلاوى طبعاً.. (ضحك) ثم...
- كم عمر طفلك الآن..؟..
- لحظة من الصمت ثم..
- (بهدهوء): كان فى السادسة من عمره عندما توفاه الله..

- القصة المعتادة .. ذبول و إصفرار .. إسهال مستمر .. قئ لا ينقطع .. أهرع بالطفل مع (مجدى) - زوجى - إلى المستشفى.. طبيب الطوارئ الشاب يفحص الطفل ..
- الحالة واضحة : تلبك معوى ناتج عن تناول أغذية ملوثة..
- (بهلع) : و الحل يا دكتور ..؟..
- (يخط التذكرة الطبيّة) : لابد من حقنه بهذه الأدوية على الفور ..
- البحث عن صيدليّة فى شوارع (زهراء مدينة نصر) الخالية - كئنا آنذاك نقيم فى (القاهرة) حيث مقر عمل

زوجى- قرب الفجر (فصيدلية المستشفى مغلقة) ..
الوقت يجرى بسرعة .. نعثر على واحدة فى (الحى
العاشر) .. نحقن (ميدو) - الطفل - بالأدوية و ننتظر
...

لا جدوى .. الحالة تسوء أكثر و أكثر ..
نهرع إلى المستشفى مرة أخرى .. عند الظهر يمر رئيس
القسم .. يقرأ البطاقة العلاجية .. يفحص الطفل .. يقطب
حاجبيه .. يتساءل بغضب:

- هذه حالة جفاف واضحة لأى أعمى .. من الأحق
الذى شخصها على أنها تلبك..؟..
تجيب الممرضة وهى ترتجف:
- الدكتور (فادى جبر) ..

يصمت لوهلة .. يضم شفثيه بقوة .. الغضب يتقافز
من عينيه .. فيما بعد عرفت أن الدكتور (فادى جبر) هو
إبن شقيق عميد كلية الطب .. يهتف بالممرضة بأن
تتحرك بسرعة لتجلب له أدوية جديدة ..

الحركة تتزايد و تتسارع حول فراش طفلى .. الكثير
من التوتر والصراخ .. الوقت يمر .. الحالة تزداد سوءاً ..
و....

- آسف جداً .. البقاء لله ..
- ميرسى .. ولكن لم تعتذر ..؟..
- على تذكيرى لك بالموضوع ..
- لا داعى للإعتذار .. فذكراهما لا تبارح مخيلتى أبداً ..

- ذكراهما..؟.. من تقصدين بالضبط..؟..

- أقصد طفلى وزوجى بالطبع ..

لم يتحقل (مجدى) الصدمة طويلاً..

بدا متماسكاً بشكل غريب أمام الناس والمعزّين فى أيام العزاء الأولى، بينما كنت أنا فى حالة إنهيار تام وبكاء مستمر.. وعندما يجن الليل، وينصرف آخر المعزّين.. كنت أجده يدلف إلى غرفة الراحل ويغلق الباب على نفسه.. كنت أدخل الغرفة وراءه فأجده جالساً يحدق بشروود فى اللاشئ.. ساعات الليل تتوالى وهو لا يغير رقدته، إلى أن يغلبه النعاس فينام حيث هو..

ولت أيام العزاء على هذا النحو.. وظل هو بعدها على نفس الحال.. يقضى وقته فى غرفة الصغير الراحل.. لا يستجيب لى ولا لأصدقائه أو أفراد أسرته.. أصابنى الرعب.. طلبت من زملائه وأصدقائه الحضور ومحاولة إخراجه من هذه الحالة التى أصابته، ولكنه امتنع عن مقابلة أي منهم.. توقف عن الذهاب إلى عمله (وكان يعمل مديراً لتحرير واحدة من الصحف ذائعة الصيت).. أصبح يتناول أقل القليل من الطعام.. ثم قضى نحبه فى هدوء بعد أقل من شهرين من وفاة طفلنا..

فى تلك الليلة كنت قد إنصرفت مبكراً عائدة إلى (الإسكندرية) لأطمئن على والدتى بعد أن عرفت من

صوتها المختنق (عندما هاتفتها) أنها بدأت تصاب بنزلة
برد.. رثبت كل التفاصيل مع المخرج و(ميخائيل) -
مساعدى الشاب- وتأكدت من أن كل شئ على مايرام..
بحثت عن الباشمهندس (أحمد) لأبلغه بانصرافى فلم
أجده.. طلبت من (ميخائيل) أن يفعل، ثم استقلت
سيارتى وتوكلت على الله..

- (صوت أجش مألوف): إتفضلى يا داكثورة..
لسبب ما لا أعرفه يصر عم (حبشى) العجوز الطيب
صاحب كشك السجائر و الخردوات عند ناصية شارعنا
على مناداتى بـ «الداكثورة».. ويصر أيضاً على دعوتى
يوميماً عند زهابى لعملى صباحاً وعند عودتى منه فى
المساء كى «أتفضل».. ألبى دعوته وأشتري منه علبة
(مارلبورو) وباكو كلوريتس وأتجاذب معه أطراف
الحوار لدقيقة، يخبرنى خلالها دوماً أن..

- ربنا وحده اللى يعلم معرّتك ف قلبى يا داكثورة.. زى
(لبنى) بنتى بالظبط والله.. أصلك بنت حلال مصفى
وبتفكرينى بالمرحوم أبوكى.. ما هو كان حبيبى زى ما
انتى عارفة..

- ربنا يديم المعروف ويخليك لينا يا عم (حبشى)..

- وازى صحة الست الحاجة..؟..

- بخير الحمد لله..

حوار يتكرر مرتين يوميماً، أصبح جزءاً من روتينى
اليومى، أفقده كثيراً عندما يغيب عم (حبشى) لأى
سبب..

فى منزل أسرتى وجدت أمى بحالة لا بأس بها رغم
بوادر الأنفلونزا الواضحة عليها المتمثلة فى إحممرار
أنفها و عينيها و غزارة سعالها.. أعدت لها (إيمان) ابنة
شقيقتى مَج كبير من النعناع الساخن، ثم نهضت بنشاط
لتعد لى واحداً بمجزد وصىلى.. تناولته منها شاكرة..
كنت أرغب فى قضاء سهرتى فى القراءة.. وقبل ذلك
أردت الانتهاء من بعض الأعمال.. بحثت عن اللاب توب
الخاص بى فلم أجده.. هبطت إلى الشارع حيث موضع
سيارتى لأبحث عنه .. غير موجود.. إنتابنى حنق شديد
عندما فكرت أنى نسيته مع تعجلى فى موقع
التصوير.. حاولت الإتصال بـ (ميخائيل) على هاتفه
المحمول ليمرره على أثناء عودته.. لا جدوى.. لابد أنها
مشاكل الشبكة المعتادة..

إلتقطت نفساً عميقاً لأبتلع إنفعالى.. فكرت للحظات..
نظرت إلى عقارب ساعتى.. الثامنة مساءً.. يمكننى
الذهاب والعودة فى ساعتين.. أبلغت والدتى أنى ذاهبة
ولن أتأخر..

عندما وصلت إلى موقع التصوير كان الظلام قد حل
بالمكان كله.. الجميع انصرفوا ماعدا رجلى الأمن..
حييتهما..

- سلام ورحمة الله.. خير إن شاء الله يا مدام.. نسيتى
حاجة واللا إيه..؟..

- أيوه يا (قطب).. نسيت بس اللاب توب بتاعى فـ
الكارافان..

- تحبى أروح أجيبهولك...؟..

- كتر خيرك.. خليك انت أنا هاروح أجيبه..

غادرت السيارة ومشيت نحو الكارافان.. ألقيت نظرة على عقارب ساعة يدى الفسفورية.. التاسعة مساءً.. لا بأس.. ساعة أخرى وأكون فى المنزل إن شاء الله.. كان الكارافان مظلماً من الداخل.. ضغطت زر الإنارة.. جلست إلى مكتبى.. ضغطت أحد الأزرار ليختفى الـ screen saver.. أغلقت الجهاز ووضعتة فى حقيبته، واستدرت لأنصرف عندما سمعت الأنين..

أجفلت والتفت بحركة حادة.. نظرت إلى الفراش الصغير الموضوع فى نهاية الكارافان.. إلى الجسد الممدد عليه.. تملكنى الرعب وأنا أتساءل عمن يكون.. كدت أهرع لأنادى رجلى الأمن من الخارج لولا أننى تعزفت صاحب الجسد النائم..

كان الباشمهندس (أحمد) غارقاً فى نوم عميق.. إقتربت منه.. غريب هذا.. قطرات العرق تملأ جبهته.. صدره يعلو ويهبط باستمرار.. ملامحه تتقلص وكرتا عينيه تتحركان يمناً ويسرة من خلف جفنيه المطبقين.. وثمة أنين خافت يخرج من بين أسنانه وكأنه يعانى آلاماً مبرحة.. لابد أنه يحلم بكابوس.. ولاحظت للمرة الأولى ذلك الوشم الذى يمثل ثعبانين يدوران حول جمجمة قبيحة الشكل، والمطبوع على ذراعه قرب المرفق..

مددت يدى.. هزته برفق..

- (أحمد)..

لم يستجب.. هززته بقوة أكبر، وناديته بصوت أعلى..
المزيد من التقلص.. المزيد من الأنين.. و..
وبغثة فتح عينيه، وشعرت بأصابعه تلتف حول
ساعدي بقوة أمتنى.. الأنين الخافت تحوّل إلى صرخة
مدوية جمدت الدماء فى عروقي..
أجفلت مرة أخرى.. صرخت وأنا أجذب ذراعى بعنف..
أفلتني.. نظر مباشرة إلى عيني.. يالله.. لا أعتقد أننى
سأنسى مشهد عينيه طيلة عمري وقد إمتلأتا بهذا القدر
من الرعب.. إرتعش جانب فمه.. دارت عيناه فى المكان
وكأنما يتأكد من أنه استيقظ.. ثم انفجر فى بكاء حار..
فى اللحظة التالية.. إنفتح باب الكارافان بعنف -
وكان موارباً- واندفع عبره رجلا الأمن..
- فيه إيه يا مدام..؟..

- نامت..؟.. هل أعددت لها الشورية..؟.. جميل.. ربنا
يخليكى يا (إيمى).. شكراً يا حبيبتى.. لا.. سأتأخر
قليلاً.. لا تشغلى بالك.. تصبحين على خير..
أنهيت المكالمة ووضعت الموبايل على المكتب.. إلتفت
إلى (أحمد) الذى كان يحسوالشاي من كوب ورقى
صغير بين أصابعه.. سألته:
- منذ متى..؟..

- (بتوتر): منذ إسبوع كامل.. كل ليلة.. نفس الأحداث..
نفس الوجوه.. نفس النهاية البشعة.. الاحتراق بين

السنة النيران..

وسحب نفساً عميقاً من سيجارته، ونفت الدخان
مضيفاً:

- الأمر يختلف عن الرؤى التي كنت أراها طيلة
الأسابيع الماضية التي حدثت عندها منذ لحظات..

سألته وأنا أنفث دخان سيجارتي:

- أتقصد تلك الرؤى الخاصة بالعقال وإضرابهم..؟

- (يهز رأسه بقوة): نعم..

وصمت لحظة ثم أردف:

- على مدى الأسابيع الماضية كنت أستغرق في النوم،

وكأنني أدخل عالماً آخر.. أحيا حياة أخرى.. وعندما

أستيقظ يلتبس على الأمر.. لا أدري من أنا ولا أين أنا..

أظل لبرهة الأسطى (عقار) العامل المعتقل.. أتأمل -

مندهشاً- المكان من حولي، ثم لا ألبث أن أستعد وعيى

بهويّتى الأصلية.. ثم ذلك الأنين..

- ماذا عنه..؟..

- يظل يدوى متقطعاً فى أذنى وعقلى من آنٍ لآخر..

وكأن أحدهم يلفظ أنفاسه الأخيرة بالقرب منى بعد أن

مزق إرباً..

- وهل يعلم أحد ممن حولك بما تمرّ به..؟..

رشفة من الشاي ثم..

- لا..

ظلت أتطلع إليه للحظات.. سألتى بعصبية:

- ألا تصدقيني..؟..

تجاهلت سؤاله، وسألته:

- إسمح لى.. هل تتعاطى أى نوع من المخدرات..؟
- (متوتراً): حالياً.. لا..

نفثت دخان سيجارتى.. أطرقت برأسى مفكرة.. لا يبدو
كاذباً.. القصة غريبة حقاً، وتشبه أفلام السنيما.. ولكن ما
تفسير هذه الأحلام..؟.. هل هى حقاً مجرد أحلام
أم..؟...

رفعت عينى إليه وسألته:

- ألم تفكر فى الذهاب إلى الأماكن التى تراها فى
أحلامك..؟..

نظر إلى ساعة معصمه متسائلاً بتوتر:

- أليس الوقت متأخراً للقيام بمثل هذه المغامرة..؟
أجبتة وأنا أبحث ببصرى عن مكان فارغ لإيقاف
السيارة:

- أية مغامرة..؟.. إنك فقط ستلقى نظرة على الشوارع
والأماكن التى تراها فى أحلامك..
- وما الغرض..؟..

إنشقت الأرض ليظهر شاب نحيل ممصوص الجسد
يرتدى ثياباً متسخة.. راح يلوح لى بذراعيه مرشداً
لأتمكن من إيقاف السيارة فى فرجة ضيقة بين
سيارتين..

- أغسلها يا مدام..؟..

- (وأنا أغادر السيارة): شكراً..

٢ - جنينه رسم إنتظار..

مثل هذا الموقف يثير غيظى دوماً ويدفعنى إلى
رفض الدفع.. غير أننى لم أكن أملك وقتاً و لا بالأ
للشجار هذه المرّة.. نقدته المبلغ، فاختمى من أمامى فى
أقل من الثانية..

- (ونحن نسير متجاورين): هناك تفسير ما يدور
بذهنى أريد التأكد منه..

-

لاحظت أنه لم يسمعنى أصلاً.. عيناه مشدوهتان تزحفا
على المبانى والوجوه والشوارع.. العرق يسيل على
جبهته.. فمه مفتوح قليلاً.. وثمة رعشة خفيفة تغزو
خذه الأيمن.. سألته بقلق:

- (أحمد).. ماذا دهالك..؟..

إلتفت إلى.. حدّق فى وجهى قائلاً بنبرة غريبة:

- مالى..؟.. مانى كويس أهه..

مالى..؟.. مانى كويس أهه..!!... فكّرت.. منذ متى
تتحدث باللهجة الإسكندراني يا باشمهندس..؟.. هل هو
مجرد تأثر بالجو المحيط، أم أنّ ما أفكر فيه
صحيح..؟..

لماذا قررت الذهاب معه..؟..

لا أجد جواباً كاملاً لمثل هذا السؤال يا دكتور
(حازم).. لربما كانت عدة أسباب تفاعلت فى أعماقى
لتدفعنى إلى مرافقة هذا الشاب المضطرب إلى أزقة

(كرموز) بعد منتصف الليل..

هل هو تعاطف إنساني عادى مع شخص ما يمر بأزمة نفسية..؟ أم هي ما يمكن أن نسقيها صداقة تكوّنت بيننا خلال الأسابيع الماضية تفرض على أن أقف بجانبه..؟..

هل غريزة الأمومة المكبوتة بداخلى وجدت لها مخرجاً..؟ أم تراها مشاعر الأنثى تتحرك فى أعماقى بعد أعوام من السبات..؟.. وإذا كان جواب التساؤل الأخير هو نعم.. فلم هذا الشاب بالذات..؟..

عموماً أياً كان الجواب، فالنتيجة أننا الآن نسير متجاورين فى (درب خزيم) بـ (كرموز) محاذرين الخوض فى برك المياه الآسنة وفضلات الحمير..

- الراجل اللى إسمه (الشوربجى) صاحب القهوة اللى هناك دى ماعندوش لا زمة ولا ضمير.. أوسخ معسل فيكى يا (اسكندرية) تشربيه عنده.. الواد (عطوة) صبى الفرن اللى على ناصية الحارة بيقول إنه بييجى بالليل بعد الناس ماترّوح بيوتها ويلم ولا مؤاخذة بعير الحمير الناشف م الأرض، وياخده يطحنه ويخلطه بالمعسل (اللى هو أصلاً زبالة).. تفوو (بيصق)..

هل أحلم أم أن ما تسمعه أذنأى حقيقى..؟..

- كل يوم والتانى (محفوظة) مراتى تتعارك مع القرة اللى إسمها (توحة) اللى ساكنة ف الأرضى.. نرجع م الشغل نلاقيها قاعدة تسب وتلعن فيها وفيأ.. ليه يا

مَرّة..؟.. عشان عيني منها وبننام معها كل ليلة من
ساعة جوزها المعلم (ابراهيم) صاحب البيت ما رَقَد من
سنتين.. نحلفولها ائى تبت عن صنف النسوان من يوم
ما إنطسيت ف نواضرى واتجوزتها.. إئما تقولى
لمين..؟..عايزة الحق.. المَرّة (توحة) دى ماتعرفش
تغمض عنيها وتنام غير بعد ما تتركب ولا مؤاخذة..
والمعلم (ابراهيم) جوزها مبقاش ييجى منه.. فضلت
ورايا لحد ما سحبتنى زى البغل على سريرها.. مرة
واتنين وتلاتة.. أنى عارف انى غلطان بس أنى برضه
طمعان ف رحمة ربنا وحاسس انه هايسامحنى.. أمال يا
ست.. ده برضك الغفور الرحيم..

ذهول شديد إنتابنى.. يتحدث باللهجة العامية
بطلاقة.. يلوح بذراعيه.. الرذاذ يتطاير من فمه.. كأنما
تقفصته روح أخرى..

- أنا أمى لقا ماتت مازعلتش وحمدت ربنا..عارفة
ليه..؟.. أصلها اتعذبت أوى قبل ما تموت.. كان عندها
المرض الوحش بعيد عنك.. كنت بنقعد قدامها وهى
بتتوجع وقلبى بيتقطع.. نبكى ونقولها أنى فداكى
يامه.. مانى ماكانش حيلتى غير الكلام والبكا بعد ما
الداكتور ف المستشفى الميرى قال مفيش فايذة م
العلاج.. أصل الأم غالية أوى يا مودام.. وأنى كنت
بنحب أمى أوى..

مستحيل.. ليس هذا تمثيلاً.. عيناه تلتمعان بدموع
حقيقية..

- بنفرحو قوى ف اليوم بتاع الانتخابات.. الشغل
بيقف.. بيركبونا أوتوبيسات المصنع، ويطلعوا بينا على
اللجنة ودفاتر الانصراف تفضل ع الباب.. ندخلو ندى
صوتنا للهلال والجمل ونطلع نمضى انصراف و نعكشو
عشرة عشرين جند ونرد على بيوتنا طوآلى..
- (أحمد)..!! ...

- نقولك على حاجة..؟.. آنى بنحب عيالى أكثر من أى
حاجة ف الدنيا.. بنخاف لانموت بدرى زى ابويا ما مات،
و نسيبهم يتلظموا ف الدنيا زى آنى واخواتى
ماتلظمنا.. أصلى ابويا مات و آنى لسأى عيل.. تفتكرى
العبرة اللى غرقت ف البحر..؟.. ها..؟.. أها آنى ابويا
كان على ظهرها.. غرق والسماك كله ومحدش عتر له
على جتة.. لسة لحد دلوقت فاكر منظر امى الله
يرحمها وهيا بتشيل التراب و تحطه فوق راسها.. من
ساعتها يا مودام ماشفناش يوم عدل.. آنى بقى خايف
على عيالى لايشوفوا الغلب اللى شفته.. نفسى أعيشهم
مستورين.. أوكلهم لقمة نضيفة.. يتعلموا ويبقوا
أساتذة.. ويسيبوا الحارة الوسخة دى ويسكنوا ف حته
نضيفة ع الشارع..

- (بصوت أعلى): (أحمد)..!!!....

- طب انتى عارفة آنى خدونى ف المصنع ازأى..؟..
نقولك.. الحكاية إن الحاج (عمران الشايب) بتاع
البودرة كان نازل انتخابات مجلس الشعب عن دايرة
(كرموز).. اللى كان نازل قصاده الحاج (مدبولى أبو

منصور) وده راجل بتاع ربنا زى مانت عارفة وخيره ع
الناس كلها.. (الشايب) كان مسوى أموره مع الحكومة..
بعث جابينا.. وَكِلْنَا وشربنا وكيفنا.. وعدنا إنه يشغلنا ف
المصنع اللى جوز بنته مستوظف فيه لو وَقَفْنَا معاه يوم
الانتخابات.. عايزة الحق..؟.. أنى ف الأول كشيت..
أصلى نعز الحاج (مدبولى) والراجل خيره مفرقنى..
بس الفرصة مابتجيش للواحد غير مزة.. يا يمد إيده
ويخطفها.. يا يقعد زى المزة حاطط إيده على خده
طول عمره.. ماكانش ينفع نقولو لأ.. كلنا حَسَبْنَاها كده..
وصمت لحظة قبل أن يشرد ببصره - أتراها دموع تلك
التي تلمع فى عينيه..!!- بعيداً ويتابع كأنه يحدث
نفسه:

- دى كانت آخر مزة نغضب ربنا.. من ساعتها يا ست
هانم وآنى ماشى ف حالى.. ومامشيش ليه..؟.. ربنا
كرمنى آخر كرم وبقيت عامل مستوظف ف المصنع..
إتجوزت وبقالى بيت وعيال.. بقيت نصوم ونصلى
الفرض بفرضه.. الحمد لله (يقبل يده وجهاً و ظهراً)..

- أسطى (عقار)..!!!.....

هنا إلتفت إلى.. تأملنى بتغن..

- نعمين يا ست هانم..؟..

- (بابتسامة مرتبكة): إنت مش ناوى تعزمنى على

كوباية شاي ف البيت..؟..

ظل ينظر إلى للحظات ثم..

- (بترحاب): يا سلام ..!!!.. كوباية شاي..!!.. دا

سعادتك لازم تتعشى معانا.. إتفضللى اتفضللى.. البيت مش بعيد.. خطوتين من هنا.. دى (محفوطة) هاتفرح قوى لما تشرّفيننا.. داحنا زارنا النبى..

راح عقلى يعمل بسرعة.. من الواضح أن مرأى المكان فجر فى عقله شلال من الذكريات المنسية.. ذكريات عن حياة الأسطى (عقار) الذى يراه فى أحلامه طيلة الأسابيع الماضية.. ولكن لماذا..؟.. ما الذى يربط بين فتى (باراداييس هايتس) وقاطن (درب خزيم)..؟.. ولماذا الآن..؟..

كان تفسير تناسخ الأرواح يطرح نفسه بقوة.. الواقع أنه طرأ على ذهنى منذ سمعت القصة لأول مرة.. هذا الفتى المرفه عاش فيما سبق حياة أخرى تتناقض تماماً مع حياته الحالية.. غير أن ذكريات هذه الحياة السابقة - ولسبب لا أعلمه- بدأت تعاوده بقوة فى أحلامه، وتشغل ذهنه فى يقظته.. الأمر غريب فعلاً.. ويتناقض مع قواعد العقل والمنطق، ومبادئ الدين.. ولكنه قد يكون تفسيراً منطقياً إلى حد ما..

ما حدث هو أننى تذكرت -عندما روى لى (أحمد) مشكلته- قصة الطفل الهندى (برامود شارما).. ذلك الطفل الذى عاش فى القرن الماضى فى مقاطعة (باودن) الهندية والذى اختلت حياته وحياة أسرته عندما راح يعلن أنه -وهو فى الثالثة من عمره- شخص آخر يدعى (بارا ماناند) عاش ومات فى (مراد آباد) عن عمر يناهز التاسعة والثلاثين..

ذكرتني معرفة (أحمد خشبة) بتفاصيل حياة (عمار) بمعرفة (برامود شارما) أدق تفاصيل حياة الراحل (بارا ماناند).. بيته.. أفراد أسرته.. متجره.. عمله كمدير لإحدى مصانع المياه الغازية.. بل وحتى تقنيات تركيب وتشغيل وعمل آلات المصنع.. ألا ترى أنّ التشابه واضح بين الحالتين..؟..

قفز ذهني إلى هذه الفكرة الغريبة متجاوزاً تفسيرات أخرى قد تكون أكثر منطقية لما يمز به هذا الفتى.. تذكرت القصة ووجدت أنّ ثمة تشابه بينها وبين مشكلة (أحمد)، فكان أن عرضت عليه الذهاب إلى المواضيع التي يراها في أحلامه كما فعل أهل الطفل الهندي (برامود).. وكانت المفاجأة..

- أنتِ إذن إقترحت عليه فكرة تناسخ الأرواح..؟..
- (بتوتر): لست من المؤيدين لهذه الفكرة.. ولكن التقارب بين الوقائع التي يمر بها (أحمد) وقصة الطفل الهندي أثار تعجبي بالفعل..
- من أين لك التأكيد من صحة القصة الهندية..؟..
- كنت قد قرأت عنها من قبل، وعندما تذكرتها مرّة أخرى، بحثت عنها في بعض المواقع المتخصصة على النت، فوجدتها مذكورة في أكثر من موقع.. دعك من أنّها ليست القصة الوحيدة، فهناك حالات أخرى كثيرة تتشابه وتختلف مع حالتنا هذه في الوقائع، ولكن التفسير والمغزى يدوران دوماً حول نظرية التناسخ..

- وهل ترينها تفسيراً مقبولاً..؟..

- أعلم أن الدين يرفض مثل هذه الأفكار لتعارضها مع فكرة صعود الروح إلى بارئها بعد الوفاة.. ولكننى لم أجد تفسيراً آخر لهذه المشكلة العجيبة.. وبخاصة عندما وجدت (أحمد) يتحوّل كلياً إلى الأسطى (عقار) بمجرد أن اقتربنا من (درب خزيم).. أنت لم تره آنذاك.. لم يكن يمثل أو يدعى.. كان الأسطى (عقار) يسير إلى جوارى يثرثر عن ذكرياته ومشاكله وأحلامه.. يمشى فى الشوارع ببساطة وكأنه يحفظها عن ظهر قلب.. يتعرّف الأماكن والمحلات والبيوت ويحدثنى عن قاطنيها كأنه يعيش بينهم طوال حياته..

- وهل ذهب بك إلى بيته..؟.. أعنى بيت الأسطى (عقار)..؟..

- (تتنهد): لم نجد وقتاً..

- لماذا..؟..

واقفون ينتظروننا فى الظلام ..

لم ألحظهم فى بادئ الأمر.. غير أن (أحمد) فعل.. توقف عن الثرثرة.. تجمّد فى مكانه.. قبض على ذراعى ليمنعنى من مواصلة السير..

- ماذا حدث..؟..

لم يرد.. ظل ينظر بثبات إلى الطريق الضيق المظلم أمامنا.. تطلّعت بدورى إلى حيث ينظر.. الظلام يغطى الزقاق الطويل الممتد لأكثر من عشرين متراً.. عمود

الإنارة محطم خالٍ من أية مصاييح.. و..
هنا رأيتهم (وقد بدأت عيناى تعتادان الظلمة)..
- يا أهلاً وسهلاً..
- عندنا ضيوف الليلة..
- يالالى..

الصوت المبحوح الخارج من تحت لسان ثقيل والمميز
لمتعاطى البانجو..
أصوات ضحكات.. ثم برز من الظلام رأس.. إثنان..
ثلاثة..

إنتابنى الرعب وأنا أتأمل وجوههم السمراء النحيلة..
ذقونهم الغير حليقة.. الندوب المختلفة التى خلفتها
ضربات المطاوى.. العيون الزائغة المليئة بالشهوة
والابتسامات التى تفوح بالشر.. رغماً عنى ارتجفت..
تراجعنا للخلف بحذر..
- على فين..؟..

كليك.. صوت السوستة.. ثلاثة مطاوى تلمع فى
الظلام..

- طلع اللى ف جيبك يا نحنوح..

و...

- وشنطتك يا جتة..

بيطء فتحت حقيبتى.. سمعت (أحمد) يقول بغضب:

- إنتوا جايين تقلّبونى ف حتى يا شوية (....)..؟..

يخرب بيتك.. ألا ترى يا أحق أنهم عاملين دماغ..؟..

فليأخذوا كل شئ ويتركونا أحياء..

أى منهما فى الظلام.. أرى الحدود الخارجية
لجسديهما.. المطواة تلتمع فى الظلام.. يد ترتفع حاملة
إياها، وأخرى تقبض عليها لتمنعها من الطعن.. صرخاتى
تشق الصمت.. الغبار يتصاعد من أثر الشجار.. المجرم
الذى حرقت عينيه يزحف متحسناً طريقه.. أصوات
سباب المتصارعين تتعالى.. ثم....

ضوء يندلع فى نهاية الزقاق المظلم.. يقترب بسرعة..
أرى رؤوساً عدة تقترب.. أسمع أصواتاً غاضبة.. لأول
وهلة ظننتهم مزيداً من الأوغاد.. ثم لمحت وجوههم..
خفق قلبى.. رأيت المجرم الذى يقاتل (أحمد) يدفعه
بعيداً عنه.. المطواة تسقط من يده.. يهرع مبتعداً..
زميله الأعمى يحاول الهروب.. يتعثّر.. ينهض ويسب
ساخطاً.. ألقى نظرة على (أحمد).. مستلقى أرضاً..
صدره يعلو ويهبط.. الدماء تتدفق من جرح ذراعه..

أهل الزقاق يحيطون بنا..

- الحمد لله.. قدر ولطف..

- حد يطلب الإسعاف يا اخوانا.. الراجل بينزف..

- دى عيال ولاد حرام..

- إحنا سَمَعنا صوت صراخ الست جينا نجرى..

- حنة قماش.. حنة قماش..

- يا دكتور (خالد)..

- الإسعاف يا جدعان..

- ساعدنى بعض أولاد الحلال فى نقله إلى مستوصف

قريب.. كان جرح ذراعه سطحياً ولله الحمد.. لم يمض
وقت طويل حتى كئا عائدين..
- إلى أين..؟..

- عرضت عليه أن يأتى إلى منزلى لتناول الإفطار مع
أسرتى، غير أنه اعتذر، وغادرنى إلى (بورتو مارينا)
حيث ترك قاربه البخارى فى مرفأها، ليستقله عائداً إلى
(باراداييس هايتس)..

- وما كان تعليقه على ما جرى فى تلك الحارة.. أأ..
ماذا كان اسمها..؟..

- (درب خزيم).. ولم يعلق بشئ على ما جرى..
- لماذا..؟..

- لأنه لم يذكر شيئاً مما جرى.. نسى كل شئ،
وفوجئت به يتساءل - بعد خروجنا من المستشفى -
عن جرح ذراعه كيف ومتى أصيب به..!!..

كنت فى غاية الإرهاق البدنى والنفسى بعد مغامرة
الأمس، فلم أذهب إلى العمل.. هاتفت (ميخائيل)
وأخبرته أننى سأتغيب اليوم، واتفقت معه على بعض
الأعمال التى سيباشرها بنفسه فى غيابى..

غرقت فى نعاس عميق، وفى الظهيرة كنت أستقل
ترام (باكوس) عائدةً إلى (كرموز)..

العنب العنب العنب..
أحمر.. أخضر.. أصفر..

أسمر وزى اللوز.. واطعم يا ناس م الموز...

- الأسطى (عقار).. أيوووه.. إلا نعرفه...!!.. ده كان
حبيبي..

- الأسطى (عقار)...!!..

كذا تساءلت بذهول، فقال بثقة وهو يبتعد حاملاً
صينية الشاي:

- أيوه يا مودام.. مش سيادتك تقصدى لاسطى (عقار)
بتاع مصنع الصاج اللي ف البر القبلى..؟.. هو مفيش
غيره..

فييى بقعة..

من بقاع الأرض طاهرة..

بسم الله مولانا..

بنت (وهب) أنجبت ولداً.. فأنجبت خير خلق الله
إنساناً...

- أمال ياهانم...!!.. دول عيالى روحهم ف عياله.. ربنا
يرد غيبته ويرجعه بالسلامة..

إرتفع صوت ساخط من الداخل:

- إخلص يا أسطى (جمعة).. المعجون نشف على
دقنى..

- (بحدّة): يا جدع أصبر شوية هيا الدنيا طارت..

لا تين ولا عنب زيك يا بير العسل...

قالت وهى تهش أسراب الذباب عن قوالب الجبن
الأبيض المرصوصة أمامها فى الطشت:
- أيوه أيوه.. جوز الست (محفوظة) اللى ساكنة ف
الدور التانى.. ربنا يفك سجنه..

(روتانا سينيما)... مش هاتقدر تغمض عينيك...

فتحت الباب، ووقفت تحقق فى بعينين واسعتين
متسائلتين..

- مين سيادتك..؟..

لم ترق لى.. بالفعل هى جميلة جدا.. ولكن المساحيق
التي تلتخ وجهها بالإضافة إلى النظرة العابثة المطلة
من عينيها الكحيلتين منحها جمالها طابعاً سوقياً
مزعجاً.. دعك من أن ثوبها المنزلى الشفاف ذو الفتحة
الواسعة كشف عن عنقها الطويل الجميل و مساحات
واسعة من صدرها الناصع البياض.. قلت بثبات:

- الحاج (ابراهيم) موجود...؟..

- الحاج نايم دلوقت ومانقدرش نصحوه.. مين
حضرتك..؟..

من الداخل ينبعث صوت (شادية) ..

قاللى كلام .. أحلى كلام .. من بعد ما قاله
ماهانام...

- (أمل الشافعي).. من الهيئة العامة لتنظيم الأسرة..
- أهلاً و سهلاً.. أيتها خدمة..؟..
- كنت عايزة أسأل عن سكان الدورالتانى.. الأسطى (عقار) وجماعته..
- (تممصص شففتيها): حد عارفلم طريق..؟.. أهو من ساعة ما الراجل إتمسك.. والولية المجنونة مراته خدت العيّلين والأرض انشقت وبلعتهم..
- هو اتمسك ليه..؟..
- العلم عند الله .. هوّ اللى الحكومة بتمسكه بنعرفو اتمسك ليه واللا هايرجع اللا لأ..؟..
- طب إتمسك إمتى..؟..
- دى كمان مانعرفوهاش.. بس أنى عرفت انه اتمسك من قيمة زى ما تقولى كده ة تُشهر..
- ثم خفضت حاجباً ورفعت الآخر قائلة بتشكك:
- إنما سيادتك يعنى ولامؤاخذة واخذنى ف دوكة وعقاله تسألنى وأنى نجاوب من غير ما نعرفو إنتى بتسألنى كل الأسئلة دى ليه..
- (بارتباك): قلت لك إنى مندوبة الهيئة العامة لتنظيم الأسرة..
- (بحدّة): إسم النبى حارسك وصاينك.. وهيئة تنظيم الأسرة بدل ما تسألنى عن بيتى جاية تسأل عن البيت اللى فوقينا..؟.. ومالها (عقار) اتمسك إمتى واللا ليه..؟..!!
- أنقذنى الصوت الواهن الذى تعالى من داخل الشقة:

- (تووووحة).. الحقام..
قاللى كلام.. أحلى كلام.. من بعد ما قاله
ماهانام...

- عايزة الحق.. المزة (توحة) دى ماتعرفش تغمض
عنيها وتنام غير بعد ما تتركب ولا مؤاخذة.. والمعلم
(ابراهيم) جوزها مبقاش ييجى منه.. بنت الكلب
الوسخة فضلت ورايا لحد ما سحبتنى زى البغل على
سريرها.. مرة واثنين وتلاتة.. أنى عارف انى غلطان
بس أنى برضه طمعان ف رحمة ربنا وحاسس انه
هايسامحنى.. أمال يا ست.. ده برضك الغفور الرحيم..

(إيجى – نيرجى) .. الطاقة و الأمان يتواصلان...

- بقى له شهور ما دخلش البيت..
كذا قالت ودموعها تنهمر.. غمرتنى الشفقة وأنا أتأمل
وجهها الشاحب وعينيها الذابلتين.. ناولتها منديلاً
وقلت:

- وحدى الله يا ست (إخلاص)..
- (تتناول المنديل): لا إله إلا الله، (محمد) رسول الله..
متشكرين يا ست هانم..

مسحت دموعها وتمخّطت فى المنديل.. قالت:
- من بعد الحكومة ما قبضت على زملائه، وهو
ما بينامش الليل.. كل ما عينه تغفل يصحى مفزوع

ويفضل ينده على (عمار) والرئيس (حمدي) ويبيكي زي
العيال الصغيرة..

- ليه يا (إخلاص)..؟..

صمتت ولم ترد..

- (بإصرار): إيه اللي خلا الاسطى (نعمان) أعصابه تنهار
بالشكل ده..؟..

- سامحيني يا ست هانم آنى مانقدرش نتكلم..

- ليه..؟..

- (بخشونة مفاجئة): البيوت أسرار.. وآنى مانفشييش
أسرار بيتى ابدأ..

- (بحزم): ماتفشييش أسرار بيتك واللا مش عايزة
تقوليلى ان جوزك هوّا اللي فجر الغلاية اللي ف المصنع
أيام الاعتصام..؟..

شحب وجهها - الشاحب أصلاً - أكثر، وحدقت بعينين
يطل منهما الهلع فى وجهى ثم هتفت:
- ماحصلشى..

- لأ حصل.. بدليل إنه هوّا الوحيد من العمال اللي
كانوا معتصمين ف المصنع اللي ماتقبضش عليه..
صرخت:

- كذب.. كذب..

وهبت واقفة:

- إتفضلى من غير مطرود بدل مانفزجو عليكى الخلق..
شعرت بالدم يتدفق فى عروقى.. نهضت حاملة
حقيبتى.. قلت لها وأنا أتوجه نحو الباب:

- أنا ماشية.. بس ماتنسيش إن انتى وجوزك شايلىين
ذنب الغلابة اللى ضاعوا.. وانا مش هاسكت.. أنا
صحفية وهافضحكو أدام الدنيا كلها..
غادرت الشقة، وبينما أهبط الدرج العتيق، سمعت
صوت مزلاج الباب يُفتح، ثم جاءنى صوتها المتوسل:
- من فضلك استنى يا ست هانم.. أنى محقوقة لك..
إتفضلى وأناى هانقولك على كل اللى نتى عايزاه..

أمل الشافعي

فى ذلك اليوم.. كان (نعمان) جالساً أمام الدكتور
(هشام مدكور) الأستاذ فى قسم الأورام بالمستشفى
الميرى..

لابد أن الطبيب فحص صور الأشعة، قبل أن يخفها
ويهز رأسه قائلاً:

- زى ما قلت لك..

لابد أيضاً أن (نعمان) تساءل بخوف:

- خير يا دكتور..؟..

- لازم جراحة استئصال قبل الورم ماينتشر..

- (برهبة): جراحة..؟..

- وف أسرع وقت ممكن.. بكره أو بعده بالكثير..

-

- العمليات هنا ممكن ماتكونش جاهزة.. عشان كده

هاتطلع على المستشفى التخصصى بتاعى اللى ف

(سموحة).. (ينزع ورقة من دفتر التذاكر الطبية ويكتب

عليها).. هتصلك بيهم عشان يستقبلوا المدام ويجهزوا

أودة العمليات.. بس المهم إنك ماتأخرش.. إتفضل..

(يناوله التذكرة الطبية وصور الأشعة والتحليل)..

- طب وعملية زى دى تتكلف كتير يا دكتور..؟..

خط رقماً على ورقة بيضاء، ثم ناولها له..

- خمسة عند الدخول والباقى بعد العملية إن شاء الله..

- (العرق يسيل على وجهه)

- (يلاحظ صمته): أنا عارف إن المبلغ ممكن يكون كبير.. بس العمليات دي بتتكلف كتير يا اسطى (نعمان).. وصدقنى لو كانت عندنا هنا ف المستشفى الميرى غرف عمليات جاهزة ماكنتش اتأخرت معاك.. لكن الغرف كلها مشغولة اليومين دول، وقوائم العمليات طويلة.. وحالة مراتك ماتستحملش التأخير..
ثم بيتسم مستطرداً:

- على العموم.. شيل م المبلغ ألفاية.. دي مساهمة منى.. وربنا يتمم الشفا إن شاء الله للمدام.. بس زى ما قلت لك.. إوع تتأخر...

أكاد أراه بعينى وهو يمشى منكس الرأس يملأه الهم متجهاً إلى محطة ترام (المنشية)..
واقفاً فى المحطة.. الفحوص والتحليل فى مظروف عملاق تحت إبطه.. ذقنه غير حليقة.. عيناه زائغتان.. لا يكاد يرى شيئاً من الزحام الشديد المحيط به..
لم يكن لديه أطفال برغم أنه متزوّج منذ خمس سنوات.. ولكنها إرادة الله.. يرزق من يشاء إناثاً ويرزق من يشاء الذكور ويجعل من يشاء عقيماً.. هكذا سمع الشيخ (عبد الرازق) إمام المسجد يردد..
لم يكن لديه أطفال بعد.. ولكنه كان يحب زوجته (إخلاص) حباً عميقاً.. طيلة عمره كان يهوى النساء وله معهم مغامرات لا تعد.. ولكنه منذ رآها واقفة تساعد أبيها المعلم (عوضين) على عربة البليلة بعد وفاة أمها

تغير حاله.. شدّه جمالها.. حاول معها فى البداية بالطرق التقليديّة.. الثرثرة أثناء التهام سلاطين البليّة.. بعض النكت القبيحة.. محاولات الإحتكاك والتحسيس (فى غفلة من أبيها العجوز طبعاً).. عرض عليها أن يخرجها سوياً.. «يا بت يا عبيطة هانفسحوكى ونأكلوكى كباب».. غير أنّ البنت الجدعة واجهته بصراحة بأنها ليست من هذا النوع، وأنّ «برشامتها لسه سليمة» وإذا أراد «من غير لف ولا دوران» فكها فليكن بحلال الله.. لم يكن «بتاع جواز».. حاول العودة إلى نظامه القديم، ولكنه فوجئ بأنه لم يعد يطيق مضاجعة المومسات (ولكم أدهشه هذا).. توقف عن اللعب بذيله ومطاردة العاهرات فى الشوارع ليلاً.. أدرك مذهولاً أنه -بحق- يحب هذه الفتاة السمراء بارعة الحسن.. صار مدمن بليّة.. يقضى ليليه على غرزة (الدباغ) بـ (كرموز) أمام عربة المعلّم (عوضين).. حتى جاءت تلك الليلة التى أحاط فيها ثلاثة من السكارى بالعربة وراحوا يغزلون الفتاة ويمدون أيديهم ساخرين من أبيها العجوز..

هنا هب (نعمان) من مكانه وتحرك نحو العربة.. لم يدر إثنان من السكارى الثلاثة بنفسيهما إلا و أسيهما يرتطمان ببعضهما بعنف ثم يغيبا عن الوعى.. ولم يكد الثالث يشهر مطواته حتى قبض (نعمان) على ذراعه ولواه بقوة فسمع الجميع صوت العظام تنهشم، قبل أن يعاجله بروسية معتبرة كؤمته إلى جوار رفيقيه..

- البت بتك دي ماتنزلش تانى الشغل يا معلم
(عوضين)..

- كلام ايه ده يا اسطى (نعمان)..؟.. مانث عارف ائى
ماحتيش غيرها، وبتتعكزو عليها لجل ماناكلو عيش..
- انى بنطلب منك إيد (إخلاص) يا معلم (عوضين)..
ورزقنا كلنا على الله..

وبينما صمت الرجل مندهشاً للمفاجأة.. إحمز وجه
الفتاة وأطل الفرح بوضوح من عينيها وابتسامتها..
توووووت ...

وصل ترام (باكوس).. يركب إحدى العربات.. يقطع
تذكرة.. الزحام شديد فلا مكان للجلوس.. عليه أن يظل
واقفاً حتى يصل إلى (كرموز).. تنهد بصبر.. ركاب
كثيرون لا يتوقفون عن الثرثرة.. أحدهم يرفع مصحفاً
ويقرأ منه بصوت مرتفع.. و..«صلى على رسول الله..
تبرع لجمعية كفالة اليتيم.. يقول الرسول (صلى الله
عليه وسلم) أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة.. تبرع
من أجل كفالة اليتيم».. فتاتان صغيرتان ترتديان ثياب
المدرسة لا تكفان عن الثرثرة والضحك.. امرأة منقبة
تحمل طفلة صغيرة لا تكف عن البكاء.. و.. «باكو
شيكولاتة بالحليب برقع جنيه.. حلى بقك و سلى وقتك
برقع جنيه.. أربع بواكى شيكولاتة لحمادة بجنيه»..
شاب ملتح يضع عدداً من الكتب تحت إبطه ويحاول
التركيز فى قراءة أحدهم.. و.. و...

عربات الترام تهتز طيلة الوقت.. ولكن (نعمان) كأنه

فى عالم آخر منفصل تماماً عما حوله.. يستعيد وجه
امراته الصبوح، و يقارنه بما صار عليه من اصفرار
وذبول بعد إصابتها بالمرض اللعين.. يتذكر لحظاتها
معاً، وتكاد الدموع تنساب من عينيه..

لا يدري متى هبط فى (كرموز).. لم يعد إلى بيته.. لم
يجد لديه المقدرة.. راح يهيم على وجهه فى الشوارع..
ماذا سيقول لها حين يدخل عليها فتستقبله عيناها
بتساؤل ملهوف عما فعل..؟..

لازم جراحة استئصال قبل الورم ماينتشر..
للأسف لا توجد غرف عمليات فارغة فى المستشفى
الميرى يا (إخلاص).. سيجريها لك الداكتور فى
مستشفاه الخصوصى بـ (سموحة).. هذه العمليات
تتكلف الكثير.. لكن لا تقلقى ..

ع العموم .. شيل م المبلغ ألفاية.. دى مساهمة منى..
و من دون أن يلحظ .. كانت الدموع تغرق وجهه ...

السيارة الفاخرة تتوقف بجانبه.. يفتح الزجاج
المجاور للسائق.. يبرز وجه (حسين مغاورى) من
وراءه..

- سلام عليكم يا اسطى (نعمان)..

- سلام ورحمة الله وبركاته..

مشاعر الغضب والضيق تملؤه.. ينظر إلى وجهه..
يرغب أن يبصق عليه.. يصفعه قلمين..
- على فىن العزم اقال..؟..

يريد أن يصرخ فى وجهه أن «وانت مال أمك..؟..»
غير أنه يتمالك أعصابه..
- مشوار كده عدم اللامؤاخذة..
- لو رايح ع المصنع إركب معايا أوصلك ف سكتى..
- تعيش يا باشا.. إتفضل سيادتك ماتشغلش بالك..
- يا جدع اركب ما تخافش مش هانخطفوك..
- مانى أصلى مش رايح المصنع..
- إركب بس أنى عايزك ف موضوع صغير..
- ماينفعش نخليها وقت تانى يا باشا..؟.. أصل الـ..
- (يفتح باب السيارة الأيمن): لا أصل ولا فصل.. هى
كلها نص ساعة ونرجعوك تانى.. ياللا اركب..

لماذا ذهب معه..؟..

الجواب بسيط.. لقد خرج من المستشفى الميرى تائهاً
يترنح كالطير المذبوح.. ساعات طويلة قضاها يقطع
الشوارع والأزقة حتى كَلَّت قدماه من التعب دون أن
يجرؤ على العودة إلى زوجته حاملاً خيبة الأمل ولا شئ
سواها..

كان يعلم بالتأكيد أن (حسين مغاورى) لا يأتى الخير
من وراءه «لإن الهداية مابتحدفش كتاكيت».. وأنه
بالتأكيد يريد منه شيئاً يتعلّق بالإضراب.. ولكن..

هو لا ينوى خيانة زملائه أبداً.. فلماذا لا يذهب..؟.. هو
بحاجة إلى ألا يعود لبيته.. لإمراته.. يريد أن يكلمه
أحد.. يسمعه أحد.. أى أحد، ولو كان ثعباناً ك (حسين

مغاورى)..

الفيلا فى (العجمى) أنيقة حقاً..

الأرضيات خشب باركيه.. الحوائط مطلية بالبلاستيك
الملون.. النباتات الخضراء منتشرة فى كل مكان.. آيات
قرآنية مختلفة فى أطر مذهبة معلقة على الجدران..
هواء بارد مكيف.. نافذة عملاقة تطل على حديقة رائعة
أمام شاطئ البحر مباشرة..

- أنى طاواعتك يا (حسين) بيه وجيت معاك عميانى
لحد هنا.. ولازمن تقولى إيه الحكاية بالظبط..

- (يرشف من زجاجة المياه الغازية): اللى خلاك تصبر
كل ده يا (نعمان).. مش قادر تصبر دقيقتين كمان لقا
الراجل ييجى..؟..

- (ينهض): ولا دقيقة واحدة.. بالاذن يا باشا أنى
ماشى..

- (يجذبه من كم قميصه): يا جدع اقعد هاتروح ازاي
كل ده..؟..

- (يشد قميصه بعنف): إن شالله نروح على رجلياً..
ماشى يعنى ماشى..

صوت عميق متزن يأتى من خلفه:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

(حسين مغاورى) يهب كالمسوع هاتفاً:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. أهلاً يا مولانا..

- أهلاً بيك يا أخ (عادل).. (يلتفت لـ نعمان): إيه يا أخ

(نعمان).. لم لا ترد السلام..؟..

- (ببطء): سلام ورحمة الله وبركاته..

- (يصفحهما بحرارة): تفضلاً بالجلوس..

رجل مهيب حقاً.. الوجه يشع نوراً (أو هكذا بدا له)..
الحية غزيرة يختلط بياضها بسوادها.. زبيبة صلاة
داكنة تزيّن الجبهة.. سبحة من الكهرمان الأزرق تتلاعب
بين أصابع اليد.. جلاباب أبيض ناصع.. عباءة سوداء
داكنة..

- أعتذر عن التأخير.. نسيت نفسي كالعادة أثناء أداء
سنة الظهر..

قال (حسين مغاوري) بحماس:

- تقبل الله صالح الأعمال يا حاج..

- (يمسح وجهه بكفيه): آمين.. منّا ومنكم إن شاء
الله..

ثم..

- (مبتسماً بود): كيف الحال يا أخ (نعمان)..؟..

- الحمد لله..

- أول مرّة نتقابل..

أسرع (مغاوري) يقول:

- الحاج (صالح عبد النعيم) برغم إن مشاغله بتمنعه
من إنه ييجى المصنع.. إلا إنه بحكم منصبه كنائب
لرئيس مجلس الإدارة عارف كل عمال المصنع.. وكل
كبيرة وصغيرة بتحصل عنده خبر بيها..
رفع (نعمان) حاجبه متسائلاً:

- الكبيرة والصغيرة..؟!..

فتح (مغاوري) فمه ليتكلم، ولكن الحاج (صالح) بادر
بالقول:

- نعم يا أخ (نعمان).. الكبيرة والصغيرة.. وصدقني أنا
حزين جداً بسبب المشكلة اللي حاصلة بين العمال
والإدارة.. ونفسي اننا نحلها بهدوء وبدون أي شوشرة..
- إدونا حقنا يا بيه.. ويا دار ما دخلك شر..

- ما هيا دي المشكلة يا أخ (نعمان)..

- مشكلة انك تدي الغلابة الشقيانين حقوقهم يا
حاج..؟!..

- (بهدوء): حقوق الغلابة مش عندي يا أخ (نعمان)..
دي عند الحكومة المصرية.. المبالغ الضخمة اللي
بتطالبوا بيها دي أرباح ومكافآت السنين اللي فاتت لما
كانت أغلب أسهم المصنع ملك للحكومة.. وكان
المفروض انها تصرفها لكم.. لكن اللي حصل انها
مصرفتش حاجة.. وباعت لنا المصنع -أنا وشركائي-
من غير ماتقولنا على الموضوع ده.. أنا راضي نمتك..
بعد ما دفعنا ملايين وملايين فى شرا المصنع و التزمنا
بعدم تسريح أي عمالة زائدة طول الفترة اللي فاتت،
وتحملنا أعباءهم المالية.. يبقى مفروض علينا ندفع
مستحقات مش ف ذمتنا أصلاً..؟!..

- (بغضب): يعنى احنا كده فلوسنا راحت ف الهوا بينك
وبين الحكومة..؟!..

- إنت عارف الفلوس دي تطلع أد إيه يا (نعمان)..؟!.. أنا

أقول لك.. عشرين مليون جنيه..عارف يعنى إيه
عشرين مليون جنيه..؟.. يعنى أنا كده أبقي اشتريت
المصنع علشان أخسر.. ورغم كده..

وصمت لحظة ليلتقط أنفاسه ثم:

- ورغم كده.. أنا مايهونش عليا حقوقكم تضيع.. أنا
غير الاجانب شركائى.. أنى ابن البلد.. ومانسيبش ولاد
بلدى حقوقهم تروح ف الرجلين.. ولو على رقبتى..
- (بدهشة وفرح): يعنى هاتصرفوا لنا الأرباح
المتأخرة..؟..

- إن شاء الله رب العالمين.. بس فيه حاجة صغيرة..

- (بقلق): حاجة إيه..؟..

- (مبتسماً): كل خير إن شاء الله.. نتكلم بعد أما
نتغدى..

- مالوش لزوم يا حاج..

- (يربت على كتفه بمودة): إزاي بقى..؟.. مش لازم
ناكل عيش وملح مع بعض..؟.. واللا انت منوفى..؟..
هه هه.. ماتتكلم يا (حسين)..

هتف (مغاورى) بحرارة:

- طول عمرك أهل كرم ومرؤة يا حاج..

- ياللا بينا.. إتفضلوا..

المائدة حافلة بمختلف صنوف الأطعمة التى رآها ولم
يرها من قبل..

أوانى وطواجن مختلفة الأحجام والأشكال والألوان

تفوح منها الأبخرة الساخنة محملة بأشهى الروائح..
الجو حميمى يموج بالدفء .. (حسين مغاورى) يزدرد
الطعام بنهم شديد، وكأنها المرّة الأخيرة التى سيفعل
فيها.. بينما شقّر الحاج (صالح) عن ساعديه، وراح
يطعم ضيفيه بيديه العاريتين وهو لا يكف عن الثرثرة
والتهكم على نهم (مغاورى).. كل هذا جعل (نعمان)
ينسى مشاكله الشخصية ويقبل على الطعام بشهية،
وخاصة أنه لم يذق طبيخاً منذ أكثر من شهرين (منذ
بدء الإضراب)..

تساءل الحاج وهو يناول (نعمان) شريحة من صدر
رومى:

- أخبار المدام إيه يا أخ (نعمان)..؟..
توقف (نعمان) عن مضغ الطعام، وكأنما تذكر ما غاب
عن ذهنه مع توالى الأحداث.. تتمم بأسى:
- الحمد لله..

لعق (حسين مغاورى) أصابعه الملوّثة بالسمن قائلاً:
- للأسف يا حاج.. جماعة الاسطى (نعمان) مريضة
بالمرض الوحش.. أنا حتى لقا قابلت (نعمان) كان راجع
م المستشفى الميرى..

قال الحاج (صالح) بألم:
- لا حول ولا قوّة إلا بالله العلى العظيم.. ربنا يتم لها
الشفاء بحوله وقوته.. طب والدكاترة ف القصر العينى
قالوا إيه..؟..

أجاب (نعمان) بصوت مبحوح:

- لازمها عملية..

- (باهتمام): هاتعملها إمتى..؟..

- (بيتسم بمرارة): لقا ربنا يفرجها..

- ونعم بالله.. إحكى لى يا (نعمان) وماتخبيش حاجة..

قص (نعمان) تفاصيل مقابله مع الدكتور (هشام

مدكور)، ولم يكذبته حتى قال الحاج بحزم:

- ولا تحمل أى هم..

والتفت إلى (مغاورى) قائلاً:

- تخلص أكل يا (حسين) وتقوم تتصل بمستشفى

(هشام مدكور) وتحجز أودة العمليات.. الست جماعة

أخونا (نعمان) لازم تعمل العملية بكرة إن شاء الله..

والمصاريف تتسد كلها النهاردة قبل بكرة بإذن الله..

- أمرك يا حاج..

أما (نعمان) فكان وقع الكلام عليه قوياً.. بهت

للحظات.. فتح فمه ليعترض بكلمات متخاذلة غير

مسموعة قبل أن تفيض مشاعره بغتة.. إنهمرت الدموع

كالمطر من عينيه.. أهوى على يد الحاج (صالح) يقبلها

والكلمات تتقاذف مع رذاذ لعابه من فمه كالطلقات،

فأسرع الحاج يسحب يده هاتفاً بانزعاج:

- أستغفر الله العظيم.. قوم يا أخى حرام عليك..

- الخدمة اللي انا عايزها منك بسيطة أوى..

قالها الحاج ونفث أبخرة الحشيش بعمق..

فى وقت آخر وظروف اخرى، كان مثل هذا الكلام

ليملاً (نعمان) بالتوجس والقلق، غير أنّ تأثير الساعة
الماضية وما جرى فيها طغى على كل شكوكه فقال
والنشوة تملؤه:

- إنت تؤمر يا حاج..

- (مبتسماً): الأمر لله يا أخی.. جزيت كل الخير..

وسحب نفساً طويلاً من النارجيلة.. ثم..

- إنت و الإخوة المعتصمين ف المصنع بتناموا فين..؟..

- ف كذا مكان.. ف العنابر.. ف الحوش.. ف مكاتب

رؤساء العقال..

- حد بينام ف قاعة الغلايات..؟..

- لأ.

- إسمعنى..؟..

- دى بالذات إحنا متفقين نحافظ عليها من أى

تخريب.. دا حنا كمان عاملين عليها حراسة..

- عظيم جداً..

ونفت أبخرة الحشيش قائلاً: - إسمعنى بقى كويس..

وركز معايا..

الميكروباس يتوقف به على الطريق الأسفلتى الذى

يخترق البر القبلى..

يهبط.. يلتقط نفساً عميقاً من هواء الليل البارد..

يخطو على الطريق الترابى المؤدى إلى المصنع..

يداه تحتضان الصندوق بحرص..

- إيه اللي ف الصندوق ده يا حاج عدم اللامؤاخذة..؟..
تساءل وهو يتطلع باستغراب إلى الصندوق المصنوع
من الصاج الذى وضعه (حسين مغاورى) أمامه على
المنضد ..

- ماتقاطعنيش..

يعبر البوابة الحديدية.. يسمع صريرها إذ تنغلق من
خلفه.. عدد من رفاقه يلتفون حوله مرحبين..
- حمد لله ع السلامة..

- إيه الأخبار يا اسطى (نعمان)..؟..

قال الرئيس (حمدى) باهتمام :

- طمئنا..

- (يبتلع ريقه): بخير ولله الحمد..

سأل (عمار): - الدكتور قاللك إيه..؟..

- (يتلثم): أأ.. الحمد لله.. قال.. إإ.. إن العلاج إبتدا

يجيب نتيجة كويسة.. و.. و.. وقریب إن شاء الله

تخف وتبقى زى الفل..

- (بارتياح): الحمد لله.. ربنا يطقنك عليها..

(طحلاوى)يشير إلى الصندوق متسائلاً بفضول:

- أمال إيه اللي ف الصندوق ده يا (نعمان)..؟..

- (مرتبكاً): ده.. أ.. دى لقمة كده على ما قسم.. على

شوية غيارات أحسن غياراتى كلها اتوسخت..

ثم..

- بالإذن أنى يا اخوانا.. أصلى مهدود م المشوار.. عايز

نريحو الجتة شويّة..

- هاتدخل العنبر اللي بتنام فيه.. تخفى الصندوق ف
فرشتك أو فأى حتة.. المهم الجن الازرق مايعترش
فيه.. تريح لك قيمة ساعة زمن.. وبعدين تطلع لزمايلك
بزة.. هاتلاقي الدنيا مقلوبة..

ضحيج عال.. أصوات ضحك.. غناء.. تصفيق..
- (بصوته الأجنس): عرفت اللي حصل يا (نعمان)..؟
- خير يا (عاشور)..؟
- (يحتضنه بقوة ويضحك بصوت عال): الشدة زالت..
الإدارة وافقت- مبروك يا (عاشور)..

- قبل الفجر بنص ساعة.. العمال هايكونوا إما نايمين..
يا إما سهرانين بيهيصوا.. إنت بقى هاترجع عنبرك..
تخرج بالصندوق من غير ما حد يشوفك..

يتحرك بخفة فى الظلام بين الغلايات العملاقة..
الصندوق يرقد بين أصابعه.. أصوات الساهرين تأتي من
بعيد وكأنها قادمة من عالم آخر.. بقايا أضواء كلوبات
الفناء الخارجى تصنع ظلالاً على أرضية القاعة بالقرب
من النافذة.. قلبه ينبض بقوة، وأقدامه تخطو بحذر
على الأرضية المتربة..

خشخش...

يتجمّد فى مكانه.. يحاول أن يخرق ظلام القاعة
بصره.. تمر الثوانى.. عيناه تتعوّدان الظلمة و..
خششش..

بصعوبة هذه المرّة يميّز الجسم الأسود الصغير ذو
الذيل الطويل يزحف مبتعداً بين الماكينات.. يتنهد..
يتحرّك ليقف بجوار جسم الغلاية الكبرى.. يجلس
القرفصاء.. يضع الصندوق أمامه.. ينظر إليه بتمعّن..

- عبوة ناسفة..
- بتقول إيه يا حاج ..؟..
- (يتنهد بصبر): أقول عبوة ناسفة..
-
- إيه سكتّ ليه..؟..
- عايز تنسف المصنع يا حاج..؟.. طب ليه..؟.. دى
فلوسك..
- (يضحك): أنسف المصنع..!! .. يخرّب عقلك يا
(نعمان).. هه هه..
- أمال ايه..؟..
- مصنع إيه اللى هانسفه بحتة عبوة زى دى..؟!.. دى
يادوب آخرها توقع بياض حيطة..
- وسعادتك عاوز توقع بياض حيطان المصنع..؟..
- (يضحك): هه هه هه هه هه هه..
-
- هه هه.. إسمعى بس.. أنا هاشرح لك كل حاجة..

- زى ما قلت لك يا أخ (نعمان).. مش انا اللي يضحى بولاد بلده وياكل حقوقهم.. ده النبى صلى الله عليه وسلم قال (أعط الأجير حقه قبل أن يجف عرقه).. ورغم إن الحكومة هى اللي كلت حقوقكم، إلا إنى ألزمت نفسى بيها..

بس برضه زى ما قلت لك.. قيمة الأرباح والمكافآت المستحقة ليكم عن السنين اللى فاتت تزيد عن عشرين مليون جنيه.. وصعب عليا أوى ف المرحلة دى إنى أسدد مبلغ زى ده.. والأصعب إنى أقنع الشركاء الأجانب بالسداد أصلاً.. وعشان كده فكّرت ف فكرة كويّسة أوى..

كل يوم بييمز والإضراب مستمر.. باخسر فلوس أكثر.. وبالتالي دفع المستحقات هابتأخر أكثر.. فالحل إن الإضراب يخلص عشان عجلة الإنتاج تدور ونعوّض الخسائر وابدأ فى السداد.. بس إخوانا العمال رافضين إنهم يفضّوا الإضراب.. واكثر من مرّة أخونا الباشمهندس (عادل) والأستاذ (حسين مغاورى) حاولوا يقنعوا الرئيس (حمدى) بالحل ده، لكن كان متعنّت جداً.. ورفض أى حل غير إننا نسدد المبالغ فوراً.. وده طبعا ف الظروف دى مستحيل.. ده غير إنه لوى دراع.. وانا محدش يلوى دراعى..

العبوة الناسفة دى تأثيرها محدود جداً.. يعنى مش هاتسبب أى أذى لأى حد.. بس انفجارها هيسمح لقوات

الأمن إنها تدخل المصنع وتفض الإضراب بالقوة.. لأن كده بقى فيه تهمة إتلاف ممتلكات خاصة.. وبمجرد ما الإضراب ينتهى.. هابدأ صرف دفعات من مستحقات العمال تزيد مع زيادة إنتاج المصنع.. وربنا يكرم إن شاء الله..

لم يتمالك نفسه.. هب واقفاً..
- إنت فاكرنى إيه..؟..
- (بغضب): إيه ده يا أخ (نعمان)..؟.. إنت اتجننت..؟..
- (ثائراً): بلا أخ بلا اخت.. وعقال تقوللى قال الله وقال الرسول..؟.. روح يا شيخ الله يخرب بيتك..
- اقعد بس و اسمع..
- أسمع إيه و أنيل ايه..؟.. عايزنى نخون زملاتى ونوديهم ف داهية وتقوللى أسمع..؟!!.. ياخى (أ...)..
- مين قال هايروحوا ف داهية..؟.. بالعكس.. دانت كده بترحمهم م العذاب اللى هما فيه..
- إنت شايفنى داقق عصافير..؟!!.. بقى لقا البوليس ييجى يمسكنى أنى والزجالة ويرمونا ورا الشمس..
نبقى كده بنرحمهم م العذاب..؟.. يا راجل خاف ربنا..
- مانت لو قعدت وسمعت هاتفهم..
- مش عايز نفهم.. أنى ماشى..
- (بسرعة): بمجرد ما الإضراب ينتهى انا هاسحب البلاغ اللى هاقدّمه ضد العقال باتهمهم فيه بإتلاف الممتلكات.. أقسم بالله العظيم ماهايبيتوا ف الحجز

أكثر من ليلة أو ليلتين بالكثير.. وبعدها هاخرجوا ويرجعوا شغلهم تانى ويصرفوا مستحقاتهم.. أما انت فالبوليس مش هايقرب منك من أساسه.. أنا ليا علاقات كويسة ف الداخلية.. وهاوضى إن محدش يتعرض لك.. - ولا نصدق حرف م اللى بتقوله..

- (يعقد حاجبيه): عيب أوى لقا تكذبنى يا أخ (نعمان).. أنا مش عيل صغير عشان أدى كلمة وارجع فيها.. وبعدين عمال المصنع دول ولادى.. شفت قبل كده أب بيفرط ف ولاده..؟..

يدخل (حسين مغاورى) فى هذه اللحظة ممسكاً بهاتفه المحمول فى يده..

- أنا لسه قافل مع المستشفى دلوقت.. العملية بكرة إن شاء الله.. ومنتظرين الست جماعة الاسطى (نعمان) النهاردة عشان يعملولها التحاليل والتجهيزات قبل العملية..

أشار له الحاج (صالح) قائلاً بحزم:

- روح انت استنى الأخ (نعمان) ف عريبتك عشان توصل معاه وتنقل جماعته المستشفى دلوقت.. - أمرك يا حاج..

قالها وانصرف، فى حين التفت الحاج إلى (نعمان) وناوله رزمة من الأوراق النقدية، قائلاً بهدوء:

- خد دول يا أخ (نعمان) عشان المصاريف.. دول طبعا غير فلوس العملية اللى (حسين) هايسدها كلها وانتوا واقفين.. إتفضل انت دلوقت خلص موضوع جماعتك

واطمن عليها.. وبعدين تاخذ الصندوق وتعمل اللي اتفقنا عليه..

حاول (نعمان) أن يعترض، ولكن تخاذله هذه المرة كان واضحاً، ففس الحاج النقود فى يده قسراً وقال:
- أنا حَلَفْتُكَ إني هاسحب البلاغ، وإن الرجالة مش هايقعدوا ف الحبس غير يوم والا اتنين بالكثير إن شاء الله.. بعد كده يرجعوا الشغل ويصرفوا مستحقاتهم.. ومش كده وبس..

ومال نحوه مستطرداً: - دانت هاتبقى الرئيس الجديد بتاعهم..

تمتم (نعمان) بكلمات غير مفهومة لم يكثر لها الحاج وقد تيقن من فوزه فى معركة الإغواء، فجذبه من ذراعه قائلاً:

- تعالى بقى أما أعلمك تشغل العبوة ازاي..

فتح الصندوق.. أخرج العبوة.. تأملها فى الضوء البسيط القادم من الفرجة أسفل البوابة القريبة.. إناءان مملوءان بسوائل مختلفة متصلان بصمام معلق به ساعة ميكانيكية بسيطة ..

ببراعة راح يثبت العبوة بجسم البوابة.. مد أصابعه إلى ذلك الزر بجانب الساعة ليضغطه.. أصوات الضحك والثرثرة والشتائم البذيئة القادمة من الفناء الخارجى لا تنقطع.. تصلبت أصابعه فى الهواء.. شعر بوخز فى قلبه.. إستعاد ذهنه صور رفاق عمره وزملائه.. لثوان

ظل جامداً فى مكانه والذكريات تتوالى أمام عينيه..
للحظة قرر أن ينهض حاملاً العبوة ليعود بها إلى الحاج
(صالح) فيلقياها فى وجهه.. أو لربما فجّرها فى فيلته..
غير أن مشهد زوجته الممددة على فراشها وقد هزل
جسدها واصفرّ وجهها وامتلاً بالألم.. هذا المشهد قفز
أمام عينيه لينازع بقيّة الذكريات.. تقلّصت ملامح وجهه
إزاء هذا الصراع الدائر فى أعماقه.. إرتعش جانب فمه..
لمعت عيناه بالدموع..

لازم جراحة استئصال قبل الورم ماينتشر..
خمسة عند الدخول و الباقي بعد العملية إن شاء الله
..

الدقائق تمرّ.. الموعد المتفق عليه يقترب..
خد دول يا أخ (نعمان) علشان المصاريف.. دول طبعاً
غير فلوس العملية اللي (حسين) هايسدها كلّها وانتوا
واقفين..

هنا.. سمع صوت صرير باب الممر المؤدى إلى دورات
المياه إذ يفتح ليخرج منه أحدهم.. خفق قلبه من
الرعب.. لو رآه القادم فى هذا الوضع لكانت نهايته..
ساعده الظلام الدامس على الاختفاء.. لا يدري كيف
ولا متى امتدّت أصابعه لتضغط زر المفجر..

من مخبأه راح يراقب القادم.. هذه القامة المتينة
المدكوكة والرأس شبه الأصلع و.. إنّه (عقار).. لا بد أنّه
كان يتوضأ استعداداً لأداء صلاة الفجر..

تحرك مبتعداً بخفة عندما شعر بساقه ترتطم - فى

الظلام - بشي بارز و..

كرييييييك...

بيده كتم صيحة ألم كادت تفلت من فمه.. (عقار)
متوقف فى مكانه.. يردد بصوت مبحوح وجل:

- ميين..؟..

تمر لحظات ثقيلة من الصمت المخيف.. بغتة تغمر
الإضاءة الشاحبة المكان.. يقف شعر ذراعيه من الرعب..
يتحزك مبتعدا وهو يعرج.. يختبئ خلف ماكينة قريبة..
من بين مراوح الماكينة يرى (عقار) يدور حول الغلاية..
يلاحظ الجسم المثبت إليها.. ينحنى نحوه..

وهنا خفق قلب (نعمان) بعنف.. ألقى نظرة هلعة على
ساعة معصمه.. فتح فمه ليهتف بصديقه أن يبتعد
عندما..

بروووووووووم

العبوة الناسفة دى تأثيرها محدود جداً.. يعنى مش
هاتسبب أى أذى لأى حد..

لوهلة.. توقف الزمن بالنسبة له.. طنين غريب ملاً
أذنيه، وحجب عنهما أية أصوات.. سحب الغبار تملأ
القاعة.. ورغم ذلك فالسنة النيران تتبدى بوضوح من
بينها..

زحف بوهن على أطرافه الأربعة نحو الجسد النازف
الممدد أمامه.. الغبار يملأ أنفه و فمه.. يسعل.. يرى
أشخاصاً يهرعون نحوه.. يلتقون حوله.. يميز وجوه
وأجساد زملائه.. يسمع كلامهم وكأنه قادم من أعماق

سحيفة..

- إيه اللي جرى...؟..

- هيببييه (شهقة)..

- (عقار).. (عقارارار)..

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

- ياخوانا ده لسه عايش..

- حد يطلب الإسعاف ياخوانا..

عيناه مثبتتان على جسد (عقار) المسجى أمامه..
السجاجات تملأ وجهه وجسده.. النيران مشتعلة فى
ملابسه (قبل أن يطفئها الرجال).. وذراعه.. ذراعه
ممزق مهترئ تماماً.. الدماء تتدفق منه بغزارة شديدة..
(عاشور) يمزق قميصه بهيستريا.. يحاول أن يربطه
حول ما تبقى من الذراع ليووقف النزف.. لو أراد الله
وعاش (عقار)، فسيفعل بذراع واحدة.. لقد صار أكتعاً..
- (عقارارارارارار)..

لم يدر بنفسه إلا وهو ينفجر فى البكاء والعويل
كالثكالى.. يلقى بجسده على جسد رفيق عمره.. يصرخ
باسمه مراراً.. الرفاق يحاولون إبعاده ولكنّه يتشبث به
بكل قوته..

هتف (طحلاوى) وهو يحاول شدة:

- يا (نعمان) حرام عليك الراجل كده هايموت منك..

- (عقارارارارار)..

يسمعهم يتساءلون بحيرة عقار حدث.. ينظرون بدهشة
إلى جسم الغلاية الذى تفحم و تناثرت أجزائه بفعل

الانفجار.. ترى هل سيعرفوا..؟.. ولو عرفوا.. ماذا سيفعلون بي..؟.. و(عقار)..؟.. هل سينجو..؟.. هل سيسامحني..؟..

- (عقار!!!!!!!!!!!!!!)...

الرئيس (حمدي) ينحني على الأرض.. يلتقط شيئاً ما.. يتفحصه.. يرفعه أمام الأعين المذهولة..
- ساعة..؟؟!!..

كذا تساءل أحد الرجال..

- إيوة ساعة..

- بس الغلاية ماكانش فيها ساعات..!!..

نهض الرئيس (حمدي) قائلاً بحزم:

- الساعة دي كانت متركبة ف القنبلة اللي خربت الغلاية..

ساد الوجوم بين الجميع عقب قوله لثوان، قبل أن يردد أحد الرجال بذهول:

- قنبلة..؟؟!!..

وتساءل (عاشور):

- مين اللي هايركب قنبلة ف الغلاية..؟.. وليه..؟؟!!..

لم يكذ يتم تساءله حتى أدرك الجميع الجواب..

أدركوه عندما سمعوا أصوات الصيحات القويّة القادمة من الخارج..

عندما رأوا الأردية السوداء والأحذية العسكرية الثقيلة تملأ القاعة والمصنع كله..

عندما هوت الهراوات وكعوب البنادق على رؤوسهم

وأجسادهم..

عندما لظخت دمائهم جدران القاعات التى أفنوا فيها
أعمارهم..

عند هذه النقطة توقفت عن الكلام، وانخرطت فى بكاءٍ
حار.. بالواقع منعت نفسى بصعوبة من البكاء أنا
الأخرى.. مزيج غريب من مشاعر الغضب والشفقة
والحزن والترقب يصطرع فى أعماقى.. هل أخطأ
(نعمان)..؟!.. نعم بالتأكيد.. ولكن.. يسهل على إطلاق
الأحكام بينما أجلس رائقة البال خالية من الهموم.. ماذا
كنت سأفعل أو ستفعل أنت يا دكتور (حازم) لو كنا فى
موضعه..؟!.. سأكون كاذبة لو قلت أننى لن أخون.. لا
أدرى.. لقد فقدت زوجى وطفلى.. وأفهم جيداً ذلك
الشعور بالعجز وأنت ترى أحبائك يغادرون الدنيا، وأنت
واقف تنظر بلا أدنى قدرة أو حيلة.. لقد أحكم السفلة
حصارهم حوله حقاً، واستغلوا حاجته ومرض زوجته
أقذر استغلال..

لم يقض وقتاً طويلاً فى الحجز.. قبل أن ينتصف
اليوم.. تم إخراجه من الزنزانة.. وجد (حسين مغاورى)
ينتظره فى غرفة البك الضابط.. غادر القسم معه،
واستقلا سيارته..

- طب وبقية الرجالة يا (حسين) بيه..؟!..

- الليلة هايباتوا فى بيوتهم إن شاء الله يا (نعمان)..

- طب وماخرجوش معنا ليه..؟..
- مش بالسرة دى يا أخی.. الحاج (صالح) الله يكرمه
- كلم معارفه علشان يخرجك انت دلوقت حسب اتفاقنا
- علشان تروح تشوف مراتك فى المستشفى.. ألف مبروك
- على فكرة..
- (تتلاحق أنفاسه): هى.. العملية.. ال...؟..
- (مبتسماً) : حصل.. أنا لسة مكلم المستشفى..
- الدكتور (هشام مدكور) طقنى إن العملية تمت بنجاح..
- والمدام دلوقتى ف غرفة الإنعاش..
- (تظفر الدموع من عينيه): الحمد لله.. الحمد لله..
- ألف حمد لله ع السلامة يا (نعمان)..
- (بتأثر): الله يسلمك يا بيه.. كتر ألف خيرك وخير
- الحاج.. (ثم بقلق).. بس بقية الرجالة.. هايخرجوا
- إمتى..؟..
- سيب الموضوع ده علينا احنا بقى.. المهم انت
- دلوقت تروح تظمن على الجماعة ف المستشفى.. الحاج
- مسدد المصاريف كلها لغاية مالداكاترة يكتبوا لها على
- خروج.. وطبعاً مش محتاج اقوللك إن إتفاقنا لازم
- يفضل سر محدش ياخذ خبر بيه..

مضت الأيام دون أى خبر عن الرجال.. إطمأن إلى
خروج زوجته وعودتها بأمان إلى دارها.. حاول مراراً
الإتصال بـ (حسين مغاورى) على هاتفه المحمول دون
رد.. إستقل توك توكاً إلى البز القبلى.. وجد بؤابة

المصنع مغلقة.. دار حول السور.. تمكّن من التسلل عبر فتحة يعرفها جيداً.. المصنع خالٍ تماماً.. ليس به صرّيح ابن يومين كما يقولون..

الماكينات محترقة تماماً.. ليست الغلاية الكبرى فقط.. الكل محترق.. بعضها ملئ بثقوب طلقات البنادق.. أقسم بالله العظيم ماهايبيّتوا ف الحجز أكثر من ليلة أو ليلتين بالكثير.. وبعدها هايخرجوا ويرجعوا شغلهم تانى ويصرفوا مستحقّاتهم..

ها قد مضى إسبوعين يا حاج.. لم يخرج الرجال من محبسهم، ولم يعودوا إلى أعمالهم كما أقسمت.. هل تراجعت عن وعدك أم أنّك كنت تلعب بى من البداية..؟..

أثار الخاطر جنونه.. غادر المصنع ، وهرع ليستقلّ أوّل ميكروباس إلى (العجمى).. ظل يطرق البوّابة الخارجيّة لفيلا الحاج (صالح) بعنف حتّى خرج إليه حارس ملتج ضخم الجثة صاح به:

- إيه الدوشة اللى إنت عاملها دى يا أخينا انت..؟..
عاوز ايه..؟..

قال بصوت متهدج من المجهود والإنفعال:

- عاوز نقابل الحاج (صالح)..

- (بخشونة): الحاج مش موجود دلوقت.. إبقى تعالى وقت تانى..

- نستئوه لقا يعاود..

- مش هايعاود النهاردة.. ده مسافر ومش راجع قبل

شهر..

- مسافر فين..؟..

- مش شغلك.. واتفضل بقى وزبني عرض كتافك..

- آنى مش ماشى من هنا غير لقا نقابله.. آنى عارف إنه

جوه.. ولازمن ندخله..

- (بغضب): لااه.. إنت باين عليك الذوق مش نافع

معاك.. (يدفعه أمامه) .. ياللا غور من وشى قبل ما

أطلبك البوليس..

«نسألك يا من هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن

الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن الع...»

نظرت إلى شاشة هاتفى المحمول.. أشارت لى

(إخلاص) لأقف فى الشرفة الضيقة للحصول على

استقبال أفضل للصوت ففعلت..

- خيراً يا (ميخائيل)..

- الأستاذ (أنسى فيلمون) من توكيل (تى بى

كلاسيك) إتصل بى يا ريسة منذ دقائق.. يريد إستغلال

برنامجنا الجديد فى بث دعاية إعلانية لمنتجاته..

- لماذا لم يتصل بالمحطة..؟..

- (بلهجة خاصة): الرجل قريبي يا ريسة، ويريد عمل

بعض البيزنس بعيداً عن المحطة.. أنت تعلمين أن أحد

شروط التعاقد بيننا وبين المحطة هو حصولها على

النسبة الأكبر من أى تعاقد على مواد إعلانية ودعائية

نجلبها للبرنامج و..

- هذا كلام لا تصلح مناقشته على الهاتف أيها الذكي..
- مر على في المكتب عند عودتك لتناقش..
- أمرك يا ريسة..
- كيف أخبار العمل..؟..
- تمام..
- لا تنس أن تتصل بي في حال حدوث أى شئ..
- بالتأكيد..
- أنهيت المكالمة وعدت إلى (إخلاص)..
- أنى طبعاً كنت ف حال غير الحال.. ف يوم من دى الأيام لقيته داخل عليا بيقوللى ياللا هاتدخلى المستشفى وتعملى العملية.. مين يا (نعمان) يرد ويقوللى ربنا مايبسيبش حد.. ماخبيش عليكى يا ست هانم.. أنى كانت حالتى صعبة أوى.. ماناكتش معاه كثير.. رحت المستشفى اللى ف (سموحة).. نضافة إيه وأبهة إيه.. المهم.. عملولى العملية.. فقت لقيت (نعمان) جنبى.. والداكتور بيقوللى مبروك.. قعدنا أد ما قعدنا ف المستشفى وزجعنا البيت..
- وف الفترة دى ما جابش سيرة اللى حصل ف المصنع..؟..
- مزة واحدة سألته عملتوا إيه ف المصنع يا (نعمان)، فرد عليا وطمننى إن الإدارة وافقت تصرف للعقال حقوقهم..
- ولقا رجعتوا البيت..؟؟..
- لقا رجعنا وابتديت نفوق لنفسى، لاحظت إن حاله

اتقلب.. سرحان ومهموم على طول.. ساكت
مايبتكلمش، واللقمة بياكلها بالعافية.. وبظل ينزل
الشغل.. فَصَلت وراه إني نعرف ماله.. مفيش فايدة..
قاللى إنه مربوط مع الرئيس (حمدي) على أجازة كام يوم
كده لغاية ما يطمئن عليا.. قلت له طب أنى عايزة نزور
(محفوظة) مرات (عقار).. زى مايكون شاف عفريت..
إتجنن وزعق فيا.. ليه يا (نعمان)..؟.. ضرب لخمه..
ماعرفش يرد.. وبعدين راح قايللى هيا يعنى كانت جت
سألت عليكى وانتى ف المستشفى..؟.. الخلاصة علشان
ماطولش عليكى يا ست هانم.. جه ف يوم وخرج.. غاب
طول اليوم.. ورجع ع العشا مضروب وعينه وارمانة..
إتخضيت.. مين اللى عمل فيك كده ياخويا..؟.. قاللى
الحزاس اللى ف فيللا الحاج (صالح) صاحب المصنع..
وفجأة لقيته بيعيط زى العيّل الصغير، وحكى لى ع اللى
حصل ف المصنع، والاتفاق اللى كان بينه وبين الحاج
(صالح) ربنا ينتقم منه..

- يعنى ماعرفش يقابل صاحب المصنع..

- لا صاحب المصنع ولا الكلب اللى اسمه (حسين
مغاورى).. ومن ساعتها وهو بعيد عنك راكباه
العفاريت.. طول ماهو قاعد بيكلم نفسه.. عقال
يستسمح ف زملاته.. جبت له الشيخ (ابراهيم) رقيه
وبخره مفيش فايدة.. لغاية ما ف يوم خد ف وشه
وهج م البيت..

- راح فين..؟..

إنهمرت دموعها من جديد وهى تقول:

- سارح ف الشوارع بيكلم نفسه.. يفضل طول النهار
يلف بحرى على رجليه.. ينده على (عقار) و(عاشور)
والرئيس (حمدى).. وييجى آخر الليل ينام ف أى حِثَّة..
ناس كتيرة شافوه وحاولوا يرجعوه بيته ماعرفوش..
قالتها وعادت تبكى بحرارة.. فى هذه المرّة لم أستطع
أن أمنع نفسى.. أخرجت منديلاً ورقياً من حقيبتى وأنا
أهبط درج البناية.. مسحت دموعى وارتديت منظارى
الشمسى، بينما كلماتها الضارعة تتردد فى ذهنى:

- سايقة عليكى النبى يا ست هانم.. لو تعرفى سكة
تخرجى بيها الرجالة من حبسهم من غير ما تجيبى
سيرة (نعمان) يبقى كثر خيرك.. كفاية اللى صابه..
داحنا غلابة واتلعب بينا والله..

الله أكبر.. الله أكبر..

جغرافياً يقع جامع (القائد إبراهيم) فى حى
(الأزاريطة)، ولكنّه ارتبط عندى بـ (محطة الرمل)
المجاورة له.. وكالعادة يسبق جميع مساجدها فى تلاوة
الأذان..

برغم أنّ الساعة لم تتجاوز الثالثة عصراً، إلا أن الشمس
كانت محجوبة تماماً بغطاء كثيف من الغيوم الرمادية..
غيث خفيف بدأ يتساقط من السماء.. من الواضح أنّها
نوة عنيفة بالفعل..

أشهد أن لا إله إلا الله..

واقفة على الكورنيش أَدخَن سيجارة.. سرحت قليلاً
وأنا أتأمل الأمواج العالية، ومراكب الصيد من بعيد
تجاهد للعودة إلى الميناء قبل أن تشتد العاصفة ..
أشهد أن محمداً رسول الله..

برغم نُذْر النّوّة إلا أنّ شارع البحر المبتل مكتظ
بالسيّارات والمارة والباعة الجائلين وأسراب العشاق
المتناثرين على سور الكورنيش.. نداءات الباعة
والميكروباصات لا تتوقف.. بينما على الجانب الآخر من
الطريق تتراص الكافيتريات السياحيّة أسفل البنايات
القديمة رائعة المنظر المنتشرة على طول الكورنيش..
حتى على الصلاة..

لَكُمْ عشقت هذا المشهد الملحمى الرائع الذى تمتزج
فيه الأصوات بالألوان والروائح والرياح المتطاير القادم
من البحر.. لوحة نادرة تأملتها مراراً وحدى وبصحبة
(مجدى) أثناء خطبتنا وبعد زواجنا.. كان مصوراً عاشقاً
للجمال، وكان يرى أن عشرات الصور والكادرات لا
تكفى لإبراز روعة ميدان (سعد زغلول) والكورنيش
المواجه له..

- ليس الموضوع تناسقاً للألوان أو النسب.. إنه سر
يكمن فى روح المكان ذاته.. الروح التى تتداخل فيها
الألوان والأشكال والأصوات والوجوه والأغاني وزخّات
مياه البحر ورائحة اليود.. الروح التى تحمل تاريخاً
طويلاً وذكريات قديمة مطبوعة على الأرض والبحر
والهواء.. إنها الحياة..

كذا سمعته يردد ذات يوم بينما نحن مستندين إلى
سور الكورنيش نلتهم حبات الترمس أو سندويتشات
الفول و الفلافل من (محمد احمد)..

- الأمر يفوق قدرة أى مصوّر أو رسّام أو كاتب.. فقط
كاميرا السنيما هى التى تستطيع إحتواء هذا الزخم من
الجمال..

حتى على الفلاح..

كنت مبهورة بهذا المزيج العجيب من الشاعريّة
والواقعيّة فى شخصيته.. فتارة هو الفنان الرقيق
الحساس.. وتارة هو الصحفى الجاد قوى الشكيمة
والذى يقود كتيبة كاملة من الصحفيين فى الجريدة
بقبضة من حديد.. فى الواقع كانت هذه الروح هى التى
جعلتنى أنجذب إليه أثناء المرحلة الجامعيّة، وأذكر أنّ
نوعاً من التنافس على قلبى إشتعل بينه وبين (بشير
الهلالى) طالب الحقوق الشاب، وصاحب الميول
السياسيّة الناصريّة التى جلبت على رأسه الكثير من
المشاكل.. كلاهما شاب ومتحمّس وصاحب شخصيّة
جذّابة -على اختلاف ميولهما- وفوق كل ذلك كانا
يحبّانى.. غير أنّى وجدت نفسى -فى النهاية- أميل
إلى (مجدى) الفنان صاحب الروح المرهفة.. دعك من
أنّ (بشير) كان يغادر المعتقل ليعود إليه مرةً أخرى،
وانتهى من دراسة الحقوق فيما لا يقل عن التسع
سنوات..

- أنت تملك الحماس والإخلاص يا (بشير).. ولكنّك

تسلك الإتجاه الخاطئ..

فيسأله (بشير) محققاً بلكنته الريفية قليلاً:

- كيف ذلك أيها الفيلسوف..؟..

يتجاوز (مجدى) أسلوبه العصبى ويجيب بهدوء:

- الثورية التى تنادى بها دوماً فى الندوات والمقالات

لن تؤدى إلا إلى فوضى مدمرة.. المجتمع المصرى الآن

محتقن بالفعل لأسباب لا تخفى على أحد، وتُذر الانفجار

تتوالى، والتمن سيكون دموياً بحق.. فهل نسعى مع كل

هذا إلى التعجيل بالكارثة، أم نبذل جهودنا لتلافيها..؟..

- (بسخرية عصبية): وماذا تقترح..؟..

- (يرفع سبابته): لا حل سوى الإصلاح.. الإصلاح من

أسفل إلى أعلى..

- (بحدة): وأنا أقول لك أن الإصلاح غير وارد طالما

الفاستدين واللصوص والحثالة على كراسيهم ويمسكون

بالبلد من عنقها.. ألا تعلم أيها العبقري أن تنظيف الدرج

يبدأ من الأدوار العليا إلى الأدوار السفلى..؟..

- (بهدوء): وبناء الهرم يبدأ من القاعدة إلى القمة.. لا

تنس ذلك..

الله أكبر.. الله أكبر..

بعد رحيله.. كنت كثيراً ما أترك سيارتى وأستقل الترام

كما كنا نفعّل، لأقف بالساعات فى ذات الموضع.. أغوص

بكيانى كله فى ذكريات الماضى الدافئة.. أكاد أراه

أمامى يرفع يثبث الكاميرا إلى الحامل الخاص بها.. أو

يرفع أصابع يديه أمام وجهه مستخدماً إبهاميه

وسببائه كإطار ليحدد به كادراً ما أثار إعجابه.. أسمع
يهمس فى أذنى بكلمات دافئة يخفق لها قلبى، بينما
أصابه تحتضن أصابعى.. و.. و..
تسألنى لماذا قَدِمْتَ إلى محطة الرمل يا دكتور
(حازم)..؟.. لأقابل الرئيس (فتح الله) بالطبع..

وضعت الفتاة الشابة صينية القهوة على المنضدة
أمامى قائلة بتهذيب:

- إتفضلى ..

- (مبتسمة): شكراً..

- العفو..

- متشكرين يا (عزة) يا بنتى..

قالها الرئيس (فتح الله) شاكراً وهى تنصرف، ثم التفت
إلى ونهض يناولنى الفنجان الذى يتصاعد منه البخار
زكى الرائحة قائلاً:

- من ساعة ما حصل اللى حصل وأنى مش قادر نورى
وشى للناس..

شكرته وتناولت رشفة من القهوة متسائلة:

- ليه يا ريس (فتح الله) ..؟..

جلس على المقعد المقابل لى قائلاً بمرارة:

- لأنى طلعت ريس كرودية.. ريس هفأ.. خدتنى
المريسة وازاى وازاى بقى نسمعو كلام (حمدي) واللا
(عاشور) واللا أى حد من العقال اللى أنى ريس عليهم
..؟.. وسبت شوية ولاد كلب يلعبوا بيا وباللى خلفونى

الكورة..

- يعنى العقال ف المعتقل دلوقت يا حاج..؟..

- ربنا يفك أسرهم..

- أى معتقل بالضبط..؟..

- الله أعلم..

وصمت لحظة ثم استطرد:

- عارفة يا بنتى أنى إيه أكثر حاجة مزعلانى..؟.. إنى

من بعد ما عرّفت إن اللجنة النقابية إتخلت عنّا جالى

الضغط ودخلت المستشفى وكنت هانروح فيها.. كانوا

إخواتى وزمايلى عاملين الإضراب ف المصنع ومطلعين

عين أم الإدارة، وأنى راقد ع السرير مشلول مش عارف

نتحرك.. مش عارف نروح لهم ونفضلو معاهم ف

وقفتهم..

وعاد يصمت للحظات ليلتقط أنفاسه.. إرتشفت من

القهوة، وتأمّلته.. كهل فى الستين من عمره.. شارب

أبيض كث.. التجاعيد تملأ الوجه.. جلاباب بسيط فوق

جسد نحيف.. أما العينين فباهتتين مغرورقتين

بالدموع..

- أنى حاولت نسأل ف مديريةة الأمن.. الضابط الكبير

اللى هناك شتمنى وقاللى الموضوع كبير واحسن لى

أبعد واربى عيالى بدل ماتلط..

-

- إلا يا بنتى ماتعرفيش تكلمى لنا حد نعرفو منه خدوا

الرجالة على فين..؟.. دى حالة أهاليهم تصعب ع

الكافر..

- (متجاهلة سؤاله): طب وقابلت (نعمان) إمتى..؟..
إلتقط نفساً عميقاً وقال:

- (نعمان) غاب مع اللي غابوا.. شهر كامل مانعرفش
عنه ولا عن زملاته أى حاجة.. لغاية ما لقيته جاي لى
البيت.. فَرَحْت.. خدته ف حضنى.. سألته خرج إزاي
وان كان لوحده والا معاه بقية الرجالة.. قعد يبكى..
إيه اللي جرى يابنى..؟.. حكى لى الحكاية الطويلة اللي
سيادتك عارفها..

إستئبته لقا خَلَص حكايته.. وتَفَيْت ف وشه وضربته
قلمين، وطرده.. كنت هنتجّن.. بقى انت يا كلب يا
وسخ اللي ضيَعت زملاتك اللي طول عمرك آكل شارب
نايم معاهم.. لا حول ولا قوّة إلا بالله.. بينى وبينك..
لقا هديت وقعدت نفكر ف كلامه ضعب عليا.. ولاد
الكلب عَرَفُوا يستغلّوا عيا مراته ويضحكوا عليه..
ومين عارف لو آنى أو أى حد م الرجالة كئا ف مكانه
كئا هانعملوا إيه..

- بس مين اللي حرق باقى مكن المصنع..؟.. مش
الإدارة طلبت منه إنه ينسف غلاية واحدة بس..؟!..
لم يجب.. نهض إلى بوفيه خشبى عتيق جداً.. فتح
أحد أدراجه وأخرج منه صحيفة مهترئة.. تناولتها منه..
عدد قديم هو من صحيفة (الجمهوريّة).. وجدت
دائرة مرسومة بقلم حبر أحمر على أحد الموضوعات..
- هذا وقد أكّدت التحقيقات أنّ التخريب الذى قام به

العمال المتمردون قد شمل جميع ماكينات وأجهزة
المصنع باعتراف العقال أنفسهم وذلك كنوع من الضغط
على إدارة المصنع لإجبارها على صرف بعض
المستحقات المالية التي يرونها -العقال- من حقهم..
وأعلن السيد (مراد شلبي) مدير التحقيقات بشركة
(مصر للتأمين) أنّ فريقاً من موظفي الشركة يقوم بعمل
حصر للخسائر والأضرار التي أصابت الماكينات توطئةً
لتقدير مبلغ التأمين المستحق، الذي ستمنحه الشركة
لملاك المصنع..

تساءلت بدهشة :

- الإدارة هي اللي حرقت المكن...؟!..

- ولاد الكلب الحرامية ضربوا عصفورين بحجر..
إتخلصوا م الغلابة اللي بيطالبوا بحقوقهم، وهبروا مبلغ
التأمين..

- بس هقا كده بيخسروا كتير.. لو حاولوا يبدأو من
جديد هايلاقوا أسعار المكن إرتفعت جداً ومبلغ التأمين
ممکن ما يغطيهاش..

- ويبدأوا من جديد ليه..؟!.. ما خلاص كدة المصلحة
خلصت..

- إزاي..؟!..

- هوّا ده بقى العصفور التالت..

- عصفور...!!!..

- إيوة يا بنتي.. الشركا المصريين والأجانب لقا اشتروا
المصنع م الحكومة، خدوا معاه إعفاءات ضريبية

وجمركية لمدة عشر سنين يخلصوا بعد ٣ شهور..
فضلوا يشتغلوا ويصدروا ويكسبوا طول الـ ٩ سنين اللي
فاتوا من غير ما يدفعوا مليم للضرائب والجمارك.. ولما
مدة الإعفا قرّبت تخلص خلاص فكروا انهم يخلعوا م
الموضوع كله بدل ما يدفعوا فلوس أد كده للحكومة..
وجت لهم حكاية العقال ع الطباطاب..

والتقط نفساً عميقاً ثم أضاف:

- دلوقتي يقدرنا يخلعوا بالأرباح اللي حققوها ومبلغ
التأمين زى الشعرة م العجين..

- (بذهول): معقولة..؟؟!!... طب فين الحكومة والنيابة
والتحقيق..؟؟!!..

- (بسخرية مريرة): خبر ايه با بنتى..؟؟.. هو انى برضه
اللى هانقولك..؟؟.. ما حضرتك أكيد عارفة إن الحكومة
مش نايمة على ودانها وعارفة كل حاجة.. بس الدنيا
مصالح يا عم صالح..

سألته وأنا أتأهب للانصراف:

- تعرف الباشمهندس (أحمد خشبة) يا حاج (فتح
الله)..؟؟..

- (يصمت للحظات): مش واخد باللى ولا مؤاخذة يا
ست هانم.. ده كان معانا ف المصنع..؟؟..

- لا.. ده مهندس معمارى مش ميكانيكى..

- (بعد تفكير): لا والله يا بنتى ما فتكرش إنى نعرفه..
أصلى آنى طول عمرى م البيت للمصنع وم المصنع

للبيت.. ومنعرفش حد غير زملاتى اللى ف المصنع ربنا
يفك أسرهم..

د. حازم أبو زيد

إنه الغروب.. أعلم أنك تأخرت كثيراً، ولكنني لا أطلب منك سوى ساعة أخرى يا صديقي.. لا تقلق.. طبعاً سأساعد كثيراً لو شرفتنى بالمبيت فى منزلى المتواضع، ولكنني لا أريد أن أسبب لك أية ضغوط أو مشاكل.. القارب الذى أقلك من (الإسكندرية) إلى هنا موجود وجاهز ليعيدك إليها متى شئت..

لا أخفى عليك.. فى أول جلساتي مع الباشمهندس (أحمد خشبة) لم آخذ أمره مأخذ الجد.. فقط جلست منصتاً إليه مجاملةً لابنتى (آية) التى طلبت منى أن أفعل بناءً على طلب معيذتها السابقة مدام (أمل الشافعى) كما سمعت منذ قليل على التسجيل الصوتى.. فى البدء بدا لى شاباً عابثاً يبحث عن إثارة لم تمنحه إياها ثروة والده.. وفى أعماقى كنت أنوى إلقاء الموضوع خلف ظهري بعد انتهاء أول جلسة ..

غير أن القصة بدأت تشدنى رويداً رويداً.. كانت على قدر كبير من المنطق.. برغم غرابة هذا المنطق..

ثم تلك التراجيديا المأساوية التى سمعتها من كليهما - (أحمد) و (أمل) - عن تمرد العقال والمؤامرة القذرة التى انتهت بهم إلى المحاكمة العسكرية فالمعتقل ولا شئ سواه.. كل هذا يصعب أن يكون مجرد تلفيق على سبيل الدعاية مثلاً أو قتل وقت الفراغ..

إنتابتنى حيرة شديدة إزاء هذه القضية الغامضة..

برغم أن عملى الفعلى هو الطب النفسى، إلا أننى أعتبر التحليل النفسى هو عشقى الأول والأخير.. أجد متعتى فى ممارسته والتنقل بين أساليبه ومدارسه المختلفة.. ورغم قلّة عدد الحالات التى مارست معها أساليب التحليل النفسى، إلا أننى أزعّم أنها أكسبتنى خبرة لا بأس بها فى هذا المجال..

عندما سمعت القصة للمرة الأولى من (أحمد)، فكّرت فى أنّ الأمر لن يعدو كونه وساوس.. صحيح أنه لم يبد على الشاب أنه من النوع الهستيرى الفهيا لإختلاق الأوهام.. كلامه مئزن وممنطق إلى حد كبير.. ولكن..

من قال أنّ الهستيريا ضرورية لإختلاق الوهم..؟.. التفاعلات النفسية التى تجرى فى ثنايا العقل معقدة جداً.. وأغلبها لا ندرى عنه شيئاً.. هل شاهدت فيلم (fight club)؟.. لا..؟.. فى هذا الفيلم عانى البطل من ضغوط نفسية واجتماعية هائلة يعانى منها المجتمع الغربى كله.. وكرد فعل دفاعى.. إبتكر عقله شخصية وهمية جعله يراها أمامه رأى العين، ومنح هذه الشخصية جميع الصفات الإيجابية التى يفتقر هو إليها فى مواجهة الضغوط التى يتعرّض لها.. فعل عقله كل هذا دون أن يبد للأشخاص الخارجيين المحيطين به أى شئ غير عادى.. فهل ينطبق هذا فكرت- على حالة مهندسنا الشاب..؟.. وإذا كانت الإجابة بنعم، فما سبب هذه الوسوس..؟.. ولماذا برزت الآن..؟..

سألت والدته فى إتصال هاتفى:

- هل عانى الباشمهندس (أحمد) من أية مشكلات أو ضغوط منذ عودته من (الإسكندرية)؟..
- (لحظات من الصمت ثم): لا.. لا أعتقد.. كنا سعداء جداً -والده وأنا- بعودته، ولم ندخر جهداً لإسعاده..
حتى عندما أراد أن يستقل بحياته وعمله، لم نقف أمام إرادته.. بالواقع لم نفعلا معه منذ مولده..

إنصب تفكيرى لبعض الوقت على التفتيش عن أسباب اختلاق عقل الفتى لهذه الضلالات.. كان هذا قبل الجلسة الطويلة التى جلستها مع (أمل الشافعى) فى مكتبى بقسم الأمراض النفسية والعصبية الذى رأسه بكلية الطب.. بلبت الأحداث الرهيبة التى سمعتها من الإعلامية الشابة كل أفكارى واستنتاجاتى.. إذن فالأمر ليس مجرد أوهام إختلقها عقل مضطرب.. هناك أرضية واقعية تستند عليها الأحلام التى يراها خلال نومه..

إذن فالسؤال هنا طبقاً للمعطيات الجديدة هو:

ما هو الظرف الزمانى والمكانى والموضوعى الذى تتقاطع فيه القصتان.. قصة رحلة (أحمد) إلى (الإسكندرية) وقصة تمرّد العقال؟..

سؤال بلا إجابة.. لأنّ الفتى لم يذكر لقائه بأي من أطراف القصة الثانية، بل على العكس نفى ذلك نفياً قاطعاً.. وعندما سألت (أمل) الرئيس (فتح الله) - الوحيد الباقي خارج المعتقل من أطراف القصة - نفى

معرفته بمن يدعى الباشمهندس (أحمد خشبة)..
طبعاً لم أؤمن لحظة بموضوع تناسخ الأرواح هذا..
الدين والعقل والمنطق يرفضانه رفضاً باتاً.. برغم كل
الأدلة التي تسوقها (أمل).. هي نفسها لا تؤمن به،
ولجأت إلى بحثاً عن تفسير عملي حقيقى للحالة التي
يمر بها (أحمد).. لذا كانت أول خطوة فى طريق فك
طلاسّم هذا اللّغز هي استبعاد هذا التفسير العبثى
تماماً..

- مأساة حقيقية..

كذا قالت (نشوى) - زوجتى - بعد أن رويت لها قصة
تمزّد العمال والمأساة التي انتهت بها كما حكّتها لى
(أمل).. سألتها وأنا أرقب قطرات المطر التي تضرب
زجاج النافذة:

- ماذا ترين أن نفعل..؟..

إعتدلت فى فراشها مرددة باستغراب:

- نفعل..؟..

- أقصد ماذا نفعل إزاء ما أخبرتك به عن العمال
المظلومين..؟..

- وما الذى بيدنا لنفعله..؟..

إلتفت إليها قائلاً بتوتر:

- أى شئ لإنقاذ الأبرياء القابعين فى المعتقل.. يمكننى
أن أحدث (زكريا بك).. أنت تعلمين مدى نفوذه وما
يمكن أن يفعله.. علاقتى به جيّدة جداً و..

سطع البرق فى هذه اللحظة ليضى السماء المظلمة
خارجاً، وانعكس ضوءه على وجهها الغاضب وهى
تقاطعنى باستنكار:

- وماذا..؟.. هل ستطلب منه التدخل للإفراج عنهم..؟..
هل تتوقع أن يستجب لك إذا فعلت..؟!؟..

بـوووووووم (هزيم الرعد).. لم أرد..

- هل نسيت أن هؤلاء البؤساء تفت محاكمتهم
عسكرياً..؟.. ألا تعرف ما هى الجهة الوحيدة التى لها
سلطة تحويل مدنيين إلى المحكمة العسكرية..؟..
وهل أنت مستعد للوقوف فى مواجهة هذه الجهة..؟..
كانت محقة بالفعل فى إستنكارها وأسئلتها.. عدت
أتأمل الأمطار المنهمرة بغزارة فى الخارج وقلت
بتخاذل:

- ولكن يا (نشوى).. هؤلاء المساكين تعرضوا لظلم
شديد.. ونحن نعلم ذلك.. ماذا سنقول لله تعالى عندما
يسألنا عمّ فعلنا لرفع هذا الظلم..؟..

أزاحت الأغطية عنها ونهضت من الفراش.. إقتربت
منى ووضعت كفها على كتفى قائلة برفق:

- يا حبيبى.. لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.. هذه
مشكلة كبيرة.. أكبر منك بكثير.. كما أنها لا تخصك من
الأساس، وتدخلك فيها لن يؤدى إلى أية نتيجة، بل على
العكس سيثير غضب الكبار عليك..

إلتفت إليها.. نظرت إلى عينيها مباشرة وهى تتابع:

- لا تنس أن الإنتخابات على الأبواب، وستليها حكومة

جديدة.. مركزك قوى.. وفرص توليك رئاسة الجامعة
قوية، فلا تدع أى شئ يضيعها..

تنهدت مستسلماً، فابتسمت وهى تربت على وجهى
قائلة:

- (ضوء البرق يلتمع فى عينيها): إذهب لتتوضأ
وتصلى ركعتى قيام الليل، وسيجعل الله لك بحوله
وقوته من أمرك رشداً..

—وووووووم (هزيم الرعد)..

ليس الأمر إذن متعلقاً بأى صورة بتلك الخرافة المسماة
(تناسخ الأرواح).. أبسط دليل على ذلك أن (عقار) إن
لم يكن حياً يُرزق فى هذه اللحظة فى زنزانته، فقد كان
كذلك منذ عدة أشهر مضت.. ومن البدهى أن خرافة
التناسخ تقوم على عودة روح الميت إلى الحياة مرة
أخرى فى جسد قادم جديد إلى الدنيا، وليس فى
جسد شاب يافع مثل (أحمد خشبة).. أى أن الروح
المتناسخة العائدة إلى الحياة-وفقاً لمنطق الخرافة-
تحلّ فى الجسد الجديد وهو فى بطن أمه، وهو الأمر
الذى يدحض التفسير تماماً لأن كلا الشخصين - (أحمد)
و(عقار)- متقاربين فى العمر لو افترضنا أن (عقار)
فى الأربعينات من عمره..

إذن ما لم يكن الأمر متعلقاً بخرافة التناسخ، فما تفسير
ما يراود الفتى من أحلام ورؤى، حدثت فى الواقع
بشكل يتطابق مع هذه الأحلام..؟..

حسناً.. التفسير الذى يوفق بين معطيات هذه القضية الغامضة ويتوافق معها - هكذا فكرت- هو أن (أحمد خشبة) يمر بأزمة ضمير حادة.. نعم.. هو ما سمعت.. أزمة ضمير..

المشكلة بدأت كالتالى:

الشاب العاثر اللاهى يعثر أخيراً على هدفه الذى يبحث عنه.. يسافر إلى (أوروبا) لتلقى العلم.. يقابل معمارياً إشتراكياً بارعاً -نسيت اسمه- يعلمه أن المعمارى الحق لا يفصل قناعاته السياسية والاجتماعية عن حرفته..

وبدونهما لا يستحق المعمارى أن يكون كذلك فعلا مهما بلغت حرفيته وبراعته.. ويصبح بالفعل مجرد مقاول كل مهنته هى بناء أكبر عدد من المكعبات الخرسانية العملاقة لحشر أكبر عدد من البؤساء داخلها..

يعود الفتى إلى وطنه مُحملاً بآمالٍ كبرى.. يحلم بتغيير فعلى يحققه فى العقلية المعمارية المصرية.. يملك علمه.. يملك خططه.. يملك ثقته بقدراته.. يرفض عروض والده بالثراء.. يترك (باراداييس هايتس).. يهبط ليعيش وسط الناس فى (الإسكندرية).. على مدى أشهر طويلة يحاول أن يحقق أحلامه.. يُصدم من الكم الهائل من الفساد و الجهل و التخلف المستشرى فى المحليات وبين الناس.. يمر الوقت ولا شئ يتحقق.. المشكلة أن الشاب تربى فى مجتمعٍ آخر، تعود فيه على أن يأمر فيجاب.. لذا فكان من الصعب أن يقنع بالمزيد من

الصبر، وبأن ما تعقد في قرون يستحيل فكه في أشهر..
لا يا أستاذي.. لست مغالياً و لا متجئياً.. ما تعيشه
(مصر) حالياً هو نتاج مئات السنين من القهر والذل..
لقد التوت طبيعة الناس أنفسهم..

عاد إلى (باراداييس هايتس).. مر بفترة من التخبط، ثم
ارتد إلى صوابه، وبدأ يمارس عمله من جديد بصورة
أخرى..

وهنا بدأ يسمع الأئين.. بدأ يحلم بـ (عقار) و(عاشور)
و(نعمان) والمصنع والتمرد و.. و..

لماذا هذه الأحلام وهؤلاء الأشخاص..؟.. ولماذا هذا
التوقيت بالذات..؟..

الجواب كما ذكرت آنفاً هو أزمة الضمير.. الباشمهندس
(أحمد خشبة) مازال في أعماق أعماقه مؤمناً بالمبادئ
التي تشرّبها على يدئ أستاذه الإنجليزي.. متأثراً بها
إلى أقصى درجة.. برغم الهزائم التي تلقاها وال فشل
الذي منى به في (الإسكندرية) أو هكذا يظن..

من هنا نشأ صراع عنيف في أعماقه بين مبادئه التي
تفتح ذهنه عليها، وبين رد فعله تجاه هزيمته،
والمتمثل (أي رد الفعل) في تنكره لهذه المبادئ
وإسقاطها من حساباته.. هذا الصراع المتصاعد يدور
في جنبات عقله الباطن، بينما عقله الواعي لا يدري عنه
شيئاً.. لذا، فإن العقل الباطن يحاول تنبيه العقل الواعي
كوسيلة لحسم هذا الصراع.. ويكون هذا التنبيه عن
طريق الأحلام التي تنتاب (أحمد) أثناء نومه.. إنها

الرسالة التي يحاول عقله الباطن إيصالها إليه.. أن هناك
بؤساء كثيرين يعانون ظلماً فادحاً.. بؤساء تتجاهل
أنت معاناتهم برغم مسؤوليتك التي تؤمن بها نحوهم..
تنمو مشاعر التقزز بداخلي وتتضخم.. ومعها كانت
ذكريات حياتي في (باراداييس هايتس) تراودني فأشعر
بحنين شديد إليها..

يوماً بعد يوم.. كانت فكرة محددة تترسخ في ذهني:
هذا ليس مكانى.. وهؤلاء ليسوا قومي..

المرجح أن الفتى عرف بقصة إضراب العقال بشكلٍ أو
بآخر أثناء إقامته بـ (الإسكندرية) ولكن رد الفعل
الهيستيري الناتج عن إخفاقه وفشله -من الواضح أن
هذا الفشل شكّل له صدمة عنيفة - جعل هذه القصة
تنسحب من ذاكرته المؤقتة إلى عقله الباطن الذي وجد
فيها ورقة رابحة لحسم الصراع بين الضمير ورد الفعل..
الأحلام.. الذكريات.. أصوات الأنين.. كل هذه إشارات
من العقل الباطن للصراع الدائر فيه بين المبادئ
والمسئولية وبين رد الفعل الانهزامي الذي اتخذه
الفتى..

شرحت كل هذا لـ (أحمد) و(أمل) الجالسين قبالة
مكتبي، فتبادلا نظرة صامتة طويلة، قبل أن تتمتم
الأخيرة مأخوذة:

- تفسير غريب حقاً..

تراجعت في مقعدى قائلاً:

- ولكنّه الأكثر منطقية وقرباً إلى الواقع..

ونظرت إلى (أحمد) الذى لم يتفوه بحرف منذ بدأت الكلام وقلت:

- ما رأيك يا باشمهندس..؟..

هز رأسه وكأنه يفيق من حلم جديد، وقال:

- لا أدري يا دكتور.. كلامك منطقى ومنظم، ولكنى لا أستطيع الإقتناع بأننى لم أعش هذه الذكريات من قبل.. لا أعرف كيف أصف لك الأمر، ولكن هذه الأحلام ليست أحلاماً عادية.. عندما كنت أحلم فى العادة، كنت أنسى تفاصيل الحلم بمجرد إستيقاظى، أما فى هذه الحالة فالأمر يختلف.. إننى أستيقظ مُتذكراً كل شئ.. كل التفاصيل.. كل ما أراه يلتصق بذاكرتى.. الوجوه والأصوات والروائح.. حتى فنيات الخراطة (لاحظ أننى لم أعمل بها من قبل).. حياة بأكملها أكاد أوقن أننى عشتها من قبل..

تنهدت قائلاً:

- هذا لأن أحلامك كما قلت لك ليست عادية.. الحياة والتفاصيل التى تعتقد أنك عشتها سابقاً، رأيتها كلها أثناء إقامتك فى (الإسكندرية)، لذا فهى تبدو لك مألوفة.. هذا يختلف نوعاً عن ظاهرة الـ (ديجا - فو) الشهيرة، فى أنك رأيت التفاصيل بالفعل من قبل.. والتصاقها بذهنك بعد استيقاظك هو نوع من الوسائل العقلية الدفاعية لحسم الصراع النفسى الدائر فى أعماقك..

- (بتوثر): ولكنى متأكد أننى لم أر هؤلاء الأشخاص

الذين أحلم بهم من قبل..

- أنت رأيتهم بالفعل.. ولكئك نسيت.. أنت تعلم أن ذاكرة الإنسان تحتفظ بكل ما مرّ ويمرّ به طيلة حياته، ولكن عقلك الواعى أزاح هذه الذكريات من ذاكرتك المؤقتة.. أطفأ المصباح الذى يضيئها فتوارت.. فعل هذا كى يرضى ضميرك عن تجاهلك للمآسى التى رأيتها أو سمعت عنها.. ولكن ضميرك لم يفعل، وراح يوخزك بهذه الأحلام وأصوات الأنين لتتذكر..

تساءلت (أمل) باهتمام :

- وماذا عن الكابوس الأخير..؟..

عقدت حاجبى متسائلاً بدورى:

- أى كابوس..؟..

(بتوتر): منذ إسبوع كامل.. كل ليلة.. نفس الأحداث.. نفس الوجوه.. نفس النهاية البشعة .. الإحتراق بين السنة النيران..

- الأمر واضح ..

قلتها بحسم، فتطلّعا إلى بأعين متسعة مليئة بالتوتر والفضول..

- جزء من القصة (التى تعرفها ولكئك نسيتها كما قلت لك) بالغ الشناعة.. وهو فى الغالب يتعلّق بما مرّ به (عمار) ورفاقه عقب دخولهم المعتقل.. هذا الجزء الشنيع من القصة يحاول عقلك الباطن تذكيرك به بالطريقة العتيدة.. بالرمز.. نظراً لبشاعة التفاصيل التى قد لا تحتمل تذكّرها..

- وهل هناك ما هو أكثر شناعة من السقوط فى النار..؟!..

- لاحظ أنك لا تكمل سقطتك.. عقلك يقوم بإيقاظك قبل أن تفعل حتى لا تموت بالصدمة العصبية.. ولكن المخيف بالفعل هو مدى فظاعة الذكرى التى تجعل العقل الباطن يداريها ويحاول الإشارة إليها برمز مثل النيران..

قالت (أمل) بتوتر:

- الأكثر بشاعة أن هذه الذكريات التى يجاهد عقله الباطن لحمايته منها حدثت - ولربما تحدث فى هذه اللحظات- فى الواقع للعقال البؤساء..

نظرت إليها بشئ من الضيق.. الواقع أنها كانت تتكلم وكأنها تقرأ ما يعتمل فى أعماق.. ثمّة شعور حاد بتأنيب الضمير ينخس روى منذ سمعت منها تفاصيل الإيقاع بالعقال والظلم الذى تعرّضوا له..

حاول أن تفهمنى يا صديقى.. منصب رئيس جامعة (الإسكندرية) الذى أسعى إليه يمثل طموحاً عشت أتعاطاه طيلة سنوات طويلة مضت.. وفى الفترة الأخيرة كانت نشاطاتى سواء فى الحزب أو فى الجامعة كنائب رئيسها لشئون البيئة مثار إعجاب الجميع.. لدرجة أن صديقى الحميم الدكتور (زكريا) قال لى ذات مرّة أنّ القيادات العليا تتابع مجهوداتى برضا، وأنها تضمّر لى أمراً عظيماً..

ألا تعرف ما هى الجهة الوحيدة التى لها سلطة تحويل

مدنيين إلى المحكمة العسكرية..؟.. وهل أنت مستعد للوقوف فى مواجهة هذه الجهة..؟..

الأمر دقيق بالفعل ولا يحتمل أية مخاطرات.. مجرد إثارتى لهذا الموضوع سيقرب المنضدة على رأسى ويثير السخط على بدون أية فائدة.. وأصير «لا طلت بلح الشام ولا عنب اليمين» كما يقولون.. لا العقال سيخرجون من محبسهم، ولا أنا سأحقق طموحاتى.. فلا مجال إذن لأعمال بطولية هى إلى الحماقات أقرب..

دعك من أننى لا ألم بكافة تفاصيل الموضوع، وهناك الكثير مما لا أعرفه بخصوص العقال والأسباب التى تدعو إلى محاكمتهم عسكرياً.. كل ما أستند إليه هو أحلام يراها فتى مضطرب نفسياً، وقصص روتها لى منتجة برامج تبحث عن الإثارة الصحفية والفرقة الإعلامية.. فمن الجنون إذن أن أخاطر بطموحاتى إستناداً إلى مثل هذه المعطيات الواهية..

لأتجاهلن الأمر، ولا أحقلن نفسى مسئولية ليست لها أصلاً.. وليكونن هذا هو الرد على إزعاج الضمير الذى ينغص على حياتى منذ أن عرفت القصة..

قلت لـ (أحمد) وكأئما أخاطب نفسى:

- إنس.. إبعد الأمر تماماً عن ذهنك.. لا مسئولية عليك فيما أصاب هؤلاء البؤساء.. يداك نظيفتان تماماً من دمائهم ومعاناتهم.. طمئن ضميرك المعذب من هذه الناحية.. عليك أن تنخرط فى عملك.. تقدم إنجازات

مثمرة.. هذا هو المجال الوحيد الذى يمكن أن تخدم
الناس فيه.. غير ذلك فأنت لا شأن لك به، ولا تعرف عنه
شيئاً من الأساس.. دعه لولى الأمر فهو عليه أقدر..
والتقطت نفساً عميقاً ثم أردفت:

- هذا هو العلاج الوحيد لمشكلتك.. التجاهل
والنسيان والانشغال بالعمل..

كانت هذه هى الجلسة الأخيرة التى جمعتنى
بالباشمهندس (أحمد خشبة) ومدام (أمل الشافعى).. لا
أخفيك سراً أننى كنت مرتاحاً إلى إغلاق ملف هذه
الحالة الشائكة التى سببت لى الكثير من الضيق وتأنيب
الضمير..

تفرغت فى الأيام التالية لمتابعة عملى فى الجامعة
وإدارة مستشفى الخاص لعلاج الأمراض النفسية
والعصبية هنا فى (باراداييس هايتس)، وفى ذات
الوقت حرصت على مواصلة نشاطى الحزبى..

كانت بؤادر مشكلة جديدة قد بدأت فى الظهور على
السطح بعد سلسلة التحقيقات الصحفية التى نشرتها
واحدة من الصحف اليومية الخاصة حول تمرد عقال
أحد المصانع واعتصامهم فى المصنع فى محاولة لإجبار
الإدارة على صرف مستحقاتهم المتأخرة منذ سنوات،
وعن مؤامرة دبرها مالك المصنع للإيقاع بهم..

كانت التحقيقات جريئة فعلاً.. مصاغة بإسلوب رائع
شديد اللهجة، وتطالب بفتح ملف العقال المعتقلين من

جديد ومحاسبة من ظلمهم.. وقد أثارت عواصف من الإهتمام على أصعدة مختلفة.. نوقشت أكثر من مرة فى برامج التوك شو اليومية، وتقدم عدد من نواب المعارضة فى مجلس الشعب بطلبات إحاطة و استجوابات لعدد من المسؤولين على رأسهم وزير الداخلية والقوى العاملة و ئيس إتحاد العقال وغيرهم..

أما فى الجامعة، فقد كانت ردود الأفعال أقوى مما تخيلت وتخيّل الكثيرون.. فى البدء لم يبد أن أحداً سمع بالأمر من أساسه.. غير أن المظاهرات انفجرت بغتة ودون سابق إنذار.. راح آلاف الطلبة والطالبات يجوبون أرجاء الجامعة منددين بالظلم والظلمة ومطالبين بإنقاذ العقال البؤساء.. أثار هذا دهشتى فى بادئ الأمر لبعده المسافة بين العالمين (عالم الطلبة وعالم العقال)، وتساءلت عن السبب الذى يدفع آلاف الشبان والشابات إلى التظاهر من أجل عدد من العقال، قبل أن أدرك الجواب على الفور، وأنا أنظر إلى الشاب الملتحى الأسمر الذى يقود المظاهرة حاملاً مكبراً صوتياً، والذى يعرف الجميع أنه أحد أبرز قادة النشاط الطلابى لطلبة الإخوان المسلمين.. إسمه (مصطفى عبد الرازق) فيما أذكر.. يحيط به عدد آخر من الطلبة الملتحين يرددون الصيحات الحماسية بصدق، بينما تتعالى من الخلف الأصوات الرفيعة الصادرة من حناجر الطالبات المنتقبات والمختمرات السائرات خلف

المظاهرة..

لا شك لدى في صدق حماسة هؤلاء الشباب، ولكن اقتراب موعد إنتخابات مجلس الشعب القادمة يطرح أسئلة عديدة حول حجم وتوقيت و -وهو الأهم- الدوافع الحقيقية للمظاهرة..

قام حرس الجامعة بإغلاق البوابات لمنع المظاهرات من الإنتقال من الحرم الجامعي إلى الشارع، ووقف العقيد (سليمان قنديل) -قائد الحرس- يتوعد المتظاهرين بتكسير عظامهم وضياع مستقبلهم، بينما أصابت الدكتور (ماجد رسلان) - رئيس الجامعة الحالي- حالة من الجنون وهو يرى جحافل الطلاب تدق أبواب الجامعة بينما أصواتهم تزلزل المكان..

- كل واحد يرجع على مدرجه.. اللي مش هايسمع الكلام هاي تفصل فصل نهائي ومستقبله هايضيع..
كذا صرخ بكل قوته، دون أن يلتفت إليه أحد.. كان الجو متوتراً عصبياً مقبضاً.. وشعرت بالشفقة إزاء عصبية الدكتور (ماجد) وهو يرى مستقبله مهدداً ما بين غضب الطلبة وجحافل الأمن..

- الله أكبر ولله الحمد..

- يا حرية فينك فينك.. أمن الدولة بينا وبينك..

- مش هنخاف مش هنطاطى إحنا كرهنا الصوت الواطى..

تتوالى هتافاتهم الحماسية عبر مكبرات الصوت، لتضيع بينها صرخات قائد الحرس ورئيس الجامعة..

وعبر أسياخ حديد البوابة الرئيسية.. وعلى امتداد شارع (سوتر) بدت شاحنات الأمن المركزي الضخمة بلونها الزيتوني المميز، وكأئها مجموعة مخيفة من العمالقة هائل الحجم.. وتراصت صفوف الجنود سود الثياب أمام البوابة، لتتصادم صيحاتهم القوية مع هتافات المتظاهرين..

مرّت اللحظات عصبية.. الكل متوتر.. الكل يصرخ.. الأعصاب مشدودة.. العرق ينهمر على الوجوه.. «مش هنخاف مش هنطاطى».. عدد من الرجال يرتدون الملابس المدنية والمناظير الشمسية الداكنة واقفون فى الخارج يراقبون الموقف باهتمام.. لا يحتاج المرء لكثير من الذكاء ليعرف أنهم من مباحث أمن الدولة.. «هاه.. هاه..».. الفتيات المنتقيات يواصلن الهتاف بينما ترفعن أكفهن المتشابكة.. من هذه المسافة أرى عروق جبهة (مصطفى عبد الرازق) تنتفخ ووجهه الغارق فى العرق محمّر بشدة، وهو يهتف عبر مكبر الصوت.. «إحنا كرهنا الصوت الواطى».. جنود الأمن المركزي يدقون الأرض بأقدامهم صانعين إيقاعاً مخيفاً، بينما أصابعهم تقبض على هراواتهم .. «هاه... هاه»..

- هل تعرف لماذا وقع اختيارنا عليك..؟
سألنى العقيد (محمد السقّان)، فارتج علىّ للحظات ولم أدر بم أرد.. إبتسم قائلاً:

- أنت تعلم بالتأكيد أن أهم ركائز عملنا هو المعلومات..
لقد صرنا فى هذا المجال أكثر خبرة وكفاءة من
المخابرات الأمريكية ذاتها.. لدينا قنوات معلومات
متدفقة طيلة الوقت عن كل شئ وكل شخص فى
البلد.. الهمسات فى البيوت مسجلة لدينا على
الأشرطة.. تأوهات النساء المنبعثة من تحت رجالهن
نسمعها أولاً بأول.. هل أنت معى..؟..
جف ريقى وأنا أجيب:
- نعم..

- لدينا ملف كامل عنك يا دكتور.. معلومات عن
عائلتك.. زوجتك وأبنائك.. سجلك المهنى.. بعثتك إلى
(اليابان).. علاقاتك بزملائك.. سنوات الإعارة التى
قضيتها ما بين (السعودية) و(الكويت).. المؤتمرات
التي تشارك فيها.. مستشفاك فى (باراديس هايتس)..
نشاطك فى الحزب.. كل شئ..

ونظر إلى عيني مباشرة مستطرداً بلهجة خاصة:

- حتى موضوع شقيقك الأكبر الراحل الذى توفى فى
المعتقل عقب القبض عليه بتهمة الإنتماء إلى الجماعات
المتطرفة..

قلت بصوتٍ مبحوح:

- كان ذلك قبل مدة طويلة..

إبتسم قائلاً:

- بالتأكيد..

وأشار إلى كوب عصير الليمون المثلج الموضوع

أمامى على المنضدة :

- إشرى الليمون قبل أن يسخن ..

شكرته وأنا أرتشف من الكوب ، فى حين تراجع هو فى مقعده متابعاً :

- عندما فكرنا فىمن سنقوم بتوليته رئاسة الجامعة خلفاً للدكتور (ماجد رسلان) -وأنت تعلم أن هذا القرار لا يخرج إلا من عندنا- كان لدينا بعض المواصفات التى لابد من توافرها فى الشخص المطلوب..

و راح يعد على أصابعه:

أولاً : أن يكون عضواً فى الحزب، ويحوز رضا قيادته..

ثانياً : أن يكون أكاديمى محترم ذو سمعة طيبة..

ثالثاً : ألا يكون له أى نشاط سياسى خارج الحزب ..

رابعاً : ألا تكون له سابقة تعامل أو حتى تعاطف مع الإخوان المسلمين..

خامساً: أن يكون مشهوداً له بالتدين، وذلك لحرق كارت الدين الذى يلعب عليه الإخوان دوماً..

سادساً: القدرة على اتخاذ قرارات حازمة لخدمة مصلحة ووظيفة الجامعة، والتى تقتصر فقط على تقديم العلوم للطلبة ولا شئ آخر..

وصمت لحظة وكأنما يتابع أثر كلماته على ثم أردف:

- وكل هذه المواصفات وجدناها تنطبق عليك يا دكتور (حازم).. فكان إسمك هو المرشح المثالى..

كان انفعالى قد بلغ ذروته، فتمتت بعبارات شكر متداخلة جعلته يبتسم قبل أن يقول بجديّة:

- أول وأهم وأخطر أزمة ستواجهك هي النشاط الإخوانى فى الجامعة.. وهو السبب الحقيقى فى إقالة سلفك الدكتور (ماجد) - وليست المظاهرات الأخيرة فقط- برغم كفاءته الإدارية، ولكن الكفاءة الإدارية ليست كل شئ كما سبق وأخبرتكم.. النشاط الإخوانى متغلغل فى الجامعة بشكل قوى جداً، ويكاد يتفوق على نظيره فى جامعتى (القاهرة) و(عين شمس).. والخطة الجديدة لمحاصرته هى جعل طلبة الإخوان عبءة لمن يعتبر.. لقد أعلن لقد تحدى هؤلاء الفتية الأمن، مدفوعين بتعليمات من الكبار من أجل مكاسب سياسية، فلا أقل من أن يرى الناس أن الثمن فادح حقاً، وسيكلفهم مستقبلهم ذاته..

إلى جانب ما سنفعله نحن.. نريد فصل عديدين، ومنع آخرين من خوض الإمتحانات.. إتحاد الطلبة القادم لابد أن يخلو ممن لا تتصفنه قائمتنا.. الشدة يا دكتور .. ننتظر أن نرى منك الكثير منها..

قلت بصوت مبحوح:

- سأكون عند حسن الظن بإذن الله..

وارتشت من عصير الليمون، بينما هو يقول:

- الجامعة من أخطر المنابر التى يتسلل منها الفكر الإخوانى وينتشر بين الشباب، وقد لاحظنا زيادة معدل هذا الإنتشار فى الفترة الأخيرة بما يهدد أمن واستقرار الجامعة وقدرتها على أداء مهمتها..

وأشعل سيجارة مستوردة نفت دخانها متابعاً:

- ولكن سياستك فى إدارة كلية الطب أثناء توليك منصب عمادتها تجعلنا نتفاعل بصدد قدرتك على التعاون معنا، لحفظ الأمن والاستقرار فى الحرم الجامعى.. فهل أنت جاهز..؟..

بكل تأكيد..

لا تظلمنى يا صديقى ولا تفهمنى بشكل خاطئ..
لست إستغلالياً ولا خائناً.. وليس فى الأمر شبهة
لصفقة بينى وبين الأمن..

كل ما هنالك أن للجامعة وظيفة محددة هى العلم ولا شئ سواه كما قال العقيد (محمد السقّان).. ومن الطبيعى أن أى محاولة لإستغلالها - أى الجامعة - كممبر للتظاهر أو أى غرض آخر سياسى أو غير سياسى لابد من مقابلتها بمنتهى الشدة والحزم وإلا صارت الأمور «ميغة» واسمح لى.. هذا جانب..

الجانب الآخر هو موقفى الفكرى من المعارضة السياسية بشكل عام ومعارضة الإخوان بشكل خاص.. هذا الموقف نابع من آراء لفقهاء عظام فى الدين الإسلامى الحنيف.. الإسلام يأمر المؤمنين بالطاعة المطلقة للحاكم أو ولى الأمر.. يقول الله عز وجل فى كتابه العزيز: بسم الله الرحمن الرحيم (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم).. أى ربط تبارك وتعالى طاعة الحاكم (ولى الأمر) بطاعته وطاعة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلّم، وعليه فإن معصية الحاكم

تعد معصية لرب العزة وللرسول الكريم.. بل لقد ذهب بعض الفقهاء الثقات، إلى أنّ معصية الحاكم والثورة عليه لا تجوز حتى ولو سرق أو زنى، مادام ينطق بالشهادتين ويؤدي الصلاة.. هذه الفتوى ليست إعتباطاً، ولها بالتأكيد مغزى وهدف أكبر.. ألا وهو وأد الفتنة التي ستنشأ بسبب تمرد الرعية على راعيهم.. هذه الفتنة التي قد تغرق البلاد في بحورٍ من الدم.. بالتأكيد قرأت شيئاً من التاريخ الإسلامي يا صديقي، وتعلم المآسى التي جرت بسبب تمرد بعض الثوار على حكم الخلفاء الأمويين والعباسيين من بعدهم.. وما كانت النتيجة..؟! لا شيء.. الحكم ظل باق كما هو، ولكن أنهار الدماء شقت أراضى (مصر) و(الحجاز) و(الشام) و(العراق).. فالحل المثالي في رأيي هو الصبر على البلاء والتضرع إلى الله عز وجل لرفعه.. هذا في حالة فساد وظلم الحاكم، وهو ما ليس موجوداً لدينا في (مصر) بالمرّة ولله الحمد..

من هذا المنطلق، كنت دوماً رافضاً لأي نوع من الدعاوى التي تنادى بالثورة على النظام وإسقاطه مهما كانت النوايا الكامنة وراء هذه الدعاوى صادقة.. إنها مسألة عقيدة وإيمان، و ليست مزايدة للحصول على مكاسب من النظام.. لذا فقد كانت سياستي أثناء رئاستي لقسم الطب النفسى ثم عمادتي لكلية الطب هي الوقوف بحزم أمام أى محاولة لإستغلال الأنشطة الطلابية في التحريض ضد النظام.. كثيراً ما كنت أشعر

بشيء من تأنيب الضمير وأنا أعاقب طالباً أو أنهر طالبةً،
ولكنها مسئوليتي أمام الله وإدارة الجامعة من بعده..
وبذلك لم يكن صعباً على الموافقة على عرض (سمه
أمراً لو شئت) العقيد (محمد السقّان)..

كما لك أن تتوقع كان هناك الكثير من الضجيج
والمشاكل..

كنت - هذه المرة بالذات - في منتهى الشدة والحزم..
قمت بفصل عدد كبير من الطلبة ومنعتهم من أداء
إمتحانات هذا الفصل الدراسي، وأعطيت الحرس
الجامعي صلاحيات كبيرة وصلت لدرجة السماح لهم
بتفتيش سيارات الأساتذة الجامعيين أنفسهم.. بالطبع
سبب هذا ثورة عارمة بين الأساتذة ضدي، ولكنني كنت
مصرأ.. طلبة الإخوان يقومون بإدخال لافتات
وسقاعات وميكروفونات وبروجكتورز يستخدمونها في
التظاهر.. يسرّبون هذه الأجهزة خلسةً إلى داخل
الجامعة برغم رقابة الأمن المشددة.. فلا مجال إذن
لإستثناء سيارات الأساتذة من التفتيش، والمفروض أنّ
هذا جزء من النظام الجامعي - الذي أضعه أنا بصفتي
رئيساً للجامعة - وعليهم أن يتقبلوه.. دعك من أنّ عدداً
من هؤلاء الأساتذة الغاضبين ينتمى فعلياً إلى الجماعة
المحظورة، ولدي قائمة كاملة بأسمائهم.. وهو ما أعلنته
في إجتماع لمجلس الجامعة كان مخصصاً في الأصل
لمناقشة زيادة الميزانية المرصودة لتطوير البحث

العلمى، واستغلّه بعض الأساتذة الغاضبون لمناقشة الإجراءات الأمنية التى يرونها غير مقبولة..
ثارت إحتجاجات كثيرة.. وانبرت صحف المعارضة
تهاجم موافقى، وخضت معارك كلامية حامية على
شاشة برامج التوك شو دافعت فيها عن سياسة
الجامعة، وأعلنت مبدأى الرفض تماماً لتسييس
الجامعة..

أقام الطلبة المفصولون دعاوٍ قضائية ضد الجامعة
حكمت لهم بمواصلة الدراسة وخوض امتحانات الفصل
الدراسى، غير أنّ العقيد (السقّان) أخبرنى أن أتعامل مع
تلك الأحكام باعتبارها حبراً على ورق، لأنّ القضاء
مخترق بعناصر من الإخوان ففعلت..

مع قدوم موعد إنتخابات إتحاد الطلبة، منعت عدداً
من الطلاب المعروفين بانتماءاتهم الإخوانية من الترشح
لعضوية الإتحاد.. ثارت العديد من الإعتراضات، وحاول
وفد من هؤلاء الطلبة مقابلتى فرفضت، بل أن إحدى
الطالبات المنتقبات حاولت إعتراضى أثناء توجهى إلى
سيارتى لمناقشتى بشأن منع الطلبة من خوض
الانتخابات، رفضت مناقشتها فأصرت لدرجة أغضبتنى
بشدة، فثرت وكدت أن أصفعها على وجهها، لولا أن
رجال الحرس الجامعى المحيطين بى تدخلوا فأبعدوها،
ودفعها أحدهم بقوة فألقاها أرضاً.. أثار مشهدها وهى
تنهض باكية شفقتى، غير أننى لم أكن لأسمح لمشاعرى
بأن تسيطر علىّ أثناء أدائى لعملى.. كان الأمن قد

أرسل إلى بقائمة الطلبة المسموح لهم بخوض الانتخابات (وسأكون صريحاً معك وأقول لك أنهم المسموح لهم بالسفوز بعضوية الاتحاد)، وبالتالي لم يكن هناك مجالاً للمناقشة بشأن ترشح آخرين قد ينجحوا وقد لا يفعلون..

أعلم أن هذه الإجراءات التي اتخذتها قد تبدو من النظرة الأولى متعسفة أو غير شرعية (ولا أكذبك خيراً بأننى كنت كثيراً ما أتألم بسبب ضياع فصولاً دراسية على طلبة فى سن أبنائى) ولكن النظرة المتأنية بالتأكيد ستغير الكثير من المفاهيم.. الضرورات تبيح المحظورات أحياناً.. والضرورة التي أمامى الآن هى قطع الطريق أمام الفصائل السياسية المعارضة كالإخوان وغيرهم لتسييس الجامعة واتخاذها منبراً لبت فكر التمرد والثورة على النظام.. فلا مناص من اتخاذ بعض الإجراءات التي قد تبدو تعسفية غير مشروعة لتحقيق الهدف الأهم الذى هو مشروع بكل تأكيد.. وبينما أنا غارق حتى أذنى وسط كل هذه المشكلات، وصلنى فى مكتبى طرد صغير يحمل شعار (فيديكس).. قمت بتمزيق المغلف البلاستيكى الخارجى، فوجدت بداخله شريحة موبايل مطبوع عليها شعار واحدة من شركات المحمول، ومعه ورقة بيضاء مطوية.. فضضتها، وجرت عيناي بسرعة على كلماتها القليلة..

- بانتظاري..؟!... ضغطت زر OK و أنا أدرس مسماع ال
(hand – free) فى أذنى و..
- (بنبرة ارتياح): أخيراً..
- (بحذر): مدام (أمل)..؟!..
- ظلت أجرب الإتصال بك طيلة اليوم ..
تجاوزت دهشتى وسألتها:
- هل هناك ما يدعو لهذه الإجراءات البوليسية..؟!..
- بالتأكيد..
انتظرت أن تشرح لى، ولكنها لظمت الصمت.. سألتها:
- كيف حال الباشمهندس (أحمد)..؟!..
- ليس على مايرام..
- أمازالت تتنابه تلك الأحلام..؟!..
- لم تتوقف ليلة واحدة..
- (بدهشة): أمازال ضميره يؤنبه إزاء تجاهله لهموم
العقال..؟!..
- ليست مسألة ضمير بأى حال..
نقد صبرى بالفعل إزاء كل هذا الغموض الذى تتصنعه..
قلت بحدة:
- ليم لا تتكلمى بوضوح إذن بدلاً من هذا الفيلم..؟!..
مرت لحظات من الصمت، قبل أن تقول بحروف بطيئة
مُنذرة:
- ما لدى يتفوق عملياً على أفلام (هوليوود) ذاتها، حتى
أننى أحياناً أكاد لا أصدق ما وقعت عليه..
- (بنفاد صبر): وما الذى وقعت عليه بالضبط..؟!..

- هل يسمح وقتك بأن أحكى لك..؟..

نظرت إلى الساعة ذات النقوش الذهبية الموضوعه
على مكتبي، فوجدت عقاربها تقترب من الثانية صباحاً..
لا بأس.. سأدعها تتحدث لـ ١٠ دقائق أخرى، فإذا وجدت
كلامها غير ذي أهمية، فسأقطع الإتصال على الفور.. أنا
رجل صاحب مسؤوليات، وليس لدى وقت لأى هراء..
- تفضلى..

أمل الشافعى

إنس.. إبعد الأمر تماماً عن ذهنك.. لا مسئولية عليك
فيما أصاب هؤلاء البؤساء.. يداك نظيفتان تماماً من
دمائهم ومعاناتهم.. طمئن ضميرك المعذب من هذه
الناحية.. عليك أن تنخرط فى عملك.. تقدم إنجازات
مثمرة.. هذا هو المجال الوحيد الذى يمكن أن تخدم
الناس فيه.. غير ذلك فأنت لا شأن لك به، ولا تعرف عنه
شيئاً من الأساس.. دعه لولى الأمر فهو عليه أقدر..

لن أكذب عليك دكتور (حازم).. تحليلك لحالة (أحمد)
كان منطقياً جداً.. ولكننى لم أهضم منطقك الذى
حاولت إقناعه به لينزع موضوع العقال من ذهنه.. بل
أنى شعرت - ولعلى مخطئة- أنك أنت نفسك غير
مقتنع بهذا المنطق.. أنت رجل متدين يا سيدى وتعلم
أن (الساكت عن الحق شيطان أخرس) كما أخبرنا رسول
الله صلى الله عليه وسلم.. والجرم واضح و صريح
أمام أعيننا.. فلا مجال للتبرير واختلاق الحجج للتهرب
من مسئولية فضح الظلم..

فى أعماقى كنت أعرف أننى لن أقف مكتوفة اليدين
(فيما بعد حكيت القصة كلها لزميل دراسة قديم لى
يعمل حالياً صحافياً فى إحدى صحف المعارضة
بموضوع العقال وكتب عنه سلسلة تحقيقات أثارت
ضجة).. ولكننى لم أتفوه بكلمة عن نواياى لـ (أحمد)..

المسكين كان يمر بحالة لا مثيل لها من العصبية والتوتر والخوف.. حاولت تهدئته و- أسأل الله أن يسامحني- إقناعه بمنطقك.. نصحته بالانغماس أكثر في العمل، وذكرته بأننا أضعنا وقتاً ثميناً.. وكنت أرى بالفعل أن الانشغال بالعمل قد يسهم كثيراً في علاجه، غير أنه أجابني بابتسامة مريرة:

- كيف تنتظرين منى أن أعمل بينما ساعات نومى اليومية لا تزيد عن الثلاث ساعات..؟!..

كان محقاً.. نظرت إلى وجهه الشاحب ووجنتيه البارزتين، والهالات الداكنة (التي ازدادت سواداً فى الفترة الأخيرة) حول عينيه.. العينين المحمرتين الزائغتين.. هل هذا وجه قادر على العمل..؟!.. تنهدت قائلة:

- أسأل الله تعالى أن يشفيك..

كنا جالسين فى مقدمة زورقه الخاص الذى ينقلنا من (باراداييس هايتس) إلى (الإسكندرية).. البحر هادئ بالفعل، والجو لطيف.. نظرة غريبة إنبعثت من عينيه.. - (أمل)..

- نعم..

- من فضلك لا تتخل عنى..

وراح جسده يرتعش.. شعرت بشفقة حادة تجاهه.. رغماً عنى وجدتنى أنهض من مقعدى لأربت على كتفه مهدئة..

- ستجدنى بجوارك دائماً.. فقط هدى من روعك..

رفع عينين مترقرقتين بالدموع.. حدق فى وجهى..
قال بصوتٍ متهدج:

- أحبك..

- ماذا..؟!..

لم يرد.. وفى اللحظة التالية، فوجئت به يمد ذراعيه
بغتةً ليحتضننى ويضمنى بقوة إلى صدره.. وشعرت
بشفتيه تلتصقان بشفتى.. أخذتنى المفاجأة لأول
وهلة.. ملأت أنفى رائحة أنفاسه المعتقة برائحة التبغ..
إنتفض جسدى كله.. دفعته عنى بكل قوتى صارخة:
- هل جنت..؟!..

لا أعرف إن كانت دفعتى هى السبب أم هو جسده
المتهاك بفعل الإنفعال وقلة النوم.. طار جسده إلى
الخلف كأنما تلقى قبلة فى صدره.. تجاوز حاجز
القارب واختفى من أمام ناظرى، وسمعت صوت
إرتطامه بالمياه..

صرخت أنادى عم (خليل) - قائد القارب - الذى بدا
وكأنه لم يلحظ أى شئ مما جرى بسبب ضجيج محرك
القارب.. هرع الرجل مذعوراً ليرى مخدومه الشاب بين
الأمواج.. أوقف المحرك، فى حين قذفت أنا طوق نجاة
مربوط بحبل نحو الفتى الذى بدأ يسبح عائداً إلى
القارب..

الكثير من الاعتذارات.. الكثير من التوسلات.. الكثير
من الدموع إنهمر من أعين كلانا.. عدت إلى بيتى وقد

اتخذت قراراً حاسماً بقطع علاقتى بهذا الشاب المنحرف
الذى لا يستطيع التحكم فى مشاعره، ولا يفرق بين
أنثى وأخرى..

غمرنى شعور عارم بالمهانة والندم على اندفاعى فى
علاقتى به إلى الحد الذى جعله يتجزأ على هذه
الدرجة ويقدم على فعلته الطائشة التى فعل.. قالت لى
والدتى بحزم بعد أن قصصت عليها ما جرى:
- إنه خطأك بالطبع..

- كيف يا أماه..؟..

إنفجرت غاضبة:

- منذ حادثتك وأنت تنسين دوماً أنك أنثى، وتتعاملين
مع الجميع كأنتك رجل.. وكم من خلافات نشبت بينى
وبين والدك بشأن هذه النقطة، لأنه كان فخوراً بك
ودأب على منحك حرية مطلقة مساوية لتى يمنحها
لشقيقك الرجل..

- ولكن يا أمى..

- لا تقاطعيني.. أنظرى إلى أفعالك منذ بدأت تلك
المشكلة التى قصصتها على.. لا أتحدث عن أسفارك
الكثيرة، ولا سهرك لأوقات متأخرة خارج البيت لأننى
أعلم أنك تكونين فى العمل (برغم تحفظى على نوعية
العمل التى تدعو المرأة إلى التأخر ليلاً) ولثقتى فى
أخلاقك.. كلامى هنا عن زهابك إلى (كرمون) ليلاً
بصحبة شاب غريب مضطرب نفسياً، ومحاولة السرقة
التى تعرضت لها.. والحيوان الذى مد يده عليك.. ثم

ذلك الشاب الوقح الذى لم يقدر ثقتك به وحاول أن
يقبلك.. ما الذى جعلك تنحدرين إلى هذا الحد..؟..
كيف سمحتى لنفسك أن تصل بك الأمور إلى هذه
الدرجة التى انهار معها إحترام الناس لك بهذا الشكل
المخزى..

كانت تتكلم، ومع كلماتها امتلأت نفسى بالخزى
والمرارة.. حاولت أن أرد.. لم أستطع..
- مالك أنت وما يعانيه هذا الفتى المخبول..؟.. أهو
زوجك أم أخيك أم قريبك..؟!.. ما الذى حشرك فى كل
هذا العك..؟!..

حقاً.. ما الذى «حشرنى» فى كل هذا «العك»..؟!..
كنت قد أخبرتك مسبقاً - لو تذكر - دكتور (حازم) أننى
متحيرة بشأن دوافعى للوقوف إلى جوار (أحمد ممتاز
خشبة) فى المحنة الغربية التى يمر بها.. الآن أقول لك
وبعد أن فكرت فى الموضوع بهدوء وروية، أنها كانت
حالة تعاطف إنسانى لا تخلو من فضول صحفى مهنى
إكتسبته بحكم عملى.. هذا فقط هو ما حشرنى..

- كونى عاقلة يا بنيتى كما كنت دوماً.. تخلصى كلياً
من هذا الموضوع الشائك، واقطعى علاقتك نهائياً بذلك
الشاب المخبول الوقح..

لا بأس.. كنت قد اتخذت هذا القرار مسبقاً..

- حاضر..

- وأعدى نفسك لأنّ هناك عريساً يرغب فى رؤيتك..

عريس..!!!..

- طيب أطفال.. زميل لشقيقك الأكبر فى (جدة)..

لا رد..

- (محمود) شقيقك يثنى بشدة على أخلاقه وتدينه
ونجاحه فى عمله..

لا رد..

- عرف ظروفك، ووافق عليها..

لا رد..

- هل أصابك الخرس..؟!..

- ماذا تريدنى أن أقول يا أمه..؟!..

- رأيك..

- ولماذا رأيى..؟!.. ألم يثن (محمود) على أخلاقه
وتدينه..؟!.. إذن ما الحاجة لرأىى..؟!.. كل ما على إذن
أن أعد نفسى كى أروق له..
- (بغضب): (أمل)..

- منذ متى عهدتى من هذا النوع من النساء يا
أمى..؟!.. هل نسيت كيف تزوجت (مجدى)..؟!.. كنتم
جميعاً عدا أبى رحمة الله عليه ترفضونه وتفضلون
عريساً آخر أغنى، ولكنى تحديت الجميع وأصررت
عليه لأننى أحببته..

- وما كانت النتيجة يا فالحة..؟!..

- جعلنى أسعد إنسانة فى العالم..

- وماذا ترك لك بعد وف..

بترت تساؤلها وهى تنظر لى بوجه شاحب.. عضت
بأسنانها على شفتها السفلى.. نظرت لها صامتة، فقالت

والدموع تترقرق فى عينيها:
- أريد أن أطمئن عليك قبل أن أموت يا (أمل)..
شعرت بالدموع تحتشد فى عيني أنا الأخرى..
إحتضنتها قائلة:
- بعد الشر عليك يا ست الكل..
إستكانت بين ذراعى وهى تقول:
- العمر يجرى يا بنيتى ولن أعش أكثر مما عشت.. منذ
أن نَفَذَ الله مشيئته واختار زوجك وطفلك إلى جواره
وأنا أتعذب كل يوم، عندما أفكر أننى سأموت وأترك
وحيدة فى هذه الدنيا..
ربت على ظهرها وقلت:
- لست وحيدة يا حبيبتي.. لدى إخوتى وأبنائهم
وبنائهم أطال الله فى عمرك وأعمارهم جميعاً.. لدى
عملى وزملائى و..
قاطعتنى و هى ترفع رأسها نحوى:
- الدنيا تلاهى يا بنيتى.. ولا أحد فاضى لأحد.. لابد
للواحدة مئاً من رجل ليكون ظهراً لها ليحميها..
- ربنا موجود يا أماه..
- ماذا ستفعلين عندما يتقدم بك السن وتصبحين
وحيدة لا مؤنس لك..؟..
- (بمرح): سأتزوج حينئذ..
- لن تجدى من يرضى بك وقد كبرت سنك وأصبحت
عجوزاً..
وحزكت أصابعها على وجنتى مردفة برقة:

- أنتِ لست عجوزاً بعد، وجميلة كالقمر.. ومرغوبة..
فلمَ ترفضين حتى مجرد التفكير فى الأمر..؟..
- لأننى ما زلت أحب زوجى الراحل ولا أتخيّل نفسى مع
أحدٍ سواه..
- (بضراعة): فقط إمنحى هذا العريس الجديد فرصة..
قابليه لمرة واحدة ثم اقبليه أو ارفضيه..
صمتُ مفكرة للحظات ثم تنهدت قائلة:
- حسناً يا أمى.. كما تشائين..

غادت الحمام - بعد دش ساخن- ضامة أطراف البرنس
الأبيض على جسدى.. أمام المرأة جلست أمشط
خصلات شعرى المبتلة.. غريبٌ هذا.. ثمة شعور غير
مألوف يداعبنى.. بالأحرى هو شعور مألوف ولكنه
قديم.. قديم جداً ولم أشعر به منذ سنين طويلة.. ما
سر هذا السعادة الغامضة التى تتلاعب فى أعماقى..؟..
أترانى ما زلت مراهقة تفرح بإعجاب شاب مثل (أحمد
خشبة) بها..؟.. أم هى بهجة خفية أرفض الإعراف بها
سببها وجود من لا يزال يرغب فى الارتباط بى..؟..
يا حماقتى..!!..

أسنان المشط تتحرك بين خصلات الشعر التى كانت
فائقة النعومة فى يوم من الأيام، ثم لم تعد كذلك.. منذ
متى - فكرت- فقد شعرى نعومته..؟..

لمع الخاطر بذهنى فى لحظة.. إقتربت بنصفى العلوى
من سطح المرأة المغطاة بعض مواضعه بالبقع الداكنة..

لاحظت وجود خطين منحنيين يحيطا بالجفنين السفليين.. وثمة خطوط خفيفة جداً على جانبي شفتي..

نهضت واقفة وسحبت حزام البرنس تاركة البرنس نفسه يهوى على الأرض.. تراجعت خطوة للوراء، وتفردت فى تفاصيل جسدى العارى.. بالتأكيد لم يعد هو ذات الجسد النضر الرشيق الذى انتزع تلك التنهيدة الحارة من صدر (مجدى) ليلة الدخلة والتى دفعت الدماء الساخنة إلى وجنتى.. لم أصر بعد كرة من الشحم ، ولكن.. متى تهدل صدرى بهذه الصورة..؟.. متى امتلأ ردفائى بهذا الشكل..؟.. ما هذه الاستدارة التى صارت عليها بطنى..؟.. كرش..؟!.. هل حقاً صرت من صاحبات الكروش..؟!..

تنهدت بحرارة..

هاقد بدأ مرور الزمن- كما تقول أمى - يترك آثاره على ذلك الوجه والجسد الذى همس (مجدى) يوماً فى أذنى أنه لن يشيخ أبداً..

(مجدى سليم).. طالب الإعلام النموذجى.. الرجل كما ينبغى أن يكون.. الشخصية الكاسحة الطموحة قوية الشكيمة.. الذكاء المتوقد والبديهة فائقة السرعة.. الطول الفارع والوسامة الأخاذة.. صوته القوى الواثق - الرفيق برغم ذلك- وهو يصارحنى أسفل إحدى الشجرات المتناثرة فى باحة الكلية.. بأنه يميل إلى ويرغب فى الارتباط بى.. لحظة أقرب إلى الحلم..

تفاصيل لا تبارح ذاكرتى.. أصوات الطيور.. الأفق
المصبوغ بلون الشفق الأحمر.. الهواء الخريفى البارد
قليلاً.. أوراق الشجر الصفراء المفروشة والمتطايرة من
حولنا.. أنفاسى المأخوذة.. شفتاه الرفيعتان يحيط بهما
شارب ولحية دقيقان.. ثم العينين.. العينان البنيتان
اللتا تهمسان بالكثير والكثير.. هل كان من الممكن أن
أرفض..؟..

(مجدى سليم).. الصحفى الموهوب.. الاسم اللامع
الذى سعد بسرعة الصاروخ ليتولى منصب مدير
التحرير فى واحدة من أهم الصحف المصرية فى الفترة
الأخيرة.. أداء متميز.. أسلوب راق.. إدارة حازمة.. ذكاء
فى التعامل مع الحكومة..

- فى ظل الظرف الراهن يمكنك مهاجمة أية أوضاع
فى البلد بشرط الإبتعاد عن مؤسسة الرئاسة..
قلت له معترضة:

- ولكن هذا يعد بالفعل قصوراً فى ممارسة الصحافة..
- أعلم هذا، ولكنها قواعد اللعبة الصحفية فى (مصر)
وعلىنا أن نقبلها كما هى إذا أردنا العمل كصحفيين
لخدمة هذا البلد..

أدرك بالفعل قواعد اللعبة مبكراً جداً ولعب عليها
محافظةً على الخط الرفيع الفاصل بين الصحفى الذكى
البارع والصحفى المنافق الموالس فحقق نجاحاً كنت
أفتخر به دوماً رغم إبتعادى عن الصحافة وانخراطى
فى مجال إنتاج البرامج..

جلست على طرف الفراش وأشعلت سيجارة.. نظرت إلى صورتي المنعكسة على زجاج المرآة.. لا داعي للمزيد من الذكريات يا (أمل).. لقد ذهب زوجك وطفلك ولن يعودا وبذها بهما انتهت حياتك فعلياً.. هلا أخبرتيني ما الذى تفعلينه فى حياتك..؟.. ما الذى ترمين إليه من وراء كل هذا العمل والنشاط والتفافز من مكان لمكان..؟.. المال..؟.. هذه ليست الحقيقة وأنت تعلمين هذا، فأسرتك ميسورة الحال والحمد لله.. الطموح..!!.. لا تكذبى.. أى طموح تبغين تحقيقه بإنتاج تلك البرامج السخيفة التى تعلمين جيداً فى أعماقك مدى تفاهتها وسذاجتها..؟..

أنفث دخان سيجارتي..

إضاعة الوقت.. هذا هو الجواب الذى أنتظره.. أنت وحيدة يا صديقتى.. وحيدة وبائسة وبلا هدف.. ويوماً ما كما قالت أمك ستتلفتين حولك فلا تجدين أحداً.. الكل مشغول بحاله.. ستنكمشين حول نفسك بينما جبال الجليد تتعالى من حولك حتى تقضين نحبك بعد سنوات من الوحدة والوحشة دون حتى أن يشعر أحد باختفاءك من على خارطة الأحياء..

ضمنت ركبتي إلى صدرى وأحطتهما بذراعى.. كنت أرتعش لا أدرى أمن البرد أم من الحزن.. برد قارص مخيف وحزن عميق ثقيل.. جذبت أغطية الفراش لألفها حول جسدى العارى.. نظرت إلى أصابعى.. كانت السيجارة ترتعش بين سبابتى ووسطاى، بينما الدموع

تحتشد فى مقلتى..

وعندما يبلغهم جيرانك بأن رائحة عفونة قادمة من شقتك -عندها فقط- سيذكرون أن لهم صاحبة ظلت فى طى النسيان لسنوات وسنوات قبل أن تموت وحيدة منسيّة..

كانت نوبة اكتئاب إعتدت زيارتها لى من آن لآخر من بعد وفاة زوجى وطفلى.. يوم أو يومين أقضيها فى الفراش لا أحداث أحداً ولا أتناول طعاماً، وتكاد أمى تموت خلالها هلعاً و حزناً على.. ثم لا ألبث أن أعود إلى حالتى الطبيعِيّة..

أرجو عُذرك يا دكتور (حازم) لإسترسالى بعيداً عن موضوعنا.. خلاصة القول أننى عدت لممارسة عملى.. كاد العمل أن يتعثر تماماً مع انشغالى بمشكلة (أحمد)، لولا أن (ميخائيل) مساعدى الشاب كان بالفعل شديد البراعة والإخلاص فى تحقل مسئولية إدارة العمل طيلة فترة غيابى.. لم يعد (أحمد) للعمل، فأبلغت السيد (رأفت) مالك المحطة بذلك، وأخبرته بأننى سأعود للتعامل مع المهندس (محمود مفيد)، وأرسلت لـ (أحمد) ما تبقى من مستحقات مالية نظير العمل الذى قام به.. عدت إلى العمل مجدداً، وفى الأيام التالية حققنا معدل إنجاز مرتفع، وتم تصوير حلقات البرنامج بالتتابع، حتى جاء اليوم الذى زارنى فيه العريس الجديد بصحبة (محمود) شقيقى فى موقع التصوير..

الدكتور (إيهاب عبد المولى).. طبيب أطفال فى منتصف الأربعينات من عمره.. لم يتزوج لإنشغاله بعمله فى (جدة).. دعوتها لتناول بعض المرطبات فى كافيتريا قريبة -وما أكثرها هاهنا فى (مارينا) حيث يتم تصوير البرنامج- ورحنا نتبادل أحاديث عامة..

أعترف أنه كان لا بأس به.. خفيف الدم وذو حضور.. ولاحظت أنه كان يطيل النظر إلى وجهي.. تحدث عن عمله فى المملكة العربية السعودية، والمتاعب التي تواجه المغتربين دوماً، حديثه شائق متزن فعلاً.. أصغيت له بإنصات وهو يحكى عن نفسه، واستشعرت لذة أدهشتنى فى أعماقي وأنا أحدثه عن نفسى وعملى إجابة لتساؤلاته..

بينما كنا نتجاذب أطراف الحديث إرتفع رنين هاتفى المحمول.. ألقىت نظرة على شاشته.. كان رقم (أحمد خشبة).. شعرت بالدهشة لوهلة ثم ضغطت زر (Cancel)، وعدت إلى متابعة الحديث مع ضيفى، غير أن رنين المحمول إرتفع مرّة أخرى.. إعتذرت لهما، ونهضت مبتعدة إلى ركنٍ قصي من المكان..

- (ببرود): السلام عليكم..

فاجأنى صوته المضطرب:

- آسف لإزعاجك يا (أمل).. ولكن هناك شيئاً مهماً أريدك أن تعرفيه..

- خيراً يا باشمهندس..

- هل أمامك تليفزيون الآن..؟..

- (بدهشة): تليفزيون..؟!..

- نعم..

نظرت إلى الشاشة العريضة ال flat التى تعرض أغانى
غربية تبثها قناة (Melody Hits) وقلت:

- أمامى تليفزيون بالفعل..

أسرع يقول:

- شاهدى إذن القناة الفضائية المصرية..

- هل تتصل بى لتطلب مئى متابعة القناة الفضائية
المصرية..؟!..

- هناك شيئاً هاماً لابد أن ترينه..

- (بصرامة): إسمع يا باشمهندس.. لا وقت لدى لعبتك
هذا.. لو كانت هذه وسيلة جديدة لل..

قاطعنى بلهجة ضارعة:

- أعدك أن يكون هذا آخر ما أطلبه منك.. لن أزعجك
مرةً أخرى..

إزدادت دهشتى للهجته.. توجهت إلى أحد العاملين
بالكافيه، وطلبت منه تحويل الإرسال إلى الفضائية
المصرية لدقيقة واحدة.. إستجاب العامل الشاب
بدمائة، فشكرته و رحى أتابع ما تنقله الشاشة..

(إيجى - نيرجى).. أول شركة مصرية عالمية
متخصصة فى إنتاج وتوليد واستخلاص طاقة الرياح..
وقد أثبتت الأبحاث والدراسات العلمية أن طاقة الرياح
من أهم وأوفر مصادر الطاقة المتجددة غير المستغلة..

ووفقاً لجدول الإحصاءات والدراسات الجغرافية
وتقارير متابعة الأرصاد الجوية فان المنطقة الممتدة
بطول الساحل الشمالى لـ (مصر)، والمطل على البحر
الأبيض المتوسط تعتبر من أغنى مناطق العالم بطاقة
الرياح نظرا لتلاقى تيارات هوائية مختلفة أقواها
بالطبع الرياح الشمالية الغربية القادمة من (أوروبا)
شمالاً..

سألنى:

- هل تشاهدين إعلان (إيجى - نيرجى)..؟..

- نعم..

- هل ترين وجه الضيف المتحدث على الشاشة..؟..

كان وجه المُعلّق يظهر من حين لآخر بين المشاهد
المصورة لمحطات وماكينات (إيجى - نيرجى).. وكان
ظهوره مصحوباً بظهور شريط أزرق أسفل الشاشة
يحمل بحروف بيضاء واضحة إسم الرجل (د.يوسف
محيى الدين) وموقعه فى الشركة (المدير التنفيذى
للمشروع)..

- نعم أراه.. ما شأنه..؟..

- (بانفعالٍ جارف): نفس الملامح.. نفس الصوت..

نفس الرجل.. أراه فى الكابوس الذى يزورنى كل ليلة..

هل تذكرينه..؟..

وجه ممتلئ أصلع ذو نظارات.. يلقي نظرة ثابتة على

وجهى.. يربت على رأسى.. يقول بصوت عميق :
- لا تقلق.. قليل من الألم.. ثم سينتهى كل شئ..

- دقائق ويكون الشواء جاهزاً..
ثم شعرت بقدمه تركلنى فى منتصف ظهرى لتدفعنى
بقوة لأطير عبر الباب المفتوح وأهوى لأسفل..

- هل تعنين أن مدير التنفيذ بشركة (إيجى - نيرجى)
هو من رآه الباشمهندس (أحمد) فى كابوسه يقذفه فى
النار..؟!..

- هكذا أخبرنى..

- إذن فقد جُنّ تماماً..

- (بحسم): مُطلقاً..

- ما دخل (إيجى - نيرجى) وموظفيها بأزمة ضمير
الفتى والأحلام التى تورقه..؟!..

- دار هذا التساؤل بذهنى، وأعترف بأننى فى البداية
ظننته قد جُنّ.. ولكن ما عرفته بعد ذلك جعلنى أغير
رأىي كليّةً..

- هلا أوضحت أكثر..

جالسين نتبادل النظرات فى ذلك المكتب الفاخر بمبنى
شركة (إيجى - نيرجى) بـ(الزمالك)..

همس:

- أشكرك لأتّك قبلت المجئ..

- (بخفوت): الشكر لله..

فتح فمه ليتكلم، ولكنى عاجلته بهمس حاد:
- ولكن اعلم أنى تصرف أحق يصدر منك، سأقابه
بمنتهى الشدة.. أنت رأيت بنفسك أنى لست رخوة ولا
ضعيفة، وأعرف جيداً كيف أَدافع عن نفسى.. دعك من
أننى سأتركك تواجه مشكلتك بمفردك، ولن ترانى مرة
أخرى..

- أعدك أنى لن أضايقك أبداً ..

عاد الصمت ليسود بيننا.. مرّت ثوان ثم تساءلت:

- هل أنت واثق من أنه نفس الوجه..؟..

- (بحسم): ثقة كاملة..

فى تلك اللحظة دلف (د.يوسف محيى الدين) إلى
الغرفة.. رحب بنا معتذراً عن تأخره علينا، وتساءل عفا
يمكنه أن يقدم لنا من خدمات..

متوسط القامة.. ممتلئ الجسد.. أنيق الملابس.. فى
حوالى الخامسة والأربعين من العمر..

- (أمل الشافعى).. من محطة (asc) ..

و أشرت إلى (أحمد):

- (أحمد ممتاز).. مُعد..

- (بابتسامة دبلوماسية): تشرفنا..

بطرف عينى لمحت (أحمد) يحدق فى وجهه بعينين
متسعيتين.. يالحمقتك..!!.. ستفضحنا بنظراتك تلك أيها
ال...!!..

أسرعت أتكلّم حتى أشتت إنتباهه.. أخبرته أن المحطة

بصدد إعداد برنامج جديد عن مستقبل الطاقة فى منطقة الشرق الأوسط خلال السنوات المقبلة و..
- سيكون هناك العديد من خبراء الطاقة البترولية والنووية.. ويسعدنا أن تكون ضيف البرنامج للحديث عن تجربة (إيجى - نيرجى) فى مجال إستخلاص وإنتاج الطاقة المتجددة..

قال دون أن تفارق الإبتسامة شفتيه:

- تشرفنى بالطبع المشاركة فى برنامجكم.. ولكن المشكلة هى أن وقتى ضيق جداً، و..

دار نقاش روتينى بيننا لبعض الوقت.. كان الهدف من هذه الزيارة هو أن أتحقق من شخصيَّة الرجل، وأن يتحقق (أحمد) من الوجه الذى يراه فى أحلامه.. أعلم أن إنقيادى وراء تلك الهواجس قد يبدو لك يا دكتور (حازم) عبثياً ساذجاً لا مبرر له، فضلاً عن كونه جالباً للمشاكل، كما حدث لى من قبل، ولا أخفيك سراً أننى بعد مكالمة (أحمد) لى -تلك التى أشار فيها لأول مرَّة إلى العلاقة بين (يوسف محيى الدين) والشخص الذى يراه فى أحلامه- لم أكرث له.. أنهيت المكالمة وأنا أنوى ألا أتدخل فى هذا الموضوع مرَّة أخرى.. غير أننى وفى ذات الليلة لم أستطع النوم.. ظللت طيلة الليل أسترجع توسلاته، وصوته الضارع وهو يرجونى أن أقف إلى جواره يتردد فى أذنى..

- أكاد أجن.. لم أستطع النوم طيلة الأيام الفائتة إلا لساعات معدودة.. كلَّما استغرقت فى النعاس، أرى هذا

الرجل يلقي بي فى فرن مشتعل..

- حتى الأقراص المخدرة لم تجد معى.. أتدربن..؟..
بعد كل هذا، صرت أفكر كثيراً فى الموت.. لا أجد
مخرجاً آخر من هذا العذاب..

لم أستطع النوم أنا الأخرى.. وكيف يمكن أن أنام، وأنا
أعلم أن هناك من يتعذب بهذه الصورة..؟.. نهضت من
فراشى فتوضأت وصلّيت ركعتين، وجلست أقرأ
القرآن.. بعد قليل كنت قد إتخذت قرارى..

(إنّ الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه)..
صدق رسول الله صلى الله عليه وسلّم..

- هناك شئ ما بالغ البشاعة حدث لـ (عمار) ورفاقه فى
محبسهم أكثر من مجرد السجن.. وهذا الأصلع هو
المسئول عنه..

لكن..

حقاً يبدو كلامك هذه المرّة يا (أحمد) بعيداً جداً عن
الواقع.. ويزداد بعداً وأنا أستمع إلى الرجل وهو
يتحدث.. ما شأن (ديوسف محيى الدين) المدير
التنفيذى فى (إيجى - نيرجى) بمجموعة من العقال
المعتقلين..؟!.. الرجل يتحدث بطلاقة عن الطاقة
المتجددة ومشروعات الشركة للاستفادة منها، ولا يبدو
أن هناك ما يشغله سواها.. فلم يشطح خيالك بعيداً إلى
هذه الدرجة..؟!..

هكذا صارحت الفتى البائس برأى بمجرد خروجنا من
مبنى الشركة..

- لا تدع خيالك يذهب بعيداً.. تذكر كلام الدكتور
(حازم)..

كان رد فعله عصبياً..

- ألا تفهمين..؟.. لا حيلة لى فيما أراه وأشعر به..
الرجل بالفعل متورط فى عملٍ قذر يخص العقال
البؤساء مهما بدا لك العكس..

- إذا كان المتحدث مخبولاً، فليكن المستمع عاقلاً..
أخبرنى ما الصلة التى يمكن أن تربط هذا الرجل بمأساة
العقال، وسأصدق كلامك..

صمت للحظة، ثم قال بلهجة غريبة:

- حالياً لا أعرف.. ولكننى سأفعل..

عند هذه النقطة، قررت أننى قدمت لـ (أحمد ممتاز)
كل ما بوسعى أن أقدمه.. الفتى صار بالفعل بحاجة إلى
علاج نفسى مكثف.. عدت إلى (الإسكندرية)
ليستغرقنى العمل من جديد.. وأثناء ذلك تكررت زيارات
(إيهاب) لى أكثر من مرّة.. إجتاحتنى الدهشة بحق..
قبل أيام قليلة كنت أحيط نفسى بسياج من ذكريات
حياتى السابقة يمنع أى محاولة للاقتراب منى.. كنت
أرى - كما ذكرت لك- أن حياتى الفعلية إنتهت بوفاة
زوجى وطفلى، وأن ما هو قادم من الأيام ليس إلا
تحصيل حاصل، وتأهبت لإستئنافها من هذا المنطلق..
ولكنّ ياللعجب.. زيارة (إيهاب) لى ومكالمته الهاتفية لم
تسبب لى نفوراً من أى نوع، بل على العكس وجدتنى
أسعد بها بل وأصبحت أنتظرها أيضاً.. نتحدث

بالساعات، وترتسم إبتسامة راضية حنونة على شفתי
أمى وهى ترانى متربعة على الأريكة وسماعة الهاتف
ملتصقة بأذنى.. أنصت.. أثمرر.. أضحك.. أرى ابتسامتها
الدافئة فأجيبها بأخرى من أعماق قلبى..

تعددت الزيارات والمكالمات.. صارحنى (إيهاب) برغبته
فى الإرتباط بى، وطلب منى أن أفكر فى عرضه بروية
ربثما يعود من (الرياض) إن شاء الله بعد شهر واحد
يصفى خلاله ما تبقى من أعماله حتى يتسنى له أخيراً
العودة إلى (مصر)، فوعده بأن أمنحه جواباً محدداً
عند عودته سالماً بإذن الله..

مضى إسبوع أو أكثر، ثم استقبل بريدى الأليكترونى
ذات صباح رسالة من (أحمد خشبة) مرفق بها ملف
فيديو..

الجزء الثالث

الحقيقة

د. يوسف محيى الدين

٢ مليار نسمة فى العالم لا يحصلون على حصتهم من الطاقة الكهربائية، وبالتالي ليس هناك حل سوى الاعتماد على الطاقة المتجددة لتمكين الناس من العيش بصورة أفضل..

بروفيسور (بيرين مايجارد) رئيس هيئة طاقة الرياح فى العالم والحاصل على جائزة (نوبل) فى الإستخدام السلمى للطاقة عام ٢٠٠٥

لا تقلق.. قليل من الألم.. ثم سينتهى كل شئ..

جزء من حوار تليفزيونى مع الدكتور (يوسف محيى الدين) المدير التنفيذى لمشروعات (إيجى - نيرجى):
- دكتور (يوسف).. هلا شرحت لنا مدى حاجة (مصر) لإستغلال الطاقة المتجددة..؟..

- لجوء (مصر) لإستغلال طاقاتها المتجددة أصبح أمراً حتمياً ليس فقط من أجل التنمية الاقتصادية، بل لمنع كارثة طبيعية ناتجة عن التغيرات المناخية، ونضوب مصادر الوقود فى العالم، وارتفاع نسبة ثانى أكسيد الكربون فى الهواء، وذوبان الكتل الجليدية فى القطبين الشمالى والجنوبى، مما سيؤدى إلى غرق المدن

الساحلية المصرية الواقعة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، ومدن الدلتا.. مازال أمامنا بعض الوقت لتجنب هذه الكارثة ولكن بأسرع ما يمكن، وذلك بانتقالنا من حرق الوقود إلى استغلال الطاقة المتجددة والمتوفرة بكثرة..

- وهل تمتلك (مصر) مصادر طبيعية مناسبة من الطاقة المتجددة..؟..

- بالفعل تمتلك (مصر) ثروات طبيعية كبيرة من الطاقة المتجددة ممثلة في الطاقة الشمسية وطاقة الرياح، فالشمس متعامدة عليها طوال العام، ولديها طاقة رياح هائلة تؤهلها للتصنيع المحلى للطاقة، وستؤدى لتنمية إقتصادية وصناعية واستغلال الطاقات المهذرة سواء كانت طبيعية أو بشرية..

- وهل هذه الطاقة المتجددة مستغلة بالشكل الأمثل..؟..

- بالرغم من أن (مصر) على رأس قائمة الدول الإفريقية الأغنى بالإمكانات الطبيعية، إلا أن استغلالها لهذه الإمكانيات متواضع للغاية..

- هلا حدثنا عن إحدى التجارب الناجحة للاستغلال الإقتصادى للطاقة المتجددة..؟..

- فى (ألمانيا) مثلاً أدى إستغلال طاقة الرياح إلى توفير ١٢٠ ألف فرصة عمل جديدة، وفى (الدانمارك) التى بدأت تنفيذ برنامج الطاقة المتجددة منذ عام ١٩٧٩ بسبب إرتفاع أسعار الوقود بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣،

أمكن توفير ٣٥ ألف فرصة عمل، و طاقة متجددة للتصدير بحوالى ٧ بلايين يورو، واستطاعت كذلك تحقيق معدل للنمو السنوى يصل لحوالى ٣٠%..

- وهل تطمح شركة (إيجى - نيرجى) لتحقيق معدل استخدام أفضل للطاقة المتجددة المصرية..؟..

- (إيجى - نيرجى) شركة مصرية مدمجة مع واحدة من أكبر شركات الطاقة فى العالم وهى شركة (نيو ميدل إيست فور إينرجى).. وهدفنا هو توفير استغلال أمثل للطاقة المتجددة فى (مصر) وذلك لتحقيق نهضة إقتصادية وصناعية من خلال أبحاث علمية دقيقة وبالاعتماد على أحدث تكنولوجيا مستوردة فى هذا المجال..

- وما هى خطتكم لتحقيق هذه الأهداف..؟..

- قام الفريق البحثى الخاص بالشركة بعمل سلسلة من الأبحاث والدراسات الجغرافية والجداول الإحصائية، وبناءً على كل هذا قام الخبراء بتحديد مواضع إنشاء سلسلة من محطات استقبال واستخلاص طاقة الرياح بطول الساحل الشمالى المصرى ومدن الدلتا و(القاهرة) والمدن المطلة على ساحل البحر الأحمر مثل (شرم الشيخ) و(الغردقة)، بالإضافة إلى عدد من لوحات التوزيع و٤ محطات محولات رئيسية.. وبالفعل تمكنا من تغطية ما يزيد عن ٢٠ مليون وحدة سكنية وصناعية وتجارية..

- وهل هناك خطط مستقبلية محددة..؟..

- وضعنا خطة لزيادة عدد محطات الاستقبال ولوحات التوزيع، ونشرها فى مواضع مختلفة مثل مدن وقرى الصعيد والمناطق النائية ك (حلايب) و(شلاتين) و(شرق العوينات).. ونتوقع أن نغطى الجمهورية كلها فى أقل من عامين..

- وماذا عن مدى تفاعل الحكومة المصرية مع مثل هذا المشروع الضخم..؟..

- قامت الحكومة بالفعل بتوفير كافة التسهيلات الممكنة لإنجاز المشروع إقتناعاً منها بوطنية أهدافه، والمكاسب الهائلة التى ستعود على (مصر) من وراءه، وإننى لأنتهز الفرصة وأوجه الشكر لكل المتعاونين معنا، وعلى رأسهم السيد رئيس الجمهورية..

- فى النهاية نشكرك شكراً جزيلاً دكتور (يوسف) على الوقت الذى منحتة لنا ولإجابتك عن تساؤلاتنا..
- (بابتسامة واثقة): عفواً..

بالطبع الدول النامية -ومنها (مصر)- ليس باستطاعتها شراء الطاقة، ولذلك عند ارتفاع سعر الطاقة سيكون هذا بمثابة النهاية للدول النامية..
بروفيسور (بيرين مايجارد) رئيس هيئة طاقة الرياح فى العالم والحاصل على جائزة (نوبل) فى الاستخدام السلمى للطاقة

عام ٢٠٠٥

(التسجيل مُلتقط بواسطة كاميرا رقمية.. الصورة مهزوزة غير واضحة المعالم إلى حدٍ ما.. الإضاءة رديئة.. يظهر في منتصف الكادر رجل أصلع هو (يوسف محيي الدين)، مُقيداً إلى مقعد خشبي.. عارى الجسد، وثمة دماء متجلطة على جانب وجهه، وكدمة زرقاء حول عينه اليسرى)..

(الكاميرا تقترب ببطء من الرجل المُقيّد.. صوت (أحمد ممتاز) يأتي من خارج الكادر.. من الواضح أنه هو نفسه حامل الكاميرا)..

- تكلم.. أعد ما قلته لي منذ دقائق..
(برغم عدم وضوح الصورة، إلا أنّ ارتعاش شفתי الرجل واضح)..

- (بصوت غاضب): قلت تكلم..
- (باستعطاف): سيقتلونني لو فعلت..
(ومن خارج الكادر هوت قبضة شخص ما على جانب وجه يوسف.. يتأوه.. تتناثر قطرات من الدم على وجهه.. يبكي بصوت مسموع)..

- وستموت هنا والآن لو لم تفعل..
(ضربة أخرى)..
- (بكاء حار):

- (بغضب): تكلم يا حيوان.. ماذا فعلتم بالعقال..؟..
(الضربات تنهال على وجه يوسف و جسده.. الصراخ يتعالى)..

- إصرخ كما تشاء.. لن يسمعك أحد هاهنا..

ثم..

- (فتحى).. عينه..

(ملعقة يتصاعد منها البخار تقترب من وجه يوسف

أسفل عينه اليمنى مباشرة)..

- (يصرخ): الرحمة..

- تكلم وإلا اقتلنا عينك..

(الملعقة تكاد تلتصق بجلد الوجه)..

- (برعب): سأتكلم..

- ماذا فعلتم بالعقال..؟..

- (برعب):

أرجو أن تقدر موقفى جيداً..

لست قاتلاً على الإطلاق.. ولا أستطيع ذبح دجاجة كما

يقولون.. منظر الدماء يجعلنى أتقيأ.. غير أن كل هذا لا

شأن له بعملى فى (إيجى - نيرجى).. أنا أتعامل مع

أوراق.. أرقام.. رسوم بيانية.. جداول إحصائية على

شاشات الكمبيوتر.. ولا أخالك ترى فى هذا أى شئ غير

مشروع..

أنا مجرد مدير تنفيذى لمشروع ضخم تشترك فى

تمويله رؤوس أموال هائلة وأسماء لامعة فى عالم

البيزنس.. آآاه .. أرجوك لا داعى لمزيد من العنف..

سأشرح لك كل شئ.. فقط أرح هذا النصل من على

وجهى..

بدأ كل شئ أثناء فترة دراستى فى (الولايات المتحدة

الأمريكية).. الحقيقة أنني إنتقلت إلى الـ states لإستكمال الدراسة بعد انتهائى من دراستى بالجامعة الأمريكية فى (مصر)، ويسر ذلك لى ثراء أسرتى.. غير أنك تعرف بالطبع أن المال وحده لا يصنع النجاح.. لابد من الاجتهاد والاجتهاد الشديد.. وكنت أنا طيلة عمرى مثال للطالب المجد الذى لا يعنيه أى شئ فى الحياة قدر تسجيل أعلى الدرجات والتقديرات..

إستغرق الأمر منى سنوات طويلة من العمل الشاق الدؤوب، صرت بعدها الدكتور (يوسف محيى الدين) أستاذ الاقتصاد وعلوم إدارة الأعمال.. وخلال هذه السنوات أثارت ذهولى -كما كانت تفعل دوماً- العقلية الغربية شديدة التميز والكفاءة فى إدارة المؤسسات المختلفة.. النظم الصارمة التى يخضع لها الجميع.. الديمقراطية.. الحرية.. الثقافة.. الاقتصاد الحر والسوق المفتوح الخاضع لقانون العرض والطلب.. إنبهرت بكل هذه المزايا، وقارنتها بالكم الهائل من الركام الفكرى الموروث الذى يجثم على العقلية الشرقية فيزيدها تخلفاً وراء تخلف.. لهذا يتقدم هؤلاء القوم ونتراجع نحن..

غير أنني كنت مالكاً لخياراتى.. أمامى أن أنطلق لألتحق بالعالم الحر المتمدين المتحضر، أو أن أعود لأغوص فى وحل عالم قديم متخلف إنتهى أمره منذ قرون.. لأكونن أحقق ابن أحقق لو ترددت لحظة.. حصلت بالطبع على الجنسية الأمريكية، وصرت

مواطناً أمريكياً.. إنخرطت فى العمل بمركز بحثى مرموق، وفى إحدى المنتديات الاقتصادية كان لقائى الأول بـ (كمال فودة) رجل الأعمال الأمريكى -مصرى الجذور - الشهير..

توطدت علاقتنا خلال جلسات المنتدى، وتحدثنا طويلاً عن النظم الاقتصادية الحديثة، ولاقى آرائى حول إقتصاديات السوق المفتوح إستحسانه.. وذات مرة تحدث إلى حول مشروع ضخم ذو طبيعة خاصة ينوى البدء فيه..

كمال فودة

ليس هذا مجرد مشروع إنتاجى عادى دكتور (محيى الدين).. هذا بيزنس على أعلى مستوى، وقائم على تطبيقات لنظريات ودراسات علمية دقيقة فى مجالات متنوعة كالطبيعة والبيولوجى والطاقة والاقتصاد..

لست عالماً متخصصاً فى أى من هذه المجالات السابقة، فأنا رجل أعمال كما تعرف، ولكنى سأحاول أن أقدم ملخصاً وافياً عن طبيعة مشروعنا..

العلم يقول أنه ينبعث من كل مئا ما يُعرف بـ (السيال الحيوى).. وهو نوع من الطاقة الروحية تنبعث من أجسادنا طيلة الوقت، تؤثر بشكلٍ أو بآخر على المحيطين بنا..

ألا تشعر أحياناً أنك ترتاح لفلان أو أن إعلان طلته حلوة كما تقولون عندكم فى (Egypt)..؟.. وفى المقابل ألا تحس أحياناً بالنفور أو الإنقباض من أحد الأشخاص عند رؤيته ولو كانت للمرة الأولى..؟..

ليست هذه المشاعر نوعاً من التخاريف أو المعتقدات البدائية.. السيال الحيوى يلعب هنا دوراً هاماً فى إحداثها.. وتأثيره يختلف من شخص لآخر، وكذلك قوة هذا التأثير..

نوع من الطاقة هو إذن.. طاقة حقيقية ملموسة وإن كانت رؤيتها غير ممكنة بالطبع إلا فى مجال للأشعة تحت الحمراء.. ومادام الأمر كذلك، فهو كغيره من أنواع

وأصناف الطاقة يمكن استخلاصه واستغلاله وفقاً لقوانين فيزيائية معينة..

هناك العديد من البحوث الشهيرة التي تحدثت عن السعال الحيوى، ولكن أهمها بالطبع الدراسات التي أجراها العلماء اليابانيون.. تلك الدراسات التي كانت نقطة البداية التي إتخذها علماء (هالبرتون) -وهي مؤسسة بحثية أمريكية خاصة- لبحث وسائل استخلاص هذه الطاقة، وكيفية الاستفادة منها..

لن أصدع رأسك بكثير كلام عن عشرات الدراسات ومئات التجارب التي جرى إجرائها على مدى سنوات طويلة.. فقط سأحدثك عن النتيجة النهائية التي توصلوا إليها، وهي أن هذه الطاقة يمكن استخلاصها بسهولة من الأجساد المحتضرة.. إستخلاصها وتخزينها في أنابيب مجهزة خصيصاً لهذا الغرض..

كانت التجارب الأولية تُجرى على حيوانات التجارب كالقردان والقردة والخنزير.. يتم توصيل الأقطاب والأنابيب بأجسادها، ثم حقنها بمنشطات قوية للقلب، تدفع قلوبها إلى الخفقان بقوة تعجز عن تحملها فتتوقف.. كان الحيوان يلقي مصرعه، فتتدفق طاقته الحيوية في الأنابيب لتتجمع في أنبوبة رئيسية تحمل رقم التجربة.. وهكذا ظلت التجارب تُجرى على هذا المنوال، حتى اقترح البروفيسور (ديفيد جولدمان) - رئيس فريق العلماء- تنويع وسائل قتل حيوانات التجارب، وقياس معدلات طاقة السعال الحيوى

المنبعثة عند كل وسيلة.. وكانت المفاجأة..
الحيوانات التي ماتت غرقاً أو حرقاً أو سلخاً أو صعقاً
بالكهرباء أو.. أو.. بلا بلا بلا.. سجلت معدلات انبعاث
للطاقة الحيوية أعلى بمراحل من الحيوانات التي ماتت
بعد حقنها بالأنسولين أو منشطات القلب.. لا أقل من
أضعاف أضعافها.. وكلما زادت فترة الاحتضار، زادت
كمية الطاقة التي نحصل عليها..
ثم كانت الخطوة التالية هي البدء فى إجراء التجارب
على نوعية مختلفة من حيوانات التجارب..

..Burn mother fucker

..Burn

..Burn

..Burn

من أغنية لفريق (دروانينج بول)

لا أحب أن أدخل فى جدل أخلاقى حول مدى بشاعة
قتل إنسان للحصول على سياله الحيوى.. لست واعظاً
ولا رجل دين.. ولكن بصدق أقول أن العيّنات البشرية
التي قامت مجموعة البحث بتعذيبها لإنتزاع طاقتها
الحيوية كانوا موتى من الأساس.. لا .. لا أعنى بذلك
أنهم كانوا مرضى بأمراض قاتلة.. ولكن نظرة واحدة
إلى هوياتهم أو أحوالهم تكفى لجعل كلامى مفهوماً..
مهاجرون غير شرعيون من (المكسيك) و(الصين)

و(باكستان) و(مصر) والعديد من الدول.. عناصر إرهابية ذات أصول عربية ثبتت عليهم تهمة الإرهاب، وتجاهلتهم بلادهم تماماً.. مدمنى المخدرات ومرضى الإيدز.. كل هؤلاء وغيرهم كثير عناصر بائسة فى المجتمع لا فائدة منها، ومضارها عديدة، والأمل معدوم فى أن ترتقى وتلعب دوراً فى بناء أى مجتمع.. أى أنهم عملياً لا يزيدون فى شئ عن حيوانات التجارب التى تُجرى عليها البحوث.. فما المشكلة إذن فى الاستفادة من موتهم مادامت حياتهم غير ذات فائدة..؟..

قد يقول قائل أن هناك ظروفاً عديدة تسببت فى الحالة التى صار عليها هؤلاء كالفقر والجهل والدكتاتورية، وأتهم غير مسئولين مسئولية كاملة عما هم فيه.. هذا أقول له أننى لست باحثاً اجتماعياً.. أياً كانت الأسباب فهى لا تهمنى.. لدينا هنا مخلوقات نبذها العالم لسبب أو لآخر، فلا مانع من استغلالها كما تُستغل الحيوانات.. بل لعل هذا يجعل لها قيمة أكثر مما هى عليه لو تركت وشأنها..

وفقاً لهذا المنطق بدأت مجموعة البحث فى (هالبيرتون) فى إستخراج طاقة السيل الحيوى من حيوانات تجارب بشرية.. فما كانت النتيجة..؟..

مدهشة بكل المقاييس.. لا أستوعب الكثير من التفاصيل العلمية ولكن ما عرفته أن الطاقة الحيوية المستخرجة من الأجساد البشرية المحتضرة أبدت قابلية فائقة للتأين الكهربى، وهو ما يعنى أن هذه

الطاقة قابلة للتحويل بسهولة إلى طاقة كهربية..
دعني أعطيك مثلاً لتوضيح كلامي..

عقار

من الصباح للمساء.. والمطرقة فيدى..
صابر على دى الأسا.. حتى نهار عيدى..
إبن السبيل انكسى، واسحب هراييدى..
تتعروا من مشيتى..
واخجل أخاطبكم..
بيرم التونسى

الساعة السابعة صباحاً..
رنين الجرس يدوى فى جوانب العنبر.. موعد الطعام..
أحشائى تتقلص من الجوع..
أنهض من على فراشى مستنداً إلى ذراعى السليمة..
أتحرك ببطء نحو الفتحة المستطيلة الموجودة بين
قضبان زنزانتى والمخصصة لمناولة طبق التعيين..
مددت يدي.. تناولت الطبق من يد الحارس النوبتجى،
وناولته طبق عشاء الأمس.. لم ينظر إلى مطلقاً..
ناولنى طبق الطعام وكأنه يلقي بالبرسيم إلى دابة فى
حظيرة..

زنزانة ضيقة تلك التى أشغلها.. لا تزيد مساحتها عن
مترين فى مترين.. محتوياتها قليلة لا تزيد عن فراش..
مرحاض بلدى مزود بسيفون.. ولا شئ آخر..
متى تم نقلنا من المعتقل..؟.. لا أذكر بالضبط.. أعتقد
أننا لم نمكث فيه أكثر من أربعة أيام.. وفى الليلة

الخامسة، تم شحننا (حوالى مائة عامل) فى سيارتى
نقل إلى هنا..

ظللنا جالسين نتبادل النظرات لما يقرب من ثمانى
ساعات كاملة حتى شعرنا بالسيارتين تتوقفا.. مرّت
ثوانٍ ثم انفتحت أبواب الصندوق الخلفى لكل سيارة
(حيث نجلس)، وغشى ضوء النهار أعيننا..

مازلنا قريبين من البحر.. هذا مؤكد.. صحيح أن تلك
الأسوار العالية تحجب أى شئ خارجها، إلا أنى ميّزت
رائحة البحر المشبعة باليود..

وقفنا منتظمين فى أربعة صفوف.. سيارتا النقل اللتا
جلبتانا إلى هنا متوقفتين على مسافة ليست بالبعيدة..
العشرات من الجنود يحيطون بنا حاملين أسلحتهم..

المكان من حولنا محصور بين أسوار خرسانية -هكذا
بدت لى- شاهقة الإرتفاع.. أمامنا مباشرة مبنى صغير
مكون من طابقين، متصل بممر مسقوف بمبنى آخر
هائل الحجم تحيط به صفوف من الأبراج المعدنية
المتصلة بعدد من الأسلاك..

الشمس تحرق رؤسنا والإرهاق بلغ مئاً مبلغه.. كم مر
علينا ونحن هنا وقوف..؟.. لا أدرى.. لم أشعر إلا
والجنود يقتادوننا عبر ممّرات طويلة مضاءة بالنيون
داخل المبنى الكبير.. نسير.. نسير..

- إحنا فين بالضبط..؟..

تساءل (عاشور).. لم يجب أحد بالطبع لأن أحداً لا

يملك جواباً..

ليس هذا بالسجن أو المعتقل.. صحيح أننا نقضى الليل فى زنازين، إلا أن هذه الزنازين تختلف عن مثيلاتها فى السجون الأخرى.. عرفت مساجين عديدين حكوا لى عن فترات سجنهم.. لم أسمع من أى منهم عن زنازين انفرادية خمس نجوم مزودة بدورات مياه..

قال (طحلاوى) وهو يمضغ طعامه:

- آنى أول مرة نسمع عن سجن بينزل رز وخضار ولحمة يوماتى للمساجين..

وبصق (فرحات) على الأرض قائلاً:

- إحنا كده مش ناقصنا غير الدخان ونبقى ميت قل وعشرة..

التدخين غير مسموح به هنا.. شئ غريب أيضاً لم أسمع به ممن حكوا لى عن تجاربهم فى السجون..

جالسين فى الفناء نستدفئ بحرارة الشمس من برد الشتاء القارص.. كم مضى علينا فى هذا المكان..؟.. شهرين أو ثلاثة.. أزعم أننى لولا قلقى على المرأة والعيال لكانت هذه الأيام هى الأكثر راحة لى منذ بدأت العمل فى ورشة الأسطى (طه) قبل خمس وعشرون عاماً..

- إحنا فين بالظبط..؟..

تساءل (عاشور)، وهو ينظر تجاه الرئيس (حمدى)، الذى ظل صامتاً للحظات، قبل أن يقول ببطء:

- منيش عارف.. بس الفار بيلعب ف عبنى..

فى تلك الليلة حدث أمر رهيب..
تنميل غريب سرى فى أطرافى.. فى جسدى كله.. لا
أقوى على تحريك إصبعاً واحداً.. ما الأمر..؟.. هل
أصبت بالشلل..؟.. أم لعله الموت..؟..
أرقد على فراشى.. عيناي مثبتتان على سقف الزنزانة..
البرد شديد.. شديد.. لا بد أنه الموت قادماً.. رغماً عنى
ملأتنى الفكرة خوفاً.. وشعرت بدمعة باردة تغادر
مقلتى..

هل هذا صحيح..؟.. أنا ميت حقاً..؟.. هل هذا هو ما
يحسه الموتى..؟..

لا ألم هنالك.. تنفس..؟.. نعم تنفس.. أنا أتنفس.. إذن
فأنا حى.. ما زلت حياً.. حمداً لله..

عبثاً أحاول تحريك أطرافى بلا جدوى..
كلينج.. كلينج.. (صوت باب الزنزانة إذ ينفتح)..
وجه يطل على من أعلى.. لا أرى بوضوح.. الصورة
أمامى مهتزة كأنما هى مطبوعة على صفحة ماء..
جبهة عريضة.. عينان ضيقتان.. يميل على.. إصبعان
يمتدان ليفتحا عيني اليمنى على اتساعها.. العينان
الضيقتان تحدقان بتركيز..

الوجه يبتعد عنى.. بصعوبة أسمع الصوت وكأنه قادم
من أعماق بئر سحيق:

- خذوا هذا..

لم يكن عدد العساكر كبيراً من حولنا.. ولكن الواحد منهم طول بعرض مثل ضلقة الدولار.. منتفخ العضلات.. يرتدى زياً أسود يشبه زيّ القوّات الخاصة.. البندقية معلقة خلف الظهر.. جهاز اللاسلكى يتدلى من الحزام، وإلى جواره جهاز آخر لم أعرف وظيفته فى البداية، غير أننى رأيت أحد العساكر يستخدمه عندما تشاجر (عاشور) معه ذات مرّة..

(عاشور) ليس ضعيفاً.. عضلاته مفتولة وقلبه ميت لا يخشى شيئاً.. لا أذكر سبب المشاجرة.. لربما وجهه العسكرى السباب له أو العكس.. الأرجح أن (عاشور) هو الذى تحرّش بالرجل، ربما كنوع من جس النبض أو اختبار رد فعل المسؤولين عن المكان.. المهم أن صوتيهما تعاليا، وسمعت السباب البذئ يتدافع من فم (عاشور)، قبل أن يتشابكا بالأيدى.. لمحت العسكرى يسحب ذلك الجهاز من حزامه و يدفعه فى صدر (عاشور)، وفى اللحظة التالية رأيناه - (عاشور) - يسقط أرضاً، وجسده ينتفض بعنف.. فيما بعد فهمت أنّ هذا الجهاز الصغير هو صاعق كهربى..

تجمّدنا فى أماكننا لثوان، قبل أن نندفع نحو الجسد المرتعش.. إلتفّ البعض حول العسكرى يريدون الفتك به، ولكن عشرات العساكر ظهروا بغتة، وراحوا يهوون على الرؤوس والأجساد بهراوات قصيرة..

الألم لم يكن هيئناً على الإطلاق.. الضوء الأبيض الباهر

يخترق حدقتى عينى فيحرقهما.. أحاول إغماضهما بلا
جدوى..

الممر طويل.. طويل..

مصاييح النيون المثبتة فى سقف الممر تتوالى أمام
عينى.. ممدداً فوق تروللى ولا أشعر بجسدى على
الإطلاق.. أميز الأصوات من حولى جيداً.. أزيز
مصاييح النيون.. أصوات احتكاك عجلات الترولى
ببلاط الممر.. أنفاس ذلك الذى يدفع الترولى..
خذوا هذا..

قالها الرجل الذى أطل على فى الزنزانة.. يأخذوننى
إلى أين..؟.. وما الذى سيفعلونه بى..؟.. وما سر هذا
الشلل الذى سيطر على جسدى..؟.. أنا خائف..
المزيد من المصاييح.. المزيد من الضوء الأبيض..
المزيد من الألم..

لم يعد لدى سوى الأنين..

الأنين المحبوس فى الصدر بلا أى قدرة على إطلاقه..

ذات يوم إكتشفنا اختفاء (طحلاوى)..

إقتادنا الحراس بعد الإفطار كما هو الروتين اليومى
إلى الفناء.. جلسنا نرتجف من البرد، والبخار يتكاثف
حول أفواهنا وأنوفنا.. ثم تساءل الرئيس (حمدى) بغتة:
- أمال فىن (طحلاوى)..؟..

تلقتنا حولنا، نبحت عنه.. بالفعل لم يكن موجوداً..

- (عبده).. إنت زنزانتك جنب زنزانته.. ماشفتوش

النهاردة..؟..

- لا والله يا ريس.. أنى لقيت زنانتة فاضية وأنى خارج، ففكرته سبقتنى..
- أمال راح فين..؟..

رائحة غريبة -تذكرنى برائحة المستشفيات- تملأ أنفى.. سقف أبيض ناصع.. مصباح نيون مستدير.. عيناى اعتادتوا الضوء إلى حد ما.. وجه أنثوى رائع الجمال ينظر إلى من أعلى.. عيناى زرقاويتان .. أنف دقيق.. فم مكتنز.. بشرة شاحبة قليلاً.. شعر أشقر ناعم.. معطف أبيض كمعطف الأطباء.. هل هى طبيبة..؟..

أصابعها تعمل بسرعة.. تقيس حرارتى.. تسحب عينة من الدم واللغاب.. أرغب بشدة فى أن أسألها عما حل بى.. ولكننى لا أستطيع بالطبع.. تختفى من أمامى.. أسمع صوت خطواتها تتحرك جيئةً وذهاباً.. ثم أسمع الصوت الرقيق لأول مرة:

- positive ..

فى الأيام التالية تكررت حوادث الاختفاء.. العديد من العقال راحوا يختفون دون سابق إنذار.. طلبنا مقابلة البك الضابط، ولكنه رفض مقابلتنا.. ثرنا، وقامت مشاجرات عنيفة بيننا وبين الحراس، ولكن الصواعق الكهربائية حسمت الأمر تماماً..

وكان من جراء هذه المشاجرات أن عوقبنا بحرماننا من
الساعات اليومية التي كنا نقضيها في الفناء نستدفيئ
بحرارة الشمس.. أغلقت الزنازين علينا، وقبعنا فيها
نرتجف من شدة البرد.. ظللنا على هذا الحال لما يقرب
من إسبوع، حتى جاء ذلك اليوم..

..positive -

لا أفهم ما قالته..؟.. هل أنا سليم..؟.. إذن ما سر هذا
الشلل الذي أصابني..؟..

لم تدع لي فرصة للتساؤل.. وخزة مؤلمة قليلاً في
ذراعي.. أئن بصمت.. بم تحقنينني أيتها العاهرة..؟..
وجه ممتلئ أصلع ذو نظارات يلقي نظرة ثابتة على
وجهي.. يربت على رأسي.. يقول بصوت عميق:

- لا تقلق.. قليل من الألم.. ثم سينتهي كل شيء..

ما معنى هذا..؟.. هل سيجرون لي جراحة..؟..
لماذا..؟.. لعلاج هذا الشلل..؟.. "قليل من الألم".. هو
قال هذا..؟.. إذا كانوا سيجرون لي جراحة فهل
سيفعلون من دون تخدير..؟..

أشعر بأحدهم يدفع التورللي من جديد عبر ممر
قصير.. نصل لغرفة صغيرة.. أيدي عديدة تنزع عني
ثوبي.. لحظات ثم صرت عارياً كما ولدتنى أمي..

كان الوقت عصراً، والجو شديد البرودة، عندما سمعت
صوت باب الزنازة ينفتح.. إعتدلت في فراشي،

ونظرت إلى الحزاس الثلاثة الواقفين على باب
الزنزانة.. أشار إلى أحدهم قائلاً :
- ياللا معانا..

تساءلت:

- على فين..؟..

- (باقتضاب): العيادة..

- خير فيه حاجة..؟..

- هاتعرف هناك..

نهضت معهم.. وفي العيادة، إستسلمت للطبيب الذى
راح يجرى على مجموعة من الفحوصات.. عينة من
الدم.. عينة من البول.. قياس الحرارة.. أشعة على المخ
والبطن.. إلخ.. سألته بقلق:

- إيه الموضوع يا دكتور..؟..

أجاب وهو يفرس إبرة محقن فى ذراعى:

- ولا حاجة يا (عقار).. بنظمن على صحتك بس..

- ولقيت حاجة..؟..

- (مستمر فى الحقن): صحتك زى الفل..

لم أطمأن.. شئ ما فى لهجته لم يريحنى.. كان يتجنب
النظر فى عيني مباشرة..

- وإيه اللى بتديهولى ف الحقنة ده..؟..

- (يسحب الإبرة): مقويات..

أعادونى إلى الزنزانة.. وبعد دقائق بدأت أشعر بتلك
الأعراض..

تميل غريب سرى فى أطرافى.. فى جسدى كله.. لا
أقوى على تحريك إصبعاً واحداً.. ما الأمر..؟.. هل
أصبت بالشلل..؟.. أم لعله الموت..؟..

مثبتاً بأربطة جلدية إلى ذلك المقعد الصلب البارد
كالثلج.. عدد من أصحاب المعاطف البيضاء يتحركون
من حولي.. أياد تتحرك بسرعة على جسدى العارى..
عشرات الإبر والأقطاب تثبت إلى جسدى.. عدد هائل من
الأسلاك يدور حول المقعد، و يتصل بالإبر والأقطاب
المثبتة إلى جسدى..

رعب هائل يكاد يذهب بعقلي.. أود أن أصرخ..
أضرب.. أهرب بعيداً.. بعيداً..

ماذا تفعلون بى يا ولاد الكلب..؟.. ماذا تفعلون..؟..
شعرت بأحدهم من خلفى يثبت شيئاً ما حول رأسى،
ثم لمحت الواقف أمامى يشير له بقبضة مضمومة
وإبهام مرفوع، قبل أن يتحرك من أمامى لأرى من ورائه
إسطوانة ضخمة فى حجم أنبوبة البوتجاز، مكتوب
عليها أرقام بالانجليزية قرأتها بصعوبة..
..(٢٥٥٢٠٠٥)

وفى اللحظة التالية سمعت الصوت الأثنوى (لعله
صوت المرأة الشقراء) يأت من خلفى.. ترطن بكلام لا
أفهم منه شيئاً.. فقط رأيت جميع الموجودين يغادرون
المكان، وسمعت صوت باب يُغلق من خلفى، لأغرق فى
ظلامٍ دامس..

رغمًا عنى، راحت الدموع تنسال ببطء على وجهى..
أصعب شئ ألا تدرى ماذا يحدث لك.. هأنا ذا فى نهاية
المطاف مشلول عاجز مُقيد، غارق فى الظلام، لا أرى،
ولا أفهم شئ مما يحدث لى..

صمت تام فى المكان إلا من أصوات أنفاسى الثقيلة..
تذكرت (محفوظة) والطفلين.. ترى هل مُقدر لى أن
أراهما مرّة أخرى قبل أن أموت..؟..

كيف سيعيشون من دونى..؟.. ما الـ.. آسى..

- أبوكو غَرَق يا عيال..

قالتها أمى صارخة، وراحت تلطم على خديها.. إخوتى
من حولى يبكون ويصرخون، وأنا - ذو الأعوام الثلاثة -
متعلق بجلباب خالى.. لا أفهم شيئاً مما يدور حولى،
ولكننى أرتعش من الخوف.. أسمع خالى ينهر أمى كى
تتوقف عن اللطم والعويل..

- ابن الكلب صاحب العبارة هرب على بلاد بزة،
ومحدث هايعرف ياخذ منه لا حق ولا باطل..

- يعنى الراجل مات، وملوش دية..

جسدى ينتفض بعنف.. ألم بشع يسرى فى جميع
أعضائى.. أجز بقوة بأسنانى فأقضم لسانى.. مذاق الدم
فى فمى.. لمبة صغيرة تعلو أنبوبة البوتجاز أمامى تضئ
بضوء أحمر..

الكهرباء تمزق جسدى.. ألم رهيب.. أنتفض..

أصرخ.. لا صراخ..

لا شئ بيدي سوى الأئين.. الأئين..

والمزيد من الأئين..

كنت أعبث بالحصى، محاولاً أن أصنع منه كومة على
التراب، عندما شعرت بذراع أُمى يطوقنى، ويرفعنى
عالياً.. أجفلت صارخاً:

- فى إيه ياماً..؟..

لم ترد.. راحت تجرى فى الحارة، بينما ذراعها الآخر
متشبت بسبب الكرات والفجل والليمون.. عديدون من
حولها كانوا يجرون أيضاً.. عم (نفادى) بائع الطرشى..
عم (جرجس) صاحب نصة الشاى.. (أم مجدى) بتاعة
الحمام..

- فى إيه ياماً..؟..

لم ترد.. سمعت أصوات سرينة وضجيج عال.. أدت
رأسى فرأيت تلك السيارة الكبيرة تتوقف فى مدخل
الحارة، وعدة رجال ضخام يقفزون من صندوقها
الخلفى.. الناس تحاول الهرب من أمامهم.. يمسون بـ
(عرابى) بتاع الكشرى.. يصرخ مستعظفاً.. يلقون به
فى البوكس، ثم يدفعون عربته.. يلطم على خديه
مولولاً، بينما أوانى المكرونة والعدس والصلصة تسقط
وتنسكب على الأرض.. يرفعون العربة إلى صندوق
سيارتهم..

- فى إيه ياماً..؟..

لم ترد.. الرجال الضخام يمسكون بالناس، ويجمعونهم
فى البوكس.. الكثير من الضجيج.. الكثير من الصراخ
والعويل.. كف ثقيلة تقبض على كتف أمى وتجذبها
للخلف، فتكاد أن تسقطنا أرضاً..

- رايحة على فين يا مزة..؟..

سقط السبب من ذراع أمى، ورأيت ثمار الليمون
والكزات والفجل تتناثر على أرض الحارة، فتدهسها
أقدام الفارين..

- أبوس رجلك يا باشا.. أنى بنجرى على يتامى..

قالتها أمى مستعطفة، وأهوت لتقبل حذاء الرجل، الذى
جذبها بقسوة صائحاً:

- قومى يا بنت ال (.....) مش فاضينليك..

حاولت المقاومة، ولكنه لم يرحمها.. دفعها بقوة نحو
السيارة، فسقطت على وجهها وسقطت معها، وأنا أصرخ
باكياً:

- فى إيه ياماً..؟..

إبر ملتبهة تخرج من الكرسي الذى أجلس عليه..
تنغرس فى أردافى ومؤخرتى.. ألم فظيع فظيع..
يتصاعد فى أنحاء جسدى ليصل إلى رأسى.. البلبل يغمر
أردافى.. لربما كان دماً أو بولاً.. لا أعرف..

الللمبة أعلى أنبوبة البوتاجاز تضى أكثر وأكثر..

أحاول أن أتحرّك بلا نتيجة.. أنا مشلول.. عاجز..

أصرخ.. لا صراخ..

لا شئ بيدي سوى الأئين.. الأئين..
والمزيد من الأئين..

يقع بيتنا فى بدروم عمارة الحاج (عبد السلام
كرواية).. ليست المشكلة فى الرائحة الخائقة أو
الرطوبة التى نخرت عظامنا..

ليست فى الشمس التى لا تدخل المطرح عبر تلك
النافذة الضيقة الوحيدة والتى تعلو رصيف الشارع
بشبرين ثلاثة..

ليست فى أن المطرح عبارة عن حجرة واحدة نتشارك
فيها أنا وأمى وإخوتى (٣ بنات وولد آخر).. ولا فى أنه
ليس لدينا كنيف، وأنا نستخدم دورة مياه عمومية فى
الميدان..

المشكلة الحقيقية هى المجارى.. كل يوم والثانى
نصحو لنجد أنفسنا غارقين فى مياه الصرف التى ملأت
الشارع، وتسلت إلى المطرح من الشباك لتفرقه.. ننهض
سابين لاعنين.. الرائحة خائقة قذرة إلى حد لا يُحتمل..
نخلع ثيابنا، ونبدأ فى محاولات لسد النافذة، ونزح
المياه القذرة التى تغطى الأرض التى ننام عليها..

الآن صار المقعد نفسه ملتهباً ساخناً.. الألم لا يوصف..
الدخان.. أشم رائحة لحم محترق.. لحمى..
اللمبة أعلى أنبوبة البوتاجاز تضى أكثر وأكثر..
أحاول أن أتحرّك بلا نتيجة.. أنا مشلول.. عاجز..

أصرخ.. لا صراخ..

لا شئ بيدي سوى الأنين.. الأنين.. والمزيد من الأنين..

الحارة مليئة برجال الشرطة..

هتف الأسطى (طه) صاحب الورشة:

- بس ده كده يبقى قطع ارزاق يا سعادة الباشا..

قال الضابط بخشونة:

- إنت عايز تخالف التعليمات..؟..

- لا وربنا يا باشا.. الست هانم تأنس وتشرّف وتنور..

وان ماشالتهاش الأرض نشيلوها ف رموش عيننا.. بس

آنى عندى طلبات ف الورشة، ومعاد تسليمها بكرة، ولو

ماسلمتهاش ف معادها هایتخرب بيتى و..

لكزه الضابط فى صدره مقاطعاً:

- (بعصبية): إنت هاتحكيلى قصة حياتك..؟..

مايتخرب بيتك اللا بيت أبوك أنا مالى..

- (بضراعة): بس يا باشا..

- إخلص يا (..) امك.. الورشة تتقفل دلوقت واللا

نشمعها لك والله.. وابقى اشتغل براحتك بعد الزيارة

الزفت ماتخلص..

كنا واقفين بالقرب منهما.. إلتفت الأسطى (طه) إلينا

صائحاً:

- مستنى إيه يا (...) مئك له..؟.. هاتوا ضلفها وغوروا

ف ستين داهية حسبى الله ونعم الوكيل..

كان هذا فى الصباح الباكر، بينما رجال البلدية يغرسون

الأشجار الصناعيّة، ويقىمون صواناً فاحراً إستعداداً
للزيارة التاريخيّة -كما قالوا لنا- التي ستقوم بها
السيدة العظيمة بصحبة السيد المحافظ والسادة
المسؤولين لمعاينة الحى ودراسة مشكلاته على
الطبيعة..

الجسم صلب.. مدبب.. ملتهب.. أشعر به يرتفع ببطء
من قاعدة الكرسي لينغرس فى فلكة مؤخرتى..
يخترقها كما يخترق السكين قالب الزبد الفلاحى.. الدم
-دمى- يتفجر كالنافورة من مؤخرتى.. رائحة البراز..
الألم رهيب.. رهيب...

الللمبة أعلى أنبوبة البوتاجاز تضى أكثر وأكثر..
أحاول أن أتحرّك بلا نتيجة.. أنا مشلول.. عاجز..
أصرخ.. لا صراخ..
لا شئ بىدى سوى الأئين.. الأئين..
والمزيد من الأئين..

"يا أيتها النفس المطمئنة. إرجعى إلى ربك راضية
مرضية. فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى"
صدق الله العظيم..

إنتهى العزاء، وانصرف المعزّون، وتم فك الصوان..
راقداً على ظهرى فى الظلام.. صدرى يعلو و يهبط من
الإنهاك.. كان يوماً عصيباً بالفعل.. التفسيل.. الصلاة..
الدفن.. العزاء.. بالقرب من ركن المطرح أسمع صوت

أنين أمى تبكى ابنتها الراحلة..

لكم أحببت شقيقتى.. كنت آخر العنقود، وكانت تكبرنى
بعامٍ واحد، لذا فقد كانت بيننا صلة من نوعٍ خاص
تختلف عن صلتنا بباقي إخوتنا.. مودة أخوية صافية
تحمل شئ من مشاعر الإمومة كانت تغمرنى بها.. عندما
أفكر فى الحيوان المسئول عن ترك عمود الإنارة مفتوحاً
لتخرج منه تلك الأسلاك العارية أكاد أجن.. ما كان
يضيره لو أتقن عمله قليلاً، قام بتغطية فتحة العمود
..!!؟..

إهمال بسيط فى العمل.. الأسلاك خارجة من العمود
تحمل الموت على أطرافها.. الناس تمر بها دون أن
تغيرها انتباهاً.. وحدها أختى تتعثر عند مرورها بجوار
العمود.. تمد يدها لتستند إليه لتحفظ توازنها و..
«يا حبيبتى يا بنتى..»

- نعملكوا إيه..؟.. ده نصيبها.. إعترضوا بقى على قضا
ربنا..

كذا صاح الموظف عندما ذهبنا طالبين مقابلة رئيس
الحى.. بلاغ فى الشرطة.. ثم..
- ماتضيعوش وقتكوا..

قالها أحد أولاد الحلال، فسأله (إسماعيل) أخى الأكبر
عن السبب..

- العالم دى واقفة تسند بعضها.. عندهم الفلوس
والورق والمحامين.. وهايعرفوا يخرجوا م الحكاية دى
زى الشعرة م العجين..

- طب ودم البت اللي راحت..

- يعوض عليكوا ربنا..

.....

.....

.....

.....

الألم رهيب.. رهيب..

اللمبة أعلى أنبوبة البوتاجاز تضى أكثر وأكثر..

أحاول أن أتحرّك بلا نتيجة.. أنا مشلول.. عاجز..

أصرخ.. لا صراخ..

لا شئ بيدي سوى الأنين.. الأنين..

والمزيد من الأنين..

«أنا امي لقا ماتت مازعلتش وحمدت ربنا.. عارفة

ليه..؟.. أصلها اتعذبت أوى قبل ما تموت.. كان عندها

المرض الوحش بعيد عنك.. كنت بنقعد قدامها وهي

بتتوجع وقلبي بيتقطع.. نبكى ونقولها أنى فداكى

ياما.. مآنى ماكانش حيلتى غير الكلام و البكا بعد ما

الداكتور ف المستشفى الميرى قال انه مافيش فايده م

العلاج»

.....

.....

.....

.....

الألم رهيب.. رهيب...

اللمبة أعلى أنبوبة البوتاجاز تضى أكثر وأكثر ..
أحاول أن أتحرّك بلا نتيجة.. أنا مشلول.. عاجز..
أصرخ.. لا صراخ..

لا شئ بيدي سوى الأنين.. الأنين..
والمزيد من الأنين..

«قاللى ان الميَّة اللي بنشربها وسخة.. قلت له ما حنا
طول عمرنا بنشربوها وعاشين زى الفل.. قام زعق فيًا
وقال ان جتتنا ملايانة أمراض»..

«الشظية مزقت ذراعك وسببت الغرغرينة.. للأسف
ماكانش قدامنا غير البتر»..

تییییییییییییییــــــــــــــــــــت ..

.....

.....

.....

.....

الألم رهيب.. رهيب...

اللمبة أعلى أنبوبة البوتاجاز تضى أكثر وأكثر ..
أحاول أن أتحرّك بلا نتيجة.. أنا مشلول.. عاجز..

كمال فودة

لكل من أخطائه.. هذا مؤكد..

لكن حين تمدد (منير باشا فودة) -جدي- على الشيزلونج الوثير على ظهر الباخرة (مليكة) المبحرة إلى (مونت كارلو) يدخن سيجاره ويرقب شاطئ (الإسكندرية) وهو يبتعد رويداً رويداً، كان موقناً في أعماقه أنه لم يخطئ..

العام ١٩٥٦.. العسكر أحكموا قبضتهم على كل شبر في البلد.. الملك وحاشيته غادروا إلى (أوروبا).. الألقاب والامتيازات والممتلكات ذهبت.. فقيم بقاءه هو..؟.. كان حاد الذكاء بعيد النظر.. أدرك أن الأمور من بعد حرب (فلسطين) لن تستقر إلا قليلاً.. ربما كان السطح هادئاً بعض الشيء، ولكن ما تحته يغلي بشدة توطئة للانفجار.. الانفجار الذي سيلتهم كل شيء.. السراي والحكومة والأحزاب والباشوات ولربما الاستعمار ذاته.. لذا فلم يضع وقتاً..

«قرار رئيس الجمهورية بتأميم قناة (السويس) البحرية شركة مساهمة مصرية»..

بدأ يصفى أعماله بشكل تدريجي ويحوّلها إلى أموال سائلة، ينقلها إلى بنوك مختلفة في (أوروبا) و(أميركا).. في خلال عامين كان قد هزّب ثلاثة أرباع ثروته خارج (مصر)، وترك الربع الباقي لتغطية نفقات أسرته ومرتبات موظفيه كيلا يثير شبهة السراي أو أي جهة

قد تتربص له..

سطح الباخرة من حوله يعج باليونانيين والإيطاليين واليهود.. الكلمات تنهمر كالمطر بلغات ولهجات مختلفة، ولكن لكنة الحزن مشتركة فى جميع الأحاديث.. كلهم حزين لإضطراره الرحيل..

والآن وهو يلقى نظرات الوداع الأخيرة على (الإسكندرية) المبتعدة فى ضوء الغروب الحزين يمتزج فى قلبه شعورٌ بالأسى لفراقها - وهى المدينة التى شهدت أجمل أيامه - والراحة لنجاحه فى تأمين مستقبل ولديه (حسن) و(فريدة) بما استنقذ لهما من أموال.. سيقضى بعض الوقت فى (مونت كارلو) على سبيل التسرية عن النفس، ثم ينطلق بعدها إلى (نيويورك) حيث تنتظره حياة جديدة ووجوه جديدة وأعمال جديدة فى ذلك البلد الواعد المبشر بفرص رائعة..

..Burn mother fucker

..Burn

..Burn

..Burn

من أغنية لفريق (دروانينج بول)

لو ألقيت -عزى (محيى الدين)- نظرة داخل البوتقة (المصطلح الذى نطلقه على الغرفة المخصصة لإنتزاع

السيال الحيوى من العينة) على البطارية المتصلة بالمقعد الذى ثبت إليه العينة لوجدت أسلاكاً دقيقة تخرج منها لتغادر المكان من خلال أنبوب مخصص لها فى الجدار.. هذه الأسلاك تحمل طاقة السيلال الحيوى المختزنة لتنقلها داخل الأنبوب عبر ممر رأسى COURT خاص يصعد بها طوابق المبنى حتى تصل إلى قدس الأقداس أوغرفة المحولات..

تقع غرفة المحولات فى الطابق الأخير من (هالبرتون)، وتتمتع بنظام تهوية وتبريد آلى خاص.. جميع خطوط الأنابيب القادمة من البطاريات المختلفة تصب فى المحوّل الذى يستقبل الطاقة الحيويّة، ويبدأ فى تأيينها باستخدام شحنات مضادة.. يتم التأيين على عدة مرّات، وفى النهاية تخرج الطاقة الكهربيّة الصافية من الجانب الآخر من المحوّل ليتم توزيعها على الخلايا الكهربائيّة..

كانت هذه الإكتشافات هى ثمرة ست سنوات متواصلة من البحث والتجارب فى المختبرات المغلقة.. وإذا كانت المرحلتين الأولى (إستخلاص السيلال الحيوى وتخزين طاقته) والثانية (تأيين هذه الطاقة وتحويلها إلى طاقة كهربائية) قد استغرقت هذه السنوات الست، فإن المرحلة الثالثة وهى تسويق هذا الإكتشاف وتحويله إلى مشروع استثمارى لم تستغرق أكثر من عام..

من نافلة القول أنّ (هالبرتون) فرضت سياجاً كاملاً

من السرية حول الأبحاث التي تُجرى في مختبراتها..
لاحظ أن الاكتشاف ذو طبيعة خاصة، وليست أي عقلية
قادرة على استيعابه وتقدير فوائده.. مجرد تسرب
الخبر سيثير جنون الشعوب والحكومات والأمم
المتحدة ومنظمات حقوق الإنسان..

في دولة رأسمالية مثل الـ (States) سهل أن تقيم
بيزنس ضخم طالما لديك التمويل الكافي.. لذا فلم يكن
صعباً على مجموعة رجال الأعمال المالكين لأسهم
(هاليبرتون) - و منهم أبى الملياردير (حسن فودة) -
تأسيس مؤسسة عملاقة هي (نيو ميدل إيست -
إينرجي).. النشاط المعلن هو إنشاء مشروعات لإنتاج
وتصدير الطاقة المتجددة في منطقة الشرق الأوسط،
بينما النشاط الحقيقي (والسرى كذلك بالطبع) هو
استخلاص الطاقة الحيوية من الأجساد المحتضرة
وتحويلها إلى طاقة كهربائية..
أجساد من..؟!..

سؤال غريب.. أجساد سكان هذه المنطقة.. أعني منطقة
الشرق الأوسط بالطبع..

من فضلك لا تكن نمطياً وتثرثر بكلام مستهلك عن
انتهاك الأدمية وحقوق الإنسان والاستغلال و.. و..
أنت رجل عملي مثقف ويمكنك أن تفهمنى بسهولة..
هذه الشعوب تعيش منذ أكثر من خمسة قرون في
ظلام الكهوف بكامل إرادتها.. لست بيولوجيست، ولكننى

أعتقد أن شيئاً ما أو مركب ما فى خلاياهم يدفعهم إلى الاستماتة فى التخلف عن الحضارة.. لا أنكر أن جذورى مصريّة، ولكن هذا لا يعنى أننى مصرى.. أنا أمريكى قلباً وقالباً - والمفروض أنك كذلك أيضاً منذ حصلت على الجنسيّة الأمريكيّة- منذ أول لحظة خطت فيها قدما جدى (منير باشا فودة) على رصيف ميناء (نيويورك).. لذا فأنا أتكلم هنا بحيادٍ علمى خالٍ من أية عواطف إنتماء..

نعم هناك شيئاً ما فى الوعى الجمعى لهؤلاء الناس وبخاصة المصريين منهم يجعلهم يستكينون لكل من يظلمهم.. وكلما زادت شدة الظلم زاد إذعانهم وخضوعهم له.. حقاً أعجز عن تفسير هذا السلوك الشاذسرى الذى ينفردون به بين سائر الشعوب والأمم.. والطريف أنهم يتفننون فى إيجاد المبررات التى تسوغ لهم سلوكهم.. مبررات اجتماعية ودينية وثقافية يفرزونها طيلة الوقت مثل المواد المخدرة التى يفرزها الجسم البشرى ليخفف عن نفسه الألم حال تعرضه لحادث مميت مثلاً..

لو تابعت أخبار (مصر) فى الصحف والمحطات التليفزيونية فى الفترة الأخيرة لوجدت عجباً.. شعب كامل يدهس ويتعرض يومياً لإبادة منظمة بمختلف الوسائل الممكنة وغير الممكنة.. يذكرنى هذا بالإبادة التى تعرض لها الهنود الحمر إبان الاجتياح الأوروبى للعالم الجديد توطئةً لنشأة ما عُرف فيما بعد بـ

(الولايات المتحدة الأمريكية).. لم يدخر الأوربيون وسيلة لقتل الهنود - أصحاب الأرض الأصليين - ابتداءً من ذبحهم وإطلاق النار عليهم، إنتهاءً بالتخلص منهم عن طريق البطاطين الملوثة بالجدرى..

أليس هذا شبيه بما يتعرض له المصريين يومياً..؟!.. مئات (وربما آلاف) يلقون مصرعهم كل يوم فى حوادث الطرق والقطارات المحترقة والعبارات الغارقة.. عشرات الآلاف يتم تسميمهم عمداً سواء عن طريق المبيدات المسرطنة أو مياه الشرب المخلوطة بمياه الصرف الصحى.. دعك بالطبع ممن يموتون من جراء التعذيب داخل أقسام الشرطة ومقار الأمن المختلفة بطول البلاد وعرضها (وهذه النقطة بالذات كانت سبباً رئيسياً فى إختيار هذا البلد لبدء مشروعنا)..

لو كان هذا شعباً محترماً.. أو حتى شعباً يستحق صفة الأدمية لثار على الظلم منذ دهور، ولانتزع حريته بيديه، وانتقم من ظالميه.. ولكنه لم يفعل.. ترك حكامه يعبثون به ويدهسونه بالأحذية، فصار أشبه بقطيع من الأغنام قابع فى الحظيرة ينتظر ذبح الجزار له.. فما الفارق هنا بين جزار وآخر..؟!..

ماداموا مذبحين لا محالة، فلا مانع إذن من يُذبحوا فى آلتنا كي نحصل نحن على سيالهم الحيوى بدلاً من أن يضيع سدى.. على الأقل سيجعل هذا لهم قيمة ما بشكلٍ أو بآخر..

كان قرار مجموعة رجال الأعمال أصحاب المشروع - وهو قرار مستند إلى دراسات اقتصادية وسياسية دقيقة أشرفت عليها بنفسى - أن نبدأ بـ (مصر).. تقدمنا بطلب إلى الحكومة المصرية بإنشاء شركة متخصصة فى إستخلاص وإنتاج الطاقة المتجددة تحت إسم (إيجى - نيرجى)..

- لا أرى أى داع للخوف من رفض الحكومة المصرية للمشروع.. المقابل الذى سيحصلون عليه ليس بالقليل على الإطلاق.. ثم إنَّ الرجل المرشح للتفاوض معه كفيل فى حال موافقته - وهو أمر شبه مضمون- بتسهيل كافة العقبات.. سيضمن لنا موافقة وزارة الاستثمار، وأنَّ أحداً لن يبحث وراءنا، وأنَّ المشروع الحقيقى سيظل سراً لن تعلم به إلا فئة محدودة جداً هى كل من نحتاج إلى معرفته.. كذا قلت فى أحد الاجتماعات..

إبتسامة ساخرة ارتسمت على شفتى أحدهم، وأطلت نظرات مستهزئة من أعين البعض منهم.. شعرت بحنق بالغ كتمته فى أعماقى على الفور.. أعلم - فكرت - أنَّ هؤلاء الحمقى يتشككون فى قدراتى، ولا يرون فى إلا طفلاً يرغب فى العبث بأموال والده.. ولكن صبراً أيها الأوغاد.. ستشاهدوننى وأنا أعمل، وستعلمون حقاً من هو (كمال فودة) وما هى قدراته الحقيقية.. ولأثبتن لكم بأى ثمن أننى لست ظلاً لوالدى، وأننى أفوقه فكراً وتطوراً بمراحل..

لم يستغرق الأمر كثيراً من الوقت بفضل الرشاوى الهائلة التى دفعناها.. قمنا بشراء آلاف الأمتار المربعة فى مناطق متفرقة، وتم إنشاء مزارع للطاقة تسع آلاف البطاريات البشرية، وعدد من المحولات والخلايا.. بالإضافة إلى ديكور تمويهى بارع يشبه إلى حد كبير ماكينات وأجهزة محطات الطاقة المتجددة الحقيقية..

ثم كانت الخطوة التالية هى إتمام الاتفاق السرى الذى أبرم مع واحدة من الشخصيات الهامة جداً فى البلد.. لن أذكر أسماء ولا أماكن ولا تواريخ.. ولكن يكفى أن تعرف أنه بمقتضى هذا الاتفاق تقوم جهات ما بالحكومة بإمدادنا بحاجتنا من البطاريات البشرية بصورة دورية منتظمة.. فى الواقع بدأت المفاوضات الحقيقية مع الجانب المصرى فى هذا الشأن قبل تقديم الطلب الرسمى إلى الحكومة، بل أننا لم نقدم الطلب فعلياً إلا بعد التوصل إلى صورة كاملة للاتفاق..

ولم تكد تمض بضعة أشهر حتى وصلت بالفعل أول شحنة من البطاريات البشرية إلى المزرعة (أفضل أن إسم: المحطة) الرئيسية.. كانوا مجموعة من الفلاحين قاموا بقطع الطريق الدولى وحرقت بعض الممتلكات كنوع من الاعتراض على تجاهل الحكومة المصرية لمشكلاتهم مع مياه الشرب فيما أذكر..

لم يدر البؤساء ما الذى يجرى لهم.. فى البدء نقلناهم إلى المحطة الرئيسية حيث قدمنا لهم رعاية طبية وغذائية فائقة لم يحظوا بمثلها من قبل (تشهد على

ذلك أجسادهم النحيفة ووجوههم السمراء
الممصوصة).. كان هذا نوعاً من التسمين الذى يقوم به
الجزّار للمواشى قبل ذبحها، واستمر الأمر كذلك لما
يقرب من الشهر، حتى وصلت معدلاتهم الصحية
والحيوية إلى المستوى المقبول، وعندها بدأت
الماكينات تعمل، وامتلات البطاريات بسيال حيوى
متدفق..

إحرق ابن سافلة..

إحرق..

إحرق..

إحرق..

من أغنية لفريق (دروانينج بول)

أرجو أن تستوعب كلامى جيداً..

لقد صنعنا بالفعل بروبجندا صاحبة حول مشروعنا..
العشرات من السيمينارات واللقاءات التليفزيونية
والموضوعات الصحفية مدفوعة الأجر فى الصحف
الكبرى، والأفلام التسجيلية التى أشرفت على إنتاجها
واحدة من أكبر الشركات المتخصصة.. كل هذه المواد
تحدثت كثيراً عن أهمية المشروع وفوائده وقيّمته
كعملٍ وطنى يهدف لخدمة (مصر) و.. و..

والحقيقة أن (مصر) بالفعل بحاجة إلى تأمين مصادر
طاقتها وبخاصة مع التناقص المستمر فى مخزونها من

البتترول والغاز الطبيعي وغيرها من الثروات الطبيعية في أرضها.. ولكن إذا سألتك هل لدى الحكومة المصرية المقابل الذي تستطيع به شراء الطاقة التي نستخلصها فبم ستجيب..؟.. لا تحتاج أن تكون عبقرياً كي تجيب بـ «لا».. وضع (مصر) الاقتصادي ينحدر بصورة منتظمة برغم كل الدعايات التي يبثها النظام حول النمو الإقتصادي ومعدلات الادخار وغيرها من الأكاذيب التي تدحضها الدراسات والتقارير المحترمة عن الأداء الاقتصادي المصري.. فلا مجال هنا للحديث عن قدرة (مصر) على شراء الطاقة.. وإذا كنا نتحدث بإسهاب في الفقرات الإعلانية عن تغطية خدماتنا لملايين الوحدات السكنية والصناعية، فهذا كما شرحت لك يدخل في نطاق البروجاندا..

إذا كانت (مصر) غير قادرة على شراء منتجاتنا من الطاقة، فغيرها كثير لديه الحاجة ولديه المقدرة أيضاً.. مثل من..؟..

لن نذهب بعيداً.. (إسرائيل) مثلاً..

عجلات الطائرة تتوقف تماماً على أرضية ممر الهبوط بمطار (القاهرة) الدولي.. السيارة التي تحمل السلم تدنو منها..

«أنا باقول إني مستعد أروح لآخر العالم من أجل السلام»..

باب الطائرة يفتح.. يبرز منه وجه وجسد (حسن

فودة) -أبى- الملياردير الشهير.. حُلة فاخرة.. معطف
ثمين.. منظار شمسي داكن من نوع Rayban يغطي
عينيه.. يتوقف على باب الطائرة.. يتأمل المكان أمامه..
يلتقط نفساً عميقاً..

«وستدهش (إسرائيل) عندما تسمعني أقول أنني على
استعداد للذهاب إلى بيتهم»..

منذ ما يزيد عن العشرين عاماً غادر والده البلاد شبه
مطروود.. صحيح أنه كان محتاطاً لذلك، ولكن هذا لا
يمنع المهانة التي ظلت مصاحبة له حتى وفاته..

يبتسم.. هاهي ذي العجلة قد دارت دورة كاملة يا
باشا، وعادت أبواب (مصر) مفتوحة أمامنا على
مصراعيها..

الحذاء الأمريكي الفاخر يطاء أرض المطار نحو السيارة
الواقفة بانتظاره..

«الكنيست ذاته»..

(تصفيق)..

بالنسبة لي كبيزنس مان أميركي.. (إسرائيل) دولة
مثل أي دولة.. ليس لدى أي نوع من التحفظ على
التعامل معها، بل على العكس أجدها مكاناً للاستثمار
أفضل من كثير غيره.. وهذه كانت نقطة الخلاف بين
والدي وجدى الراحل الذي لم يفتأ يرفض التعامل مع
الإسرائيليين باعتبارهم مغتصبى أرض (فلسطين)..
طبعاً أنا مُقدر لأسباب جدى ودوافعه لإتخاذ هذا

الموقف، ولكننى لا أستطيع التعاطى مع تلك الدوافع،
ولا أرغب فى ذلك أصلاً، ولماذا أفعل..؟!..

لست مصرياً أو سورياً أو فلسطينياً أو عراقياً أو.. أو..
لست عربياً لتكون لدى حساسية تجاه التعامل مع
(إسرائيل).. دعك من أن العرب أنفسهم لم تعد لديهم
تلك الحساسية منذ زمن بعيد، فلم تظن أننى (وأنا
الأميركى القح) لست كذلك أيضاً..؟!..

مكان واحد فقط فى (مصر) هو الذى يستفيد بإنتاجنا
من الطاقة هو منشأة (باراداييس هايتس).. لذا فقد
حرصنا على تزويده بمحطة عالية القدرة تلبى كافة
احتياجاته.. أما الجزء الأكبر فمخصص للتصدير كما
سبق وذكرت لك..

- أنت تفكر فى صناعة القرار الرئاسى.. فما هو ترتيب
أولوياتك اليوم سيادة الرئيس..؟!..
- مصلحة المواطن أولاً.. أى شئ أقوم به أبحث فيه
عن مصلحة المواطن والفئات محدودة الدخل، وتجدنى
فى كل خطبى وكلامى ومرورى أبحث عنه..
من حوار تليفزيونى بين الرئيس (مبارك) والإعلامى
(عماد الدين أديب)- ٢٠٠٥

لكل منا أخطائه.. هذا مؤكد..
ومشروع ضخم مثل مشروعنا ليس استثناءً عن هذه
القاعدة.. لا أتكلم عن الناحية الأخلاقية.. أتكلم عن

مشكلة غريبة برزت بوضوح خلال مرحلة تأيين طاقة
السيال الحيوى..

لاحظ فريق العمل بمعامل (هالبرتون) أن الدكتور
(ويليام أوبرايان) أصيب بحالة من التوتر والأرق
المستمر، وشكا عدة مرّات من هواجس غريبة وأصوات
مريبة يسمّعها أحياناً.. طبعاً اعتبر زملائه هذه الأعراض
نتائج طبيعّية للعمل الشاق المتواصل فى المختبرات
المغلقة لفتراتٍ طويلة، ومنحه البروفيسور (جولدمان)
إجازة ليريح أعصابه، غير أن الدكتور (أوبرايان) عاد من
إجازته أسوأ حالاً مما كان.. إزداد عصبية وتوتراً.. لم يعد
ينام تقريباً.. وبدأ يهلوس بشأن العينات البشريّة التي
نجرى عليها التجارب.. ثم بدأت تصيبه نوبات من
الهيّاج العنيف إندفع خلال إحداها محاولاً تحطيم
الكمبيوتر المتصل ببوتقة التجارب والذي يحمل برنامج
المؤثرات المؤلمة التي تتعرض لها العينة لإنتزاع سيالها
الحيوى، وكاد بالفعل أن يحطمه لولا تكالب رجال الأمن
عليه..

وخلال الأيام التالية تم إجراء سلسلة كاملة من
الفحوص على الدكتور (أوبرايان).. فحوص فسيولوجية
وسيكولوجية عالية الدقة تليق بما لدى (هالبرتون) من
امكانيّات، ثم كانت المفاجأة..

إكتوبلازم

لا يعرف لنفسه اسماً..

بالواقع هو أصلاً لا يعرف لنفسه تعريفاً محدداً، ومن العيب أن نطلب منه أن يفعل، كأن نطلب من أصابع قدمك اليمنى مثلاً أن تعرف نفسها.. نعم هي جزء من كائنٍ حي هو أنت، ولكنها لا تملك إرادتك ولا وعيك بنفسك.. هذا أمر بديهي، وينطبق على جميع أجزاء جسدك وروحك..

إختلافه عن باقى أجزاء الجسد هو أنه أقرب إلى صورة من صور الطاقة.. طاقة حيوية غير مرئية تشع من الجسد نفسه طالما بقى هذا الجسد حياً، فإذا فارقت الحياة، فارقه هو أيضاً معها ليتبدد ويتبعثر فى الفراغ..

إختلافه هو أنه أشبه بشريط سليلويد تنطبع عليه كل التفاصيل التى تلتقطها حواس الجسد الخمسة منذ اللحظة الأولى لدخوله الدنيا، وحتى اللحظة الأخيرة قبل خروجه منها..

علماء البيولوجى والباراسيكولوجى يطلقون عليه أسماء عدّة مثل (السيال الحيوى) و(الإكتوبلازم) و(الأورا) و(السجلات الأكاشية) وغيرها.. ولكن -وأنت تفهم ذلك بالتأكيد- لا يهمه فى شئ، كما لا يهم القط أن يعرف أن اسمه قط أو cat مثلاً..

لعب إيه يا ولية ف الحر ده..؟.. إنتى عاوزه العيال
تجيلها ضربة شمس..؟..

من البديهي كذلك أنه لا يحسب لنفسه عمراً.. خمسة
وأربعون عاماً مزّت عليه بصحبة هذا الجسد المادى
دون أن يشعر، فإحساسه بالزمن مثل إحساسه بأى شئ
آخر: صفر..

اللحظة الوحيدة التى يشعر بها هى لحظة مفارقتها
للجسد المادى.. إنه يشعر بعلامات دنو النهاية، وتراجع
المعدلات الحيوية، فيبدأ لإرادياً فى الاحتشاد، ثم يغادر
ببطء مع انسحاب الروح من الجسد.. غير أن ظروف
معينة قد تدفعه إلى اتخاذ نهج مختلف فى المغادرة..
فعلى سبيل المثال.. جسد مثل هذا تعرّض لمؤثرات
مؤلمة فى غاية القوّة.. الألم الشديد البطئ الناتج عن
احتراق خلايا الجسد أو صعقها بالكهرباء زاد من معدل
احتشاده ودفعه بصورة غير مألوفة.. عملية تعذيب
بطيئة إستغرقت ما يزيد عن الساعة نتج عنها اعتصار
خلايا الجسد ، وخروجه منها بكامل كمّيته..

الجديد هنا هو أنه لم يغادر الجسد ليتشتت فى الفضاء
كما يفعل أمثاله منذ بدء الخليقة.. ما حدث هو أن
أقطاب عديدة موزعة بدقة مدروسة على مواضع
احتشاده وخروجه من الجسد كانت بانتظاره، ظلت
طيلة فترة تعرض الجسد للألم تستقبله وتختزنه فى
حيز مادى آخر..

تبييييييييت..

هو الآن محتجز فى حيز مادي محدد -بطارية رقم (٢٥٥٢٠٠٥)- وهو وضع غريب حقاً بالنسبة له هو الذى اعتاد الارتباط بجسد مادي دونما الاحتواء بداخله.. لو كانت لديه القدرة على الدهشة لأصابه الذهول، ولو كانت لديه القدرة على الخوف لأصابه الرعب من الوضع الجديد غير المألوف له.. لا يدري بالطبع -كما سبق وذكرنا- كم ظل محبوساً.. لربما مزّت عليه لحظات أو دقائق أو ساعات أو أيام.. النتيجة واحدة..

فى لحظة ما إنفتحت ثغرة فى قمة الحيز المادي.. لا إرادياً بدأ كيانه -كالعادة- يحتشد نحو هذه الثغرة.. وهنا حدث الشئ الأكثر غرابة..

- فىن البطيخ يا ولية ..؟..

مايقصدش حاجة وحشة يا حاج لا قدر الله.. هو بس يقصد ان الأستاذ (محمّد حسبو) راجل طيب، والعالم اللى حواليه دول ولاد حرام.. بينيموه بكلمتين حلوتين، ويلعبوا بديلهم من وراه..

لو أن بشرياً تعرض لمثل هذا الأمر، لبدا له أشبه بعاصفة استاتيكية متصاعدة الشدة.. بدأت ببطء، ثم راحت تشتد وتقوى.. ولبدت له الشحنات المضادة أشبه بحبات رمال تضرب كيانه.. هدير قوى يرتفع فى الجوار.. ثمة تغير طفيف يطرأ عليه.. الشحنات المضادة

تندفع نحوه بقوة.. ترتطم به.. كل موضع فى كيانه يرتطم بشحنة مضادة يتأين على الفور.. تجربة فريدة هى من نوعها.. لو كان بشرياً لتعالق صرخاته، ولاشتم رائحة حريق.. الشحنات تضربه بقوة أكبر.. الهدير يتعالى أكثر وأكثر.. كيانه ينتفض بقوة وهو يتحوّل..

.....

.....

.....

.....

.....

.....

يا بت دانتى ضفرك برقبتهم كلهم.. بس الحتت دى مش للى زيننا.. لاهى بتاعتنا ولا احنا بتوعها..
- أخوكى...!!!.. ماشى.. الصبر حلو.. أخوكى...!!!..
ماشى.. الصبر حلو.. آنى النهارده هاندخلوكى السيمما..
الفيلم بتاع (عادل إمام).. وبعديها نرجعو بحرى نتعشو
سمك وجمبرى عند (الراوى)..

إكتمل تحوله..

هو الآن يسرى كطاقة كهربية عبر الأسلاك بسرعة لا تصدق.. تم تمريره على خلايا كهربية خفتت من جهده،
ثم انطلق من جديد..

ولكن ثمة شئ ما يجعله مختلفاً عن أى تيار كهربى

عادي.. شئ غير مادي، لم يتأثر بالتأين الذي تعرّض له
عندما كان لا يزال سيالاً حيويّاً، وتسبب في تحويله إلى
طاقة كهربية..

بالفعل هي ظاهرة خارقة للعادة.. أن يسرى تيار
كهربى عبر الأسلاك، وتسرى معه حزمة من الذكريات
والانفعالات مطبوعة على جزيئات غير مادية من الطاقة
النفسيّة العالقة بالتيار نفسه..

التيار يقطع مئات.. آلاف الكيلومترات حاملاً معه
مئات.. آلاف الذكريات والعواطف والمشاعر..

ونستئى لبكره ليه يا ريس..؟!.. نتوكل على الله
ونفّرّحهم دلوقت.. دى حالتهم ما يعلم بيها الاربنا..
وإيه اللى بتديهولى ف الحقنة ده..؟..

فى لحظة ما حدث الانفصال..
التيار الكهربى يخترق الموصلات ليشعل محرّكات
جهاز التكييف فى تلك الفيلا.. الجزيئات النفسية
العالقة به تصطحبه كعادتها.. ولكن عند تحوّل -
التيار- إلى طاقة حرارية، حدث الانفصال..
طبعاً لم يستغرق الأمر سوى جزء من الثانية.. تحررت
بقايا الطاقة النفسية من ارتباطها بالتيار الكهربى -
السيال الحيوى سابقاً- لتغادر الموصلات وجهاز
التكييف كله، وتسبح ببطء فى فضاء المكان/الفيلا..
يحتاج الأمر إلى جهاز لعمل مجال للأشعة تحت

الحمراء لرؤية الجزيئات النفسية وهي تتسرب عبر فتحات جهاز التكييف لتحتشد في صورة أشبه بالسحابة، ثم تسبح بثقة وروية في الفراغ.. تطوف المكان كله.. تحتك بالحوائط.. بالسقف.. تزحف على الأرضية الباركيه.. ثم ترتفع بسلاسة ملامسة لملاءة الفراش الذى يتوسط الغرفة.. تطوف ببطء حول الجسد الراقد عليه -على الفراش- قبل أن تنحدر نحوه بنعومة.. ثم تفوص خلال جزيئات السعال الحيوى الخاص به..

الجسد نحيف جداً.. غارق فى العرق.. سكسوكة خفيفة تحيط بالفم نصف المفتوح.. جزء من إحدى السنتين الأماميتين مهشم.. وشم صغير مطبوع على إحدى الذراعين يمثل ثعبانين يدوران حول جمجمة قبيحة الشكل..

صاحب الجسد غارق فى سبات عميق.. شكل ولون وحركة سياله الحيوى - لو نظرنا له عبر منظار الرؤية فى مجال الأشعة تحت الحمراء- يؤكد هذا.. غير أن الوضع يختلف عند الإلتحام بالجزيئات النفسية الغازية.. يضطرب السعال الحيوى.. يتغير لونه، وكأن مقاومة ما يخوضها ضد الوافد الجديد.. تمر لحظات من الإحتدام والإضطراب ثم يستقر الوضع من جديد..

صاحب الجسد يستيقظ منزعجاً.. قطرات العرق تغمر وجهه وجسده وتبلل ملاءة الفراش برغم جودة التكييف.. يشعر بأنه ليس على مايرام.. ينهض.. يهرع

بخطوات متعثرة نحو الحقام.. يتقيأ بعنف فى
المرحاض.. يعتدل.. يتمضمض ليغسل فمه من آثار
القئ كربه الرائحة، ثم يغادر الحقام مترنحاً.. يخرج
زجاجة من الخمر من بار صغير فى ركن الحجره يتجرع
منها بنهم ثم يعيدها ويعود هو ليستلقى على فراشه
شاعراً بأنه أفضل حالاً..

ومن جديد يستغرق المهندس (أحمد ممتاز خشبة) فى
سبات عميق غير مدرك بالكيان الجديد الذى التحم
بكيانه ليذمر حياته بالكامل فيما بعد..

كمال فودة

لكل منا أخطائه.. هذا مؤكد..
والخطأ هاهنا كان فى عدم تأين السيال الحيوى
بالكامل.. ثمة جزء ما ظل مستعصياً على التحول إلى
كهرباء.. جزء روحياً غير منظور إلا فى مجال للأشعة
تحت الحمراء.. جزء يظل مرتبطاً بالتيار الكهربى حتى
لحظة تحوله إلى طاقة حركية أو حرارية أو صوتية
حسب الجهاز الذى يُستخدم التيار الكهربى فى تشغيله..
فى هذه اللحظة يتحرر الجزء النفسى من التيار
الكهربى.. ينفصل عنه.. يخترق الأسلاك والموصلات..
يسبح فى الهواء ليختلط بأقرب سيال حيوى له..
أدرك فريق العلماء -مذهولين- هذه الظاهرة الغير
مسبوقة عندما لاحظوا إختلاف طبيعة السيال الحيوى
الذى يشع من جسد الدكتور (ويليام أوبرايان).. قارنوا
الفيلم الذى تم تصويره له فى مجال الأشعة تحت
الحمراء بعد الحالة العصبية التى أصابته بفيلم آخر تم
التقاطه له ولل فريق كله -وفقاً للبروتوكول الذى وضعه
الدكتور (جولدمان)- عند بدء التجارب.. بدا الفارق
واضحاً فى حجم وكثافة ولون السيال الحيوى.. إقترح
البروفيسور (شيفالييه) إعادة التجارب بالكامل فى
مجال الأشعة تحت الحمراء، وبالفعل جلسوا يشاهدون
بأعين مذهولة الجزئيات النفسية تنفصل عن التيار
الكهربى لتطوف ببطء فى فضاء المختبر المظلم..

كانت موافقة وزارة الإستثمار على المشروع هى العقبة الأهم.. غير أن المال لم يدع عقبة إلا وأزالتها.. حدثت مشادات وصدامات عديدة، وتساءل كثيرون عن مغزى المشروع وطبيعته التى استدعت الكتمان الشديد من جانب البرلمان حول جلسة مناقشته.. ظل الموضوع حديث الصحف الحزبية والمستقلة لفترة طويلة نشطت خلالها أجهزة الميديا الخاصة بنا لترويج الغطاء الدعائى الذى سبق وتحدثت عنه منذ قليل..

جرى العمل لتجاوز الأزمة فى مختبرات (هالبيرتون) على محورين:

١ - تشخيص حالة الدكتور (أوبرايان) والبحث عن علاج محدد لها..

٢ - البحث عن وسيلة لمنع خروج الطاقة النفسية من الأجهزة..

بالنسبة للدكتور (أوبرايان)، توصل العلماء إلى أن التلاحم الذى تم بين سياله الحيوى، والطاقة النفسية المنفصلة عن التيار الكهربى (والتي هى فى الأصل جزء من السيلال الحيوى الذى تم انتزاعه من أحد عينات الإختبار البشرية).. هذا التلاحم هو السبب فى حالة الهياج التى أصابته والرؤى التى يراها.. تلك الرؤى التى هى عبارة عن ذكريات مطبوعة على الطاقة النفسية التى غزت كيانه..

هذا عن التشخيص.. فماذا عن العلاج..؟..
تم تعريض الرجل لبرنامج دقيق من الصدمات
الكهربية.. أدت هذه الصدمات إلى انفصال الجزيئات
النفسية الدخيلة عن سياله الحيوى.. رآها العلماء تغادر
فى مجال الأشعة تحت الحمراء، ثم لم تلبث أن تم
اصطيادها وتخزينها فى إسطوانة خاصة معدة لهذا
الغرض ثم تم تعريضها لحرارة عالية أدت إلى تبديدها
تماماً.. بعدها عاد السيال الحيوى للدكتور (ويليام
أوبرايان) طبيعياً كما كان.. صحيح أن حالته النفسية
تدهورت أكثر بعد ذلك، وتم إلحاقه بمصحة نفسية
خاصة، إلا أن العلماء أرجعوا سبب هذا إلى التجربة
النفسية القاسية التى خاضها طيلة الأيام الماضية..
أما بالنسبة للإجراءات المطلوبة لمنع خروج وتحرر
الطاقة النفسية من الأجهزة، فقد قام فريق المهندسين
بعمل بعض التعديلات على تصميمات أجهزة تخزين
الطاقة بحيث تقوم أقطاب خاصة باستقطاب الطاقة
النفسية عن طريق شحنات مضادة، وتقوم بتعريضها
لحرارة عالية للتخلص منها..

إسمعنى جيداً يا صديقى..
ستعود إلى (مصر) خلال الشهور القليلة القادمة..
ستجد كل شئ جاهزاً بانتظارك.. المزارع.. المحطات..
اللوحات.. فريق كامل من التقنيين والمهندسين..
سيكون عليك تولى عبء إدارة المشروع كله.. لا.. لن

يصلح مديراً أمريكياً لهذه المهمة.. هناك مثل عربى قديم سمعته من جدى الراحل يقول «أهل (مكة) أدرى بشعابها».. ثقتى بك وبكفاءتك كبيرة، وهو ذات رأى مجلس إدارة (هالبرتون) فيك بعد الدراسات التى أجريت عنك..

سلطاتك الإدارية شبه مطلقة.. وسيكون عليك إرسال report يومى مفصل إلينا هاهنا.. الدكتور (فرانسيس بولتون) سيسافر معك إلى (مصر) وسيكون مستشارك الأول فيما يتعلق بالنواحى الفنية..

هناك الكثير من البيزنس بانتظارنا عزيزى (محيى الدين).. ليس هذا فقط .. العالم كله والعلاقات بين الدول ستتغير.. كل هذا متوقف على نجاح تجربتنا فى (مصر).. لذا فلك أن تراهن على مدى ماانتظره منك.. لكل منا أخطائه.. هذا مؤكد..

ولكن الخطأ هنا يكلف الكثير والكثير جداً.. فلا تخذلنا صديقى العزيز..

د. يوسف محيي الدين

(التسجيل مُلتقط بواسطة كاميرا رقمية.. الصورة مهزوزة غير واضحة المعالم إلى حدٍ ما.. الإضاءة رديئة.. يظهر في منتصف الكادر رجل أصلع هو (يوسف محيي الدين)، مُقيّد إلى مقعد خشبي.. عارى الجسد، وئمة دماء متجلّطة على جانب وجهه، وكدمة زرقاء حول عينه اليسرى)..

إستقرت في (مصر) منذ مايزيد عن الأعوام الثلاثة كي تتسنى لى متابعة أعمال الشركة الجديدة وتثبيت أقدامها، خاصة وأنها ستكون النواة لإنشاء مشروعات مماثلة في دول عدّة بالمنطقة.. أقطن مع أسرتى زوجتى وطفلى في فيللا ب (باراداييس هايتس) بينما يقع المقر الإدارى الرئيسى للشركة كما تعلم فى حى (الزمالك) ب (القاهرة).. الرحلة بالطائرة لا تزيد عن نصف الساعة، أقضيها صباحاً عند الذهاب فى متابعة صحف الصباح (نيويورك تايمز) و(الواشنطن بوست) و(هيرالد تريبيون) على الإنترنت ومعرفة تطورات البورصة، أما عند العودة فأكون أشبه بجثة هامدة من فرط إرهاق عمل اليوم بطوله.. أتنقل بصورة دورية بين المقر الرئيسى، والمحطات ولوحات التوزيع المتناثرة فى مناطق الساحل الشمالى وشبه جزيرة (سيناء) وعدد من محافظات الدلتا.. أراجع بنفسى سير عمليات

تسمين البطاريات البشرية وتوقيات انتزاع سيالاتها
الحيوية وشحن البطاريات وتأيينها وتقنيات التصدير..
الإتصالات لا تتوقف بينى وبين العديد من المسؤولين..
أح عليهم كى يرسلوا لى المزيد من البطاريات البشرية
لتغطية الطلب الكبير للتصدير، وأتفاوض معهم لإنشاء
المزيد من المحطات فى الوجه القبلى.. المشكلة التى لم
تكن فى الحسبان هى الشراهة الغير متوقعة من
المسؤولين الذين أتعامل معهم.. بالرغم من أننا قد رتبنا
المعاملات المادية منذ البداية، إلا أن مطالبهم راحت
تتزايد بصورة مبالغ فيها كادت تهدد ميزانية المشروع
وتوقف تقدمه، لولا أن بدء تدفق الأرباح بصورة سريعة
أنقذ الموقف..

شكوت الموقف لمستتر (كمال) ذات مرّة على قناة
اتصال مؤمنة بينما الطائرة تحلق بى فوق كثبان شبه
جزيرة (سيناء):

- يبدو أنه أصيب بالسعار.. إنه يطالب بزيادة نسبته ٥
% دفعة واحدة..

- أعطه ما يريد.. هو مهم جداً لنا، ولا غنى عن
خدماته..

- ولكنّه لن يكتفى بهذا.. شهرين أو ثلاثة وسيطالب
بالمزيد..

- لن يفعل..

- و كيف تعلم ذلك..؟..

- سأحادث الرجل الكبير بشأنه.. لا تقلق..

..Burn mother fucker

..Burn

..Burn

..Burn

لا تجعل حديثى يوهمك أننى إنسان قاس لا قلب له..
أنا كما قلت لك أنفاً مرهف الحس جداً، ولا أطيق منظر
الدماء.. هل أخبرتك أننى عضو فى عدد من جمعيات
حقوق الإنسان حول العالم..؟.. هل سمعت عن الحملة
الشرسة التى تزعمتها ضد الحكومة المصرية لمطالبتها
بالتوقف عن قتل الكلاب الضالة رميةً بالرصاص..؟..
صدقنى.. لست وحشاً كما قد توحى طبيعة عملى.. كل
ما فى الأمر أننى أفصل دوماً بين البيزنس وبين أى شئ
آخر، وهذا سر نجاحى..

ثم تعال هنا وأجبنى.. هل كان هؤلاء الذين قد
يعتبرهم ضيقو الأفق ضحايا يعيشون فى الجئنة،
وأخرجناهم نحن منها لنقذفهم فى الجحيم..؟.. لا
أعتقد أن أحداً يمكنه الإجابة بنعم.. إن حياة هؤلاء هى
سلسلة لا تنتهى من البؤس والمعاناة، وخير سبيل
لتغييرها هو إنهاؤها.. هذه الأوضاع نتيجة تراكم
سلبيات على مدى قرون فائتة، وتصويبها يحتاج لتراكم
قرون أخرى قادمة.. إذن فلا مشكلة من الإستفادة
بمعاناة موجودة من الأصل فى تحقيق خدمة لا شك

ففيها للإنسانية.. لا أنكر أنني أحياناً أشعر أن ما نقوم به
أمر مربع.. راودنى هذا خاطر ذات مرّة وأنا أرمق
الفرع المطلّ من عينيّ أحد البطاريات التي يتم إعدادها
للشحن.. رعب هائل حرك مشاعر غريبة بأعماقي،
ودفعني لأن أربت على رأسه مشجعاً..

- لا تقلق.. قليل من الألم.. ثم سينتهي كل شيء..
كنت أعنى كل حرف.. ألم بسيط ثم تنتهي معاناتك
أيها البائس.. معاناتك الممتدة بامتداد عمرك كله.. شعور
عابر بالشفقة سارعت بوأده.. هذا بيزنس.. بيزنس..
والبيزنس لا مشاعر له..

أرجوك إفهمني.. أنا مقدر للفهم الخاطئ الذي قد يكون
دفعك لإختطافي ومعاملتى بهذا الشكل الهمجي،
وباستطاعتي نسيان كل هذا لو تخلّيت عن العنف
وتحاورنا بشكل متحضر.. فنحن في النهاية بشر..

أمل الشافعى

أفهم شعورك وصدمتك جيداً دكتور (حازم) بعد الذى سمعت.. أنا نفسى مررت بذات الصدمة عقب مشاهدتى لذلك الفيلم البشع.. شعرت بأنفاسى تتردد بصعوبة، ثم لم أدر إلا وأنا منكفئة على وجهى أتقيأ ما فى معدتى بالكامل.. لا أعرف كم مرّ على من الوقت جالسة وحدى فى الكارافان بموقع التصوير - حيث استقبلت ملف الفيديو- أحّدق فى شاشة الحاسوب، أتففس بصوت مسموع، والعرق يغمر جبينى وثيابى..

بدأ إحساسى بما حولى يعاودنى.. ألقيت نظرة متقززة على بركة القى الصفراء التى أحدثتها منذ قليل، وملأت رائحتها الكريهة أنفى.. شعرت ببوادر الاختناق من جديد، فأسرعت أغادر الكارافان..

الساعة لم تتجاوز العاشرة صباحاً.. أشعة الشمس الدافئة تغمر المكان، وهواء البحر المنعش يملؤه بهجة، بينما هدير أمواجه يملأ الأذان.. الحركة صاخبة.. العقال والفنييون يتحرّكون كالذباب جيئة وذهاباً.. المخرج يصرخ فى الجميع بعصبية كعادة المخرجين، بينما وقف الباشمهندس (محمود مفيد) - مختص الديكور الجديد- يتناقش مع مدير التصوير لتنسيق عمليهما..

ألتقط نفساً عميقاً.. رائحة البحر مختلطة برائحة الزهور الطبيعية -التى جلبها الباشمهندس (محمود) كجزء من الديكور- تملأ صدرى.. صفحة البحر الزرقاء

تعلوها السماء الصافية إلا من سحب قليلة.. طيور النورس تحلق فى المكان.. سبحان الله.. ما أشد التناقض بين الطبيعة باهرة الجمال كما خلقها الله عز وجل وبين شديد القبح الذى يتفنن الإنسان فى ممارسته ضد الإنسان..

من بعيد.. فى عرض البحر.. تتبدى جزيرة (باراداييس هايتس) كعروس فاتنة كسول راقدة بين الأمواج الزرقاء.. الخضرة تكسوها والقصور الفاخرة تملؤها.. مكان واحد فقط فى (مصر) هو الذى يستفيد بإنتاجنا من الطاقة هو منشأة (باراداييس هايتس).. لذا فقد حرصنا على تزويده بمحطة عالية القدرة تلبى كافة احتياجاته..

هل هذا حقيقى..؟!.. هذه الجزيرة رائعة الجمال بكل ما عليها من قصور وفيلات وملاهى ومولات وأسواق و.. و.. كل هذا يعيش على أنين البسطاء والفقراء..؟!.. هل الصورة حقاً بهذا الوضوح..؟!..

شعرت أن ساقى لم تعودا قادرتين على احتمالى.. جلست على سلم الكارافان الخشبى.. (ميخائيل) مساعدى الشاب يهرع نحوى.. يحدق فى وجهى بقلق..

- ماذا هناك يا ريسة..؟..

أشحت بوجهى مجيبة:

- لا شئ..

قال والقلق يطل من عينيه:

- وجهك أصفر كالليمون، وعينك حمراويتين.. هل

تشعرين بتوَعك..؟..

- قلت لك لم يحدث شيء.. أنا مرهقة قليلاً فحسب بسبب قلة النوم.. إذهب أنت وتابع عملك..
- هل تحبين أن أوصلك إلى البيت..؟..
- لا يا صديقي.. قليل من الراحة أمام البحر وسأكون بخير إن شاء الله..

ظل ينظر إلى متوتراً، فاغتصبت ابتسامة وأنا أقول له:
- إذهب يا فتى ولا تكن لحوحاً كالنساء..
إبتسم قائلاً كلمته المعتادة:

- أمرك يا ريسة..
- إستدار لينصرف، فأسرعت أقول:

- شكراً (ميخائيل)..

- رفع سبابته لأعلى قائلاً بمرح:
- الشكر لله..

راقبته وهو يعود إلى عمله بخطوات نشطة برغم جسده المائل إلى السمنة، ثم عدت إلى الكارافان.. جلست إلى اللاب توب، وفتحت الماسنجر لأجد (أحمد) on - line كما توقعته.. قمت بتشغيل الكاميرا، ورأيت صورته على الشاشة أمامي وعلى شفتيه ابتسامة ظافرة..

- كنت أنتظرك..
- أين أنت..؟..
- (الإسكندرية).. مكتبي القديم..
- هل هو معك الآن..؟..

- معى..

- كيف وصلت له..؟

ضحك قائلاً:

- بمنتهى البساطة..

- كيف..؟

- ظلت أراقب تحركاته شهراً كاملاً.. تأكدت من أنه يمارس رياضته الصباحية يومياً بمفرده حول منزله بـ (الهايتس).. وصباح اليوم تربصت به برفقة بعض الرجال و..

ملامحه هذه المرة مختلفة عن أى وقت آخر.. عارى الجذع رغم برودة الجو.. وجهه أكثر نحولاً.. لحيته طليقة كثيفة، وشعره الأسود طويل منسدل على كتفيه.. أما عيناه، فكانتا تلمعان بشكل مخيف..

- منذ متى..؟

نظر إلى ساعته وأجاب:

- ثلاثة ساعات تقريباً..

- (بحدة): هل تدرك فداحة ما فعلت..؟

بدت الدهشة على وجهه وهو يردد:

- ما فعلت أنا..؟!..

- تختطف الرجل وتعذبه لإستنطاقه.. هل نحن فى غابة..؟

- (بغضب): أمازلت تتساءلين بعد كل ما سمعت..؟!..

غابة..!!! نعم يا مدام.. نحن فى غابة.. ولعل الغابة مكاناً أقل بشاعة، فحيواناتها لا تقتل بعضها البعض إلا

عند الجوع، لا لتزداد ثراء..

كدت أعترض، ولكنّه صاح عبر المايك:

- ماذا أصابك يا (أمل)..؟.. لم «تتصدّرين ف الهايفة»

على غير عهدي

بك..؟.. ألم تستوعبي ما سمعت، أم أنك لم تستمعي

من الأصل..؟..

- (بخفوت): سمعت..

- (ساخراً): ولا ترين بأساً فيما سمعت إلا اختطاف هذا

الحيوان واستنطاقه..؟!..

- (بتوتر): معالجة الخطأ لا تكون بإرتكاب خطأ آخر..

- هذا ليس مجرد خطأ..

- أياً كان ال..

- (مقاطعاً): إسمعيني جيداً.. لست هنا بصدد التعامل

مع أخطاءٍ أو كوارث.. مهمتي انتهت بتوصيل هذه

الإعترافات إليك.. والباقي عليك أنت..

بح صوتي وأنا أسأله:

- ماذا تعنى..؟..

- ملف الفيديو الذي بحوزتك يحمل تفاصيل أخطر

وأقذر جريمة تحالفت فيها القوى الإمبريالية مع الأنظمة

العميلة لا لمص دم شعب كامل.. ولكن لإمتصاص حياته

ذاتها.. دورك يا (أمل) هو فضح هذه الجريمة أمام

المصريين والعالم كله.. لا بد أن يعرف المصريون بما

يُدبر لهم في الخفاء..

سألته بقلق:

- وماذا عنك..؟..
- إبتسم بشحوب فظهرت سنته الأمامية المهشمة..
- قلت لك أن مهمتى انتهت بتوصيل هذا الفيديو إليك..
- أقصد ماذا ستفعل..؟..
- فوجئت به يرفع زجاجة سوداء صغيرة إلى فمه ويرتشف منها فهتفت منزعجة:
- هل تشرب..؟..
- خفض الزجاجة وتجاهل تساؤلى قائلاً:
- لم يعد لى ما أقدمه فى هذه القضية سوى شئ واحد أخير..
- وما هو..؟..
- الإنتقام..
- (بدهشة): ممن..؟..
- (يبتسم بغموض): سأترك هذا لإحساسك..
- نظرت إلى صورته على الشاشة بينما هو يتابع:
- أليست هناك قاعدة دينية تقول العين بالعين والسن بالسن..؟..
- هتفت:
- ولكن
- لست أنت من يقوم بتطبيق هذه القاعدة..
- من إذن..؟..
- ولى الأمر.. الحاكم..
- لم يعلق.. فقط أطلق ضحكة ساخرة سعل بعدها بشدة

قبل أن يبصق على الأرض ثم يرتشف رشفة أخرى من
الزجاجة السوداء الصغيرة..

أسرعت أقول:

- إنتظرنى قليلاً.. سأحضر على الفور..

ألقي نظرة على ساعة يده ثم قال:

- لا وقت يا عزيزتى.. لابد أنهم وصلوا..

- (بقلق): من هم..؟..

لم يجب.. نهض من أمام الكاميرا.. غاب لما يقرب من

نصف الدقيقة، ثم عاد قائلاً بلهجة جادة:

- لقد وصلوا كما توقعت.. رأيتهم عبر النافذة المطلّة

على المنور.. عددهم كبير..

خفق قلبى بقوة وأنا أهتف:

- من هم..؟..

- لا أعرف بالضبط إن كانوا من رجال الشرطة أم رجال

هذا الخنزير.. يرتدون ثياباً سوداء ويحملون الأسلحة..

- (بدهشة): كيف عرفوا مكانك..؟..

رفع هاتفاً خلويّاً أمام الكاميرا..

- تعقبوا هاتفه بالأقمار الصناعية.. أعتقد أن طبيعة

المباني من حولنا لعبت دوراً ما فى تأخر توصلهم

لموضعنا..

- لماذا لم تتخلص منه..؟..

أقصد الهاتف الخلوى.. إبتسم بغموض دون أن يرد..

صحت به:

- إهرب إذن..

- سأفعل يا عزيزتى.. بطريقة أو بأخرى سأفعل..

ومال بوجهه نحو الكاميرا..

- هل تعتقدين أن الله يحبني..؟..

- (بدهشة): ماذا..؟!..

صمت للحظات، قبل أن يقول شارداً ببصره بعيداً وكأنه

يحادث نفسه:

- لقد عشت حياة مترفة حقاً يا (أمل).. كل ما كنت

أطلبه أجده.. فعلت كل شئ يمكن أن تعتبرينه معصية

لله.. أحياناً كنت أتوقف لأسائل نفسي عما إذا كان

راضياً عني رغم كل ما أفعل، وكنت أجيب على نفسي

بأننى لا أؤذى أحداً.. أفعل كل ما أريد دون أن يضار

أحد مما أفعل.. أليس هذا ما يريده الله من أى منّا.. أن

نعيش حياتنا دون أن نؤذى غيرنا..؟..

نظرت إليه مندهشة.. ماذا دهاه..؟..

- (أحمد).. لا تضع الوقت.. إهرب قبل أن يصلوا إليك..

تابع وكأنه لم يسمعنى:

- قديماً سمعت البروفيسور (هيجز) يقول أن قناعات

المعماري الاجتماعية والسياسية لا تنفصل أبداً عن

حرفته.. و بدونها لا يستحق المعماري أن يكون كذلك

فعلاً مهما بلغت حرفيته وبراعته.. وقياساً يمكن القول

بأن قناعات الإنسان سواء أكانت عقائدية أو اجتماعية

أو سياسية لا تنفصل عن إنسانيته، وبدونها لا يستحق

الإنسان هذه الصفة..

لمعت الخاطرة فى ذهنى فى لحظة واحدة..

- قناعتي هي الشر ضروري للتغلب على الشر.. لربما
كان القتل والتعذيب شروراً.. ولكن مع شخصيات مثل
(كمال فودة) و (يوسف محيي الدين) فإنهما ليسا
شروراً.. بل هما العدل.. العدل الذي أمر به الرب في
جميع الأديان والشرائع..

إرتعد جسدي.. هل حقاً ينوي..؟..

هتفت والدموع تحتشد في عيني:

- ولكئلك هكذا لن تفعل شيئاً.. ستخسر حياتك دون
جدوى.. ليس الأمر قاصراً على (يوسف محيي الدين)
وحده.. إنها منظومة متكاملة.. إذا ذهب واحد، فسيحل
آخر محله بمنتهى السهولة..

- لم يعد في الحياة بعد الذي عرفت ما يغريني بالبقاء
فيها.. على الأقل سأتخلص من الكوابيس، ومن أصوات
الأئين التي لا تفارق أذني..

- ولكن الانتحار كفر بالله..

- الله يعلم أنني موقن بوجوده..

- ولكئنه هو الذي نهى عن الإنتحار..

- أنا لن أنتحر..

- ما تفكر فيه هو انتحار..

- إفهميني..

كذا صاح بحدة..

- أنا إنسان ملعون.. أتتني الفرصة لأداء رسالتي في
الحياة، فتخاذلت مع أول عقبة.. كذا فعلت بلا مداراة..
وما أصابني هو لعنة الصمت على الظلم والبؤس.. ومالم

أقم بدورى، ستظل هذه اللعنة ملتصقة بى، وهو ما
أفضل الموت عليه..

- قم بدورك بشكل سلي..

- هذا قرارى الذى اتخذت، ولن أراجع عنه..

وصمت للحظة، ثم قال وقد تغيرت لهجته ولان
صوته:

- أبدأ لم نتفق منذ عرفتك وعرفتني يا (أمل).. ورغم
ذلك لم أحمل لك فى أعماقى إلا مودةً واحتراماً لم
أحملهما لأحدٍ من قبل.. لربما صوّر لك فقدانى إتزانى
وسوء تصرفى معك غير ذلك، ولكنها الحقيقة الوحيدة
فى تعاملى معك منذ التقيتك..

إرتفعت فى هذه اللحظة أصوات طرقات عنيفة على
باب الشقة.. أجفلت لوهلة، بينما بدا هو وكأنه لم يلحظ
شيئاً..

- صديقان..؟..

كذا تساءل رافعاً حاجبيه.. إختنقت الحروف فى حلقى
فلم أستطع الرد.. هزرت رأسى موافقة، بينما خيطان
من الدموع ينسالان على وجهى.. إبتسم بارتياح..
- الوداع إذن يا صديقتى العزيزة..

وقبل أن أتفوه بحرف، كان قد اختفى من أمام
الكاميرا.. لم يقطع الإتصال.. ظل مشهد الحائط الأبيض
المواجه للكاميرا ثابتاً على الشاشة أمامى.. أصوات
طرقات عنيفة على الباب.. خفق قلبى بقوة.. صوت
تهشيم الباب نفسه.. من بعيد أسمع أغنية غريبة ما..

احرق..

أمل الشافعى

لا أذكر أغلب تفاصيل ما حدث بعد ذلك دكتور
(حازم).. فقط أذكر إستلقائى على المقعد الخلفى
لإحدى السيارات.. سحب قليلة تتتابع بسرعة أمام
عينى فى السماء الصافية عبر الزجاج الخلفى ..
الدموع متحجرة على وجنتى.. أسمع صوتى (مفيد)
و(ميخائيل) إذ يتحدثان فى المقعدين الأماميين..
يحملانى حملاً.. مستشفى (مبارك) التخصصى.. الطريق
السريع.. أصوات السيارات المارقة من خلفنا على طريق
الساحل الشمالى.. الممرات الطويلة ذات الجدران
المطليّة بلون أخضر فاتح.. وجه الطبيب يطل على..
رائحة التعقيم.. يتكلم..

- صدمة عصبية..

- أين تقيم..؟..

- تحتاج إلى الراحة..

- مهدئ..

-

-

-

أخطر وأقذر جريمة تحالفت فيها القوى الإمبريالية مع
الأنظمة العميلة لا لمص دم شعب كامل.. ولكن
لإمتصاص حياته ذاتها..

أمى تضرب صدرها بكفها المفتوح.. تهتف بلوعة:
- ماذا أصابها..؟..

(ميخائيل) يجيب لاهثاً وهو يساعدنى على الجلوس
على الأريكة:
- لا تخافى يا حاجة.. فقط هى بحاجة إلى بعض
الراحة..

غابة..!!... نعم يا مدام.. نحن فى غابة.. ولعل الغابة
مكاناً أقل بشاعة، فحيواناتها لا تقتل بعضها البعض إلا
عند الجوع، لا لتزداد ثراءً..

تضع أمامى صينية مرصوفة عليها أطباق الأرز
والخضر وورك فرخة وسلطانية شوربة..
- لقمة واحدة يا (أمول)..
- (يارهاق): لا أستطيع يا ماما..
- لا بد أن تأكلى شيئاً وإلا سقطت مرةً أخرى.. هل
نسيت تعليمات الدكتور..؟..
- (أجذب الغطاء على جسدى): سأفعل بعد أن أستيقظ
إن شاء الله..

أليست هناك قاعدة دينية تقول العين بالعين والسن
بالسن..؟..

تك.. تك.. تك.. تك..

الثالثة صباحاً.. الغرفة غارقة فى الظلام إلا من ضوء
عمود الإنارة فى الشارع والقادم عبر النافذة..
العرق يغمرنى رغم برودة الجو..
أثقلب فى فراشى..

قناعتى هى الشر ضرورى للتغلب على الشر..

تك.. تك.. تك.. تك..

الرابعة صباحاً..
لا أستطيع أن أغفو ولو لدقيقة واحدة..
أدفع الغطاء عنى.. أمدد ساقى.. أحرق فى السقف..

على الأقل سأتخلص من الكوابيس، ومن أصوات
الأنين التى لا تفارق أذنى..

تك.. تك.. تك.. تك..

الخامسة صباحاً..
الله أكبر.. الله أكبر..
أردد الأذان بصوت خافت خلف المؤذن..
صوت قدمى أمى إذ تغادر الحمام بعد أن توضأت..
تدنو.. أراها من موضعى تطل على عبر فرجة باب
الغرفة نصف المفتوح..

وقياساً يمكن القول بأنّ قناعات الإنسان سواء أكانت عقائديّة أو اجتماعيّة أو سياسيّة لا تنفصل عن إنسانيّته ، وبدونها لا يستحق الإنسان هذه الصفة..

صديقان ..؟..

فى بلكونة غرفتى..

ضممت الشال الصوفى على جسدى، ورحت أدخن وأنا أتفقد صحف الصباح الّتى جلبها البواب بحثاً عن أيّة تغطيّة صحفيّة للمعركة الّتى جرت تحت سمعى وبصرى أمس..

لم أجد أثراً لأى شئ فى الصحف القوميّة الثلاثة الكبرى.. أما الصحف الخاصة، فتحدثت عن معركة بالأسلحة الرشاشة نشبت فى إحدى البنايات بـ (الإسكندريّة) لم تخلف قتلى أو جرحى، وإن أشار شهود عيان إلى أنّ المعتدين (لم يتعرّفهم أحد) حملوا بعض الجثث أثناء انسحابهم الّذى جرى قبل وصول قوآت الشرطة و..

«نسألك يا من هو الله الّذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن»..

دخلت غرفتى، ونظرت إلى شاشة الموبايل .. رقم ..private

«العزیز الجبار المتكبر ال ..»

.. ضغطت زر OK ..

وسمعت الصوت الرزين..

كمال فودة

أرجو ألا تضايقك لغتى العربية المتعثرة مسز (أمل)..
أعلم أنك تجيدين الإنجليزية، ولكننى أفضل أن نتحدث
العربية على سبيل التدريب لي..

دعيني أدخل في الموضوع مباشرةً بلا مقدمات.. هذا
أسلوبى.. أنت تملكين شيئاً ما يخصنى.. الفيديو الذى
صوره صديقك الأحمق وأرسله لك صباح أمس.. لا
داعى لأى إنكار.. لقد تأكد رجالى من أنه فعل من خلال
ال lap top الخاص به.. عثروا على عنوان ال E- mail
الخاص بك، وعن طريقه جمعوا كل المعلومات بشأنك،
وأرسلوا لى هنا فى (نيويورك) file كامل يحمل كل
تفاصيل حياتك..

ما وصلنى عنك مسز (أمل) أنك إعلامية ذكية طموحة
ومثقفة.. وأعتقد أن طبيعة عملك تتيح لك أن ترى
العالم من حولك بنظرة بانورامية شاملة.. القوة العظمى
الأولى فى العالم - ال states - تسيطر عليها تكتلات
إقتصادية بالغة القوة والضخامة والتعقيد.. والمصالح
المتبادلة بين هذه التكتلات تفرز سياسات وقرارات تؤثر
على المواطن البسيط فى أماكن أخرى بعيدة فمثلاً
مصلحة مجموع شركات السلاح والبتروال والمقاولات
الأمريكية فى الحصول على business فى الخليج
نتج عنها فقدان المواطن العراقى - البعيد بالآلاف الأميال
عن ال states - لأمنه وأحبائه وحياته ذاتها.. هذا مثال

من كثير.. وفي السنوات الأخيرة إزدادت هذه التكتلات
قوةً ونفوذاً، وصارت مثل الإخطبوط لها أذرع في كل
مكان في العالم..

(هالبرتون) واحدة من أقوى هذه التكتلات.. تضم إلى
صفوفها عشرات المؤسسات والشركات ذات الأسماء
المرموقة في جميع المجالات.. لا داعي لأن أذكر لك
بعضها لأنك بالتأكيد تسمعين عنها.. رؤوس الأموال
المساهمة في (هالبرتون) كبيرة حقاً، ويمكن القول بلا
مبالغة أنها هي التي تسيطر على مقاليد الأمور في الـ
states.. ولا يمكن أن يحتل الـ white houes ساكن
إلا بدعمٍ منها، وبالتالي لا نبعد كثيراً عن الحقيقة لو قلنا
أنها فعلياً تحكم العالم..

شركتنا (Egy-Nergy) من أهم المشروعات العملاقة
التي تخضع لـ (هالبرتون)، والأموال التي صرفت عليها
تكفي لسداد الديون الخارجية والداخلية لدولة مثل
(مصر)، والسبب بالطبع أن العائد المنتظر من وراءها
يساوي أضعاف أضعاف المصروفات.. لذا فلك أن
تراهني على مدى استعداد (هالبرتون) -التي تحكم
العالم كما سبق وشرحت- لعمل أي شيء لحماية
إستثماراتها..

كم تساوي قدرة فرد واحد أمام كيان قازي كـ
(هالبرتون)..؟؟.. الإجابة: غير ذات معنى، كحاصل
قسمة أي رقم على الصفر..

أنت سيّدة ذكيّة وطموحة مسز (أمل)، وتعرفين

بالتأكيد متى وكيف تنضمين إلى الجانب الرابع.. وأنا
أحترم الأذكاء وأصحاب الطموح دوماً.. لقد توصل
رجالى إلى ال password الخاصة بال E-mail الخاص
بك.. تسللوا إليه، وقاموا بمحو الفيديو من عليه تماماً..
أى أنه لم يعد هناك أى دليل مادى يمكن أن يشير إلى
نشاط شركتنا الحقيقى من قريبٍ أو بعيد.. وبالتالي لم
يعد هناك وجود لكل التفاصيل التى سمعتها أمس إلا
فى ذهنك فقط..

أصارك القول أنه من الممكن -وبمنتهى البساطة-
أن أمر بالتخلص منك.. قد تكونين سمعتى عنى من
قبل، ولكئلك لا تستطيعين تخيل مدى ما أستطيع القيام
به.. أنا -سيدتى- ملك (مصر) الغير متوج.. نفوذى
ونفوذ والدى متغلغلان فى كل شبر من بلدك.. بإشارة
من إصبعى ينهار الإقتصاد المصرى، وبأخرى يعود
أفضل مما كان.. أملك الأراضى والشركات والمشاريع
والخدمات، وقبل ذلك أملك البشر.. الكراسى..

لذا فعندما أقول لك أن بإمكانى التخلص منك، فثقى
أننى لا أمزح أو أهدد أو أتوعد.. أنا فقط أقرر حقائق..
غير أننى سبق وأخبرتك أننى معجب بذكاءك
وطموحك، وأرى أن تعاونك معنا سيؤدى بالتأكيد لنتائج
أفضل.. so.. إليك عرضى..

أنت إعلامية مسز (أمل)، ولن يبتعد عملك معنا عن
مجال تخصصك.. ستتولين مسئولية مستشارة الدعاية
والإعلان فى (Egy-Nergy).. سأترك لك تحديد

السالري الذى ترينه مناسباً لك.. أى رقم تطالبينه ستحصلين عليه.. لا داعى لأن أحدثك عن مميزات الإنضمام إلى كيان قارى مثل شركتنا.. إنك -وبدون مبالغة- ستغادرين العالم القديم بما يكتظ به من تخلف وتأخر وجمود وسرقة، وستنضمين إلى النظام العالمى الجديد، الذى تمثل شركتنا دعامة رئيسية به (لا تنسى أنها تتحكم فى أهم عناصره: الطاقة).. مقابل إنضمامك..؟.. بسيط جداً.. ستوقعين على عدد من الوثائق والأوراق التى تضمن لى ولائك المطلق..

العرض بسيط و محدد.. (عرض لا يمكن رفضه) بلغة (المافيا).. لأن قبوله يعنى أن تربحى كل شئ، ورفضه ليس فقط أن تخسرى حياتك (فهى لا تمثل شيئاً).. بل ستتحولين إلى ناتج قسمة المجموع على الصفر.. لا معنى لها..

أمامك مسز (أمل) الفرصة للقفز من خندق العناصر غير ذات المعنى فى معادلة العالم الجديد، إلى وضع آخر.. حقيقى ومجسد.. ليس مجرد طنطنة وجعجعة بلا طحين..

Please.. كونى -وهذا لمصلحتك- موضوعية وتحبرى من أية شعارات بالية وحماقات عاطفية.. هلا أبلغتنى بقرارك..؟..

أمل الشافعي

إلتقطت نفساً عميقاً..

- تريد قراراً الآن يا مستر (كمال)..؟..

-..sure

مرّت لحظات من الصمت إلا من أزيز إستاتيكي

مشحون على الأثير..

كم تساوى قدرة فرد واحد أمام كيان قارى ك

(هالبرتون)..؟.. الإجابة: غير ذات معنى، كحاصل

قسمة أى رقم على الصفر..

لقد توصل رجالي إلى ال password الخاصة بال E-

mail الخاص بك.. تسللوا إليه، وقاموا بمحو الفيديو

من عليه تماماً..

أنا - سيدتى - ملك (مصر) الغير متوج.. نفوذى ونفوذ

والدى متغلغلان فى كل شبر من بلدك..

لذا فعندما أقول لك أن بإمكانى التخلص منك، فثقى

أننى لا أمزح أو أهدد أو أتوعد..

لأن قبوله يعنى أن تربحى كل شئ، ورفضه ليس فقط

أن تخسرى حياتك (فهى لا تمثل شيئاً).. بل ستتحوّلين

إلى ناتج قسمة المجموع على الصفر.. لا معنى لها..

Please.. كونى - وهذا لمصلحتك - موضوعية

وتحررى من أية شعارات بالية وحماقات عاطفية..

.....

.....

تمت بصوت مبحوح:

- تحت أمرك ..

.....

.....

.....

صوت طرقات أمى على باب حجرتى الموصد.. فتحت

الباب وعدت إلى التسريحة.. قالت لى لائمة:

- تغلقين الباب على نفسك ساعة كاملة يا (أم..)..

بترت عبارتها و هى تنظر لى بدهشة قائلة :

- لماذا ترتدين ثياب الخروج..؟..

- على أن أغادر الآن يا أمى..

- (مذهولة): بحالتك هذه..؟!..

قلت بينما أعقص شعري إستعداداً لتغطيته بالطرحة:

- لقد صرت على مايرام و الحمد لله ..

لثوانٍ حدقت فى بعينين متسعيتين، قبل أن تندفع

لتقبض على ذراعى قائلة بغضب:

- أنت مجنونة..

نزعت ذراعى برفق من قبضتها وقلت محاولة

الإبتسام:

- لن أجادلك كثيراً فى هذا..

تشببت بذراعى بقوة وهى تقول بشراسة:

- لست أمزح.. ولن أدعك تذهبين..

نظرت إليها مندهشة.. أحقاً ما أرى..؟.. هل هذه

دموع..؟.. هل عرفت شيئاً عن الموضوع..؟.. أم تراه

قلبها الطيب شعر به..؟..

ضممتها إلى صدرى وقلت:

- سامحيني يا ماما.. هذه المرّة لابد لى من الذهاب..

.....

.....

.....

- (بصوتٍ مبحوح): تحت أمرك..

بان الظفر واضحاً فى نبرات صوته وهو يقول:

- That's my girl .. كنت واثقاً من أنك ستتخذين

القرار السليم..

-

- كم يلزمك من الوقت لإرتداء ثيابك..؟..

- (بعد لحظة من الصمت): عشرون دقيقة..

- fine .. أبدلى ثيابك، وستجدين (لاندروفر) سوداء

تحمل رقماً مفرداً بانتظارك أمام مدخل بيتك.. سيكون

المستر (فريد شهاب الدين) المستشار القانونى لـ (Egy

Nergy -) بانتظارك داخلها.. سيكون عليك الذهاب

معه ولا تنسى اللاب توب..

- إلى أين سنذهب..؟..

- ستعلمين فى الوقت المناسب..

.....

.....

.....

رفعت وجهها المبلل بالدموع وهتفت:

- لماذا..؟..

نظرت إلى عينيها الغائمتين المحاطتين بإطارٍ من
تجاعيد ستين عاماً.. ولوهلة شعرت بالضعف..

بالله عليك يا أمي.. لقد اتخذت القرار بصعوبة بالغة..
لست خارقة القوة أو فائقة الشجاعة.. الحصار محكم
على حقاً.. والقرار لم يكن سهلاً بالمرّة.. أرجوك لا
تجعلى الأمور أكثر صعوبة..

كانت تحديق بي منتظرة جوابي على سؤالها.. أشحت
بوجهي قائلة:

- هذا دورى..

لم تكن تعرف أية تفاصيل.. فقط أدرك قلبها أنني
مقبلة على التورط فى مشكلة خطيرة أو السقوط فى
هاوية عميقة..

.....

.....

.....

الجزء الرابع الإختبار

د. حازم أبو زيد

هـمفففف (زفرة)..

طبعاً لست بحاجة إلى أن أصف لك شعوري عقب سماع تلك التفاصيل الرهيبة التي روتها لي.. هو بالتأكيد ذات شعورك الآن.. مزيج من الذهول والصدمة والاستبشاع والشعور بأن العالم الذي تعرفه صار مختلفاً عقب هذه المحادثة عمّا كان قبلها.. دعك من الشعور الطبيعي الذي انتابني بأنّ كل هذا غير حقيقي، أو محض أكاذيب ترددها تلك المرأة..

بعد إنتهاء المكالمة، ولم أدركم ظللت جالساً أحرق في الظلام.. لم أنتبه إلا مع صوت زوجتي القادم من عند باب الغرفة متعجباً:

- (حازم).. ألم تنم..؟..

نظرت إليها وكأنني أراها للمرة الأولى.. صوت أذان الفجر يعلو قادماً من المسجد القريب..

- لماذا غادرت فراشك..؟..

لم أرد..

- ماذا حدث يا (حازم)..؟.. لماذا لا ترد..؟..

إلتقطت نفساً عميقاً وكأنني أستجمع مقدرتي على الكلام..

- لا شيء يا عزيزتي..

إقتربت مني ووضعت أصابعها على كتفي متسائلة
بقلق:

- لماذا هبطت إلى غرفة المكتب..؟..
هل أخبرها بما عرفت..؟.. هل ستتحمل سماع هذه
التفاصيل المرعبة..؟.. عهدي بها أنها قوية مؤمنة،
ولكنها فى النهاية أنثى..
- يدك باردة كالثلج..
بالطبع.. جسدى كله سايب وكأنه الجيللى.. يا إلهى..
أحقاً ما سمعت منذ قليل..؟..
قلت بلهجة حاولت أن تكون هادئة:
- لا تقلقى يا دكتورة.. فقط تذكرت بعض الأعمال التى
يتوجب على أدائها، فهبطت إلى المكتب للإنتهاء منها..
نظرت إلى بتشكك وتساءلت:
- أى أعمال تلك التى لا تستطيع الإنتظار حتى
الصباح..؟..
- (كاذباً): مشروع طرح جراج الجامعة للبيع الذى
ستتم مناقشته غداً إن شاء الله فى مجلس الإدارة..
كان لا بد لى من مراجعته..
ظلت للحظات ترمقنى فى صمت محاولة قراءة ما
يعتمل بداخلى.. الظلال تكسو وجهها، فى حين يبدو
وجهى مكشوفاً أمام عينيها فى ضوء الأماجورة
الصغيرة المجاورة.. الضوء..
حانت منى نظرة جانبية بطرف عيني إلى الأماجورة..
إلى شعلة الضوء المنبعثة منها.. الضوء..
الضوء...
مكان واحد فقط فى (مصر) هو الذى يستفيد بإنتاجنا

من الطاقة هو منشأة (باراداييس هايتس)..

الضوء ..

الضوء.....

هل هذا حقيقى..؟..

ماداموا مذبحين لا محالة، فلا مانع من يُذبحوا فى
آلاتنا كى نحصل نحن على سيالهم الحيوى بدلاً من أن
يضيع سدى.. على الأقل سيجعل هذا لهم قيمة ما
بشكل أو بآخر..

الضوء..

الضوء.....

احرق ابن السافلة ..

الضوء..

الضوء.....

لا شئ بيدى سوى الأنين.. الأنين..

والمزيد من الأنين..

الضوء ..

الضوء.....

الضوء.....

الضوء.....

- (أضغط زر إغلاق الأماجورة ناهضاً بعصبية): صلاة
الفجر وجبت..

لماذا لم أخبرها..؟..

قلت لك لأننى أخشى من وقع هذا الخبر عليها.. لن

يكون هيئناً بالتأكيد.. أنا نفسى -الرجل - ظل جسدى
يرتعد طيلة ذلك اليوم، فما بالك بها..؟..
(لحظات من الصمت)..

.....

.....

.....

.....

لاكونن صريحاً معك.. ليس هذا هو السبب الوحيد..
السبب الآخر هو أننى أردت أن أنفرد بنفسى لأفكر فيما
يمكن عمله بدون أى تأثير خارجى.. كنت أعلم ما
ستقوله (نشوى) لى عندما أقص عليها ما عرفت.. ستلح
على كى أنسى هذا الموضوع تماماً وأبتعد عنه كليئة..
ستتكلم كثيراً عن الباب الذى يأتى منه الريح.. و«إبعد
عن الشر وغنيله» وغيرها من الأمثال والنصائح كى
تصرفنى عن اتخاذ أى رد فعل يمكن أن يثير أية
متاعب.. هى طبعاً تخاف على وعلى المكانة التى
حققتها، ولكن الموضوع هذه المرة -كذا فكرت- أكبر
من أن نتناساه أو نتغاضى عنه.. هناك جريمة بشعة لم
يسبق لها مثيل فى التاريخ، ثرتكب طيلة الوقت فى
حق أعداد غفيرة من البسطاء وعائرى الحظ من أبناء
هذا البلد.. والسكوت عنها بدافع الخوف أو غيره هو
جريمة أبشع عقابها عند الله عظيم..

كان هذا هو ما فكرت فيه وأنا جالس إلى الدكتور
(زكريا) أقص عليه كل ما نما إلى علمى بهذا الشأن..

الجسد متصلب كتمثال ..
الملامح متحجرة لا حياة فيها.. اللهم إلا من اللمعة
المنبعثة من العينين البنيتين من خلف المنظار الطبى
الأنيق..

لمزة أخيرة تعتصر السبابة زناد المسدس، فتخرج
الطلقة من الفوهة بصوتٍ مدو، وفى الفيمتوثانية التالى
تعبر الفجوة التى خلفتها سابقاتها قبل ثوان فى قلب
لوحة التصويب..

هنا فقط تبدأ الحياة تدب فى الجسد الساكن.. تنخفض
اليد حاملة المسدس.. تتزايد التجاعيد على جانبي
الشفيتين مع توالد الإبتسامة الظافرة عليهما.. العينان
ترمقان برضا لوحة التصويب وقد اخترقت الطلقات
قلبها تماماً..

الجسد كله يستدير نحوى.. ينظر إلى مبتسماً وكأنه
يسألنى: ما رأيك..؟..

أبتسم بدورى إبتسامة عريضة وأنا أقول:
- ما شاء الله يا دكتور (زكريا).. تزداد حنكة وبراعة
بمرور الوقت.. score مدهش حقاً..

خلع سدادتى الأذنين من حول رأسه وناولهما مع
المسدس لشاب يقف بالقرب منه وأشار بكفه لى
يدعونى لنغادر ال lane قائلاً:

- لا يمكن أن يمر يوم واحد دون أن آتى إلى هنا
لممارسة الرماية قبل زهابى إلى العمل.. لقد صار هذا

أشبهه بالإدمان..

قلت ونحن نغادر مبنى الرماية فى نادى (Country Club):

- ولكنه إدمان محمود يا دكتور.. لقد أوصانا الفاروق (عمر) رضى الله عنه أن علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل..
ضحك قائلاً:

- فى مثل سننا هذه لا مجال لممارسة السباحة أو ركوب الخيل.. الحمد لله على قدرتنا على الإمساك بالمسدس..

- (بسرعة): متّعك الله بالصحة والعافية دوماً..
سرنا متجاوزين وسط ممزّات وحدائق النادى شبه الخالية إلا من بعض كبار السن الذين يمارسون رياضة المشى، فى تلك الساعة من الصباح.. يتبعنا - عن مسافة مأمونة- رجلان ضخما الجثة يرتديان حلتين فاخرتين ومنظارين داكنين هما بالطبع -الرجلين- الحارسين الشخصيين للدكتور (زكريّا).. ملاعب الجولف الخضراء تمتد لمساحات شاسعة من حولنا، وأصوات الطيور تملأ الآذان.. نظرت إلى السماء الصافية الخالية من الغيوم، فرأيت الشمس تتبدى بكامل فتنتها هذا الصباح..

يا رب العالمين.. الله الله.. صلى على طه الأمين.. الله الله.. واغفر لى والمؤمن...

توقف وألقى نظرة على شاشة هاتفه المحمول، ثم ثبت

السماعة الدقيقة فى أذنه وضغط زر الإيجاب..
- صباح الخير معالى الوزير.. كيف الأحوال..؟..
إبتعدت تادباً كى يتكلم على راحتته، غير أنه أشار لى
بالأ أفعال..

- نعم .. نعم.. بلغنى خبر هذا الإستجواب.. إطمئن
تماماً.. سأكون حاضراً فى هذه الجلسة ولأقلبن المائدة
على رأس هذا الأفاق ومن يحتمى بهم.. لا.. طبعاً
طبعاً.. للأغلبية الكلمة الأولى والأخيرة كالعادة.. عفواً
معالى الوزير.. لا شكر على واجب.. مع السلامة.. مع
السلامة..

وأنهى الاتصال مغمغماً وكأته يحدث نفسه:
- لن تنصلح هذه البلد وأمثالك خارج السجن..
ثم التفت إلى مبتسماً:
- عذراً يا (حازم).. أنت تعلم مشاكل البرلمان..
- كان الله فى عونك يا (د. زكريا)..

ظللت أسير بجواره صامتاً، فى حين راح هو يخف
السير ملتقطاً أنفاساً عميقة، وكأته لم يسمع حرفاً مما
قصصت عليه منذ دقائق أو سمع ولم يكثرث.. فكرت أن
أفتح الموضوع مرة أخرى، ولكننى أطبقت شفتى
مفضلاً إنتظار ردة فعله هو..

(بتؤدة): هل أنت متأكد مما أخبرتنى به..؟..

أسرعت أجيب:

- متأكد جداً..

توقف عن السير، وجذبنى من ذراعى برفق لأجلس

بجانبه على أريكة خشبية مغطاة بوسائد صفراء أنيقة
على جانب الممشى المبلط بالحجارة.. إلتقط أنفاسه
للحظات ثم سألنى:

- هل أخبرت أحداً.. أى أحد.. بهذا الموضوع..؟..

- لا أحد سواك دكتور..

تنهد بارتياح أدهشنى قائلاً:

- عظيم..

نظرت له بدهشة، فالتفت لى وقال:

- تريد نصيحتى..؟..

- بالطبع..

- إنس الموضوع برمته..

- (بدهشة): أنسى الموضوع برمته..؟!..

- (بإصرار): وكأنك لم تسمع عنه شيئاً..

إذن فهو يعرف.. صمّت مصدوماً للحظات قبل أن
أندفع قائلاً:

- ولكن هذه - واسمح لى - يا دكتور (زكريا) جريمة..

والصمت عنها جريمة أكبر..

لم يرد.. ظل صامتاً لبرهة شعرت خلالها بقلبي يهوى

بين قدمي لإندفاعى فى الكلام بهذه الطريقة.. سحب

بيضاء قليلة تسبح فى السماء الزرقاء اللامعة.. ليس

هذا بالرجل الذى يمكن التهور معه..

شرد ببصره متأملاً ملاعب المسطحات الخضراء

المترامية.. ثم قال بهدوء:

- أنت رجل مثقف يا دكتور (حازم) وتعلم أن الخطأ

والصواب هي أمور نسبية تختلف باختلاف الثقافات والأوضاع الإجتماعية والسياسية والإقتصادية وكذلك باختلاف الزاوية التي تقيم الأمور منها، فما نراه نحن خطأ قد يراه غيرنا صواب والعكس صحيح، وليس معنى هذا أن أحداً مخطئ والآخر مصيب، ولكن الصحيح أن كلانا مصيب من وجهة النظر التي يتكلم منها..

بدا لي كلامه عجباً.. لم أنطق بحرف، في حين تابع هو:

- أن هناك معيار ثابت لتقييم الأمور صار معتمداً في جميع دول العالم المتقدمة ألا وهو معيار المكسب والخسارة.. معيار أشبه باللغة العالمية التي يفهمها الجميع ويتحدثونها بطلاقة، وهو - هذا المعيار - كفيلاً بتوحيد الزوايا التي ننظر بها إلى الأمور، وبالتالي إزالة أي خلاف قد ينشأ عن اختلافها..

ومدّ أصابعه ليداعب الخصلات البيضاء الخفيفة التي تغطى صلعته مستطرداً:

- لو نظرت إلى مشروع كـ (إيجى - نيرجى) وفقاً لمعيار الربح والخسارة، فستجد أنه مشروع إيجابي جداً لما يحققه من أرباح بأقل قدر من الخسائر.. هذا مشروع يدرّ على الدولة ملايين الدولارات سنوياً، ويشجع على قدوم المزيد من الإستثمارات الأجنبية إلى (مصر)، وبالتالي يساهم في رفع معدل النمو، وتوفير فرص العمل لآلاف العاطلين و..

رغمًا عنى قاطعته:

- وماذا عن الضحايا..؟..

عقد حاجبيه متسائلًا:

- أى ضحايا..؟..

- (بانفعال): الأبرياء الذين تمزقهم الشركة إرباً لإنتزاع

طاقة أجسادهم..

مط شفثيه قائلاً باحتقار:

- من قال أن هؤلاء ضحايا أبرياء..؟.. إنهم حفنة من

المجرمين والسفّاحين لا يتوزعون عن ارتكاب أبشع

الجرائم والموبقات.. حيوانات مفترسة تركها حزة

طليقة يسبب أشد الضرر للمجتمع الآمن..

قلت محنقًا:

- من الممكن سجنهم أو عقابهم أو حتى إعدامهم،

ولكن تعذيبهم بهذا الشكل أمر بشع ومخالف لجميع

الأعراف والقوانين، وقبل ذلك لشرع الله عزّ وجلّ..

طال صمته هذه المرّة وهو يحدق فيما أمامه بنظرة

زجاجيّة خاوية من التعبير.. عبرت السماء سحابة

ضخمة حجبت قرص الشمس وألقت بظلّ كبير على

المكان..

- أنت بالطبع تعرف الإمام الأعظم الدكتور

(البهنساوى).. ما رأيك فيه..؟..

طافت بذهنى على الفور صورة الرجل الفاضل

بلامحه السمحة ولحيته البيضاء الوقورة، وتذكرت

سلسلة المناصب الدينيّة الهامة التى تولّاها خلال

سنوات عديدة مليئة بالعطاء.. تمتعت:

- عالم جليل.. أحسبه على خير ولا أذكرى على الله
أحداً..

إبتسم قائلاً:

- عظيم جداً.. للدكتور (البهنساوى) رأى خاص بهذا
الشأن الذى نتحدث فيه أراحنى كثيراً.. هل سمعت عن
حد الحراة فى الإسلام..؟..

كنت أعرف الحراة وحدها بالطبع، ولكننى لم أفهم كنه
العلاقة بينه وبين موضوعنا.. قلت:

- (بحيرة): أعرفه..

قال بخشوع:

- يقول المولى عز وجل فى محكم التنزيل: (إِنَّمَا جَزَاءُ
الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعُونَ فِى الْأَرْضِ فَسَاداً
أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلاَفٍ
أَوْ يُنْفَوْا مِّنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى
الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ).. أى أن عقاب المفسدين فى
الأرض هو القتل أو الصلب أو تقطيع الأيدي والأرجل
من خِلاَفٍ أو النفى من الأرض..

فتحت فمى لأتكلّم، ولكنه لم يمنحنى الفرصة:

- من فضلك لا تقاطعنى.. ما تسميهم أنت ضحايا
أبرياء أفتى مولانا (البهنساوى) أنهم ينطبق عليهم
وصف المفسدين فى الأرض، بعد أن ثبتت عليهم تهم
مثل البلطجة أو الإرهاب أو السعى إلى قلب نظام
الحكم أو محاولة تكدير السلم الإجتماعى أو إطلاق

الشائعات المغرضة لتدمير المجتمع أو الإساءة لسمعة الأمة أو.. أو.. إلخ..

وصمت لحظة ليلتقط أنفاسه ثم تابع:

- وماداموا مفسدين فى الأرض، إذن تنطبق عليهم عقوبة المفسد فى الأرض المذكورة فى كتاب الله العظيم.. ويرى الدكتور (البهنساوى) أنه إذا أمكن تحقيق نفعاً إضافياً للأمة من وراء إنزال العقوبة بالمفسدين (وهى عقوبات الغرض منها تعذيب المفسد وتطهيره بالألم)، فلا حرج من ذلك.. وبمعنى آخر.. لا توجد موانع شرعية لتعذيب المفسد فى الأرض، والحصول على الطاقة الخارجة من جسده أثناء إنزال العقاب الشرعى به، مادام فى هذا تحقيق منفعة للأمة.. أجمنى منطقته.. بقيت صامتاً لبرهة أفكر فى كلماته، فى حين تشاغل هو بمراقبة سرب من طيور النورس راح يحلّق فى دوائر قريبة.. كانت أعماقى تفور وتغلى من الحيرة.. هل هذا صحيح..؟.. الرجل يتكلم بمنطق صريح وواضح، ومستند لأدلة شرعية لا شك فيها.. فهل من الممكن أن..

- ومن المسئول عن تصنيف المجرم كمفسد أو غير مفسد..؟..

أجاب على الفور:

- الحاكم باعتباره ولى الأمر.. وأنت مطالب بطاعته حتى لو بدا لك أنه مخطئ..
- ولكن ما علمته يا دكتور هو أن أغلب الطاقة

المستخرجة تُصدّر إلى الخارج..

هز كتفيه قائلاً:

- وما المشكلة طالما أننا نحصل على ما يخصنا من الأرباح..؟..

- ولكن الطاقة تذهب إلى (إسرائيل)..!!..

- (بهدهوء): (إسرائيل) أو غيرها.. ما شأننا نحن بذلك..؟.. هذه تعاملات وسياسات تخص (إيجي - نيرجي) لا دخل لنا بها..

- ولكن..

- (مقاطعاً): لا تنس أن بيننا وبين (إسرائيل) إتفاقية سلام.. والله سبحانه و تعالى يقول: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها و توكل على الله).. أى أنهم شرعاً وقانوناً ليسوا خصوماً لنا، فما وجه الإعتراض على تصدير الطاقة إليهم..؟..

صمّت تماماً.. وضع يده على كتفى قائلاً بابتسامة هادئة:

- هدى من روعك يا (حازم).. أعرف أن الأمر قد يبدو لك مروّعاً فى البداية.. كان كذلك لى أيضاً عندما غرض على أول مرّة، ولكن لو فكرت فيه كما شرحته لك ستجده منطقياً جداً، وبعيداً عن أى شبهة.. لست أنت المسلم الوحيد فى هذا البلد.. كلنا مؤمنين والحمد لله، ولا نرضى أن نبيع آخرتنا مهما كان الثمن..

يا رب العالمين.. الله الله.. صلى على طه الأمين.. الله الله.. واغفر لى والمؤمنين..

كدت أنهض.. أشار لى بالجلوس وهو يثبت المسماع
إلى أذنه اليمنى..

- أهلاً يا (ممدوح).. كيف الحال يا صديقى..؟.. ما
أخبار الطقس لديكم فى (لندن).. ههههه.. أعرف
أعرف.. لقد قضيت شهراً كاملاً من شتاء العام الماضى
هناك.. (صمت للحظات ثم).. القضية..؟.. نعم.. نامت
تقريباً.. أعتقد أنه سيكون بوسعك العودة فى غضون
الأشهر القليلة القادمة.. بالتأكيد.. (بيتسم).. دعهم
ينبحون كما يشاءون.. لا.. لا.. فقط ثق بكلامى..
(صمت للحظات ثم).. حسناً.. فى حفظ الله.. مع
السلامة..

أنهى الإتصال.. أطرقت برأسى أرضاً دون أن أتكلم،
فقال لى:

- إسمعنى جيداً..

رفعت رأسى، فاستطرد بلهجة جادة:

- لا تظن أننى طرف فى هذا المشروع.. أنا فقط لدى
الكثير من التفاصيل بحكم منصبى الرسمى والحزبى..
هذا المشروع يخص أسماء هامة جداً وخطيرة جداً فى
البلد.. ومجرد تساؤلك حوله - أى المشروع - يعرضك
لمخاطر لا قبل لك بها.. فابتعد عنه تماماً..
لم أستطع كبح جماح فضولى.. تجاهلت تحذيره
وسألته:

- أسماء مثل من يا دكتور..؟..

قال بصرامة:

- قلت لك ابتعد تماماً عن هذا الموضوع وكأني لم
تسمع به.. هذه منطقة محظورة محظورة..

ومال نحوي مستطرداً:

- يا (حازم).. أسهمك مرتفعة عند صانع القرار..
واسلوبك في قمع الإخوان داخل الجامعة لقي
استحسان العديدين، وأكثر من مزة سمعت إسمك يتردد
عند الحديث عن التعديل الوزاري القادم..
لم أصدق أذني..

- (بلهفة): حقاً يا دكتور..؟

عادت التجاعيد تتراكم على جانبي شفثيه وهو يبتسم
قائلاً:

- وهل سبق أن كذبت عليك..؟

أسرعت أقول:

- عفواً يا دكتور..

- نحن زملاء دراسة منذ عشرات السنين يا (حازم)..
معزتك لدى كبيرة، وبشكلٍ أو بآخر أعتبرك أحد رجالي
المخلصين.. لذا فنصيحتي لك خالصة.. ابتعد تماماً عن
شركة (إيجي - نيرجي).. إمح الموضوع بالكامل من
ذاكرتك.. أمامك مشوار من النجاح والتقدم، فلا تضع
كل هذا من بين يديك..

وزبت على ركبتي وهو يغمز بعينه مبتسماً:

- يا معالي الوزير..

لم أتمالك نفسي من الفرحة.. صافحته بحرارة وأنا
أهتف:

- جزاك الله خيراً يا دكتور (زكرياً)..
- (مبتسماً): أنت تستحق كل الخير يا صديقى..
- إقترب منّا فى هذه اللحظة رجل ضخم الجثة غزير اللحية تزين وجهه زبيبة صلاة داكنة، وتغطى كتفيه عباءة سوداء فاخرة.. إعترضه حارسا الدكتور (زكرياً)، غير أنّ الأخير أشار لهما كى يسمحا له بالدنو..
- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..
- (نهضنا نصافحه): وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته..
- أشار الدكتور (زكرياً) نحوه..
- الحاج (صالح عبد النعيم).. رجل أعمال..
- ثم..
- (د. حازم أبو زيد).. رئيس جامعة (الإسكندرية)..
- (بابتسامة عريضة): تشرفنا..
- (بابتسامة عريضة): فرصة سعيدة..
- قال الدكتور (زكرياً) محدثاً الرجل:
- كيف الأحوال يا حاج (صالح)..؟ وكيف حال الشيخ (بندر)..؟..
- بخير حال يا (زكرياً) بك.. ويرسل لك خالص تحياته..
- شعرت أنا بأنّ وقتى قد انتهى، فنهضت مستثذناً..
- حييت الرجلين بحرارة، ونظر الدكتور (زكرياً) فى عينى مباشرة وقال وهو يشد على يدي مصافحاً:
- لا تنس ما قلته لك..

- أمرك يا سيدي..

أدرت ظهري لهما منصرفاً وأنا أساءل نفسي متى سمعت باسم الحاج (صالح) هذا من قبل.. تسلل إلى مسامعي صوت دكتور (زكريا) وهو يخاطب صديقه:
- إعتبر أمر المصنع منتهياً يا حاج.. أبلغ الشيخ (بندر) أن موافقة الشركة القابضة صدرت بالفعل.. طبعاً ستكون هناك مناقصة حتى لا يزعجنا أحد و.. و...
ثم غاب صوته - مع ابتعادى - عني.. كانت البهجة تملؤني، ونسيت تماماً موضوع الشركة.. معالي الوزير.. معالي الوزير..

حانت منى نظرة إلى السماء، فوجدت الغيوم الرمادية تملؤها، وقد حجبت ضوء الشمس تماماً.. كيف انقلب الطقس - فكرت - بهذه السرعة من النقيض إلى النقيض..؟!..
سبحان الله...!!!

كانت دهشة زوجتي كبيرة عندما وجدتني أعود إليها في الفيلا بعد ساعة واحدة من مغادرتي.. سألتني وهي تتأمل ابتسامتي:

- هل كان اجتماع مجلس الإدارة سريعاً إلى هذه الدرجة..؟!..

- (بارتياح): لم أغادر الهايتس من الأساس..

- (بدهشة): أين كنت إذن..؟!..

أجبتها وأنا أتجه نحو الدرج الصاعد إلى الطابق العلوي

حيث أجنحة النوم:

- فى الـ (country club) بصحبة دكتور (زكريا)..

هتفت من ورائى:

- هل هناك جديد...؟..

أخبرتها باختصار - حتى أتخلص من فضولها- عن
بشارة الدكتور (زكريا) محاذراً ذكر أية تفاصيل حول
الموضوع الآخر.. وبمجرد أن ولجت جناح النوم،
إستلقيت على الفراش شاعراً بسعادة عارمة ممتزجة
براحة عميقة وكأن عبء ثقيلاً كالجبل إنزاح من على
كاهلى.. حمداً لله العلى القدير..

راحت كلمات الدكتور (زكريا) تتردد بين جنبات رأسى
التي يتسلل إليها النعاس بسرعة بعد سهر ليلة البارحة
الطويل..

.....

.....

يرى الدكتور (البهنساوى) أنه إذا أمكن تحقيق نفعاً
إضافياً للأمة من وراء إنزال العقوبة بالمفسدين، فلا
حرج من ذلك..

.....

.....

وأكثر من مرّة سمعت إسمك يتردد عند الحديث عن
التعديل الوزارى القادم..

.....

.....

أمامك مشوار من النجاح والتقدم، فلا تضع كل هذا من
بين يديك..

.....

.....

يا معالى الوزير..

جالساً أمام عجلة قيادة سيارتى.. بجوارى صف من
أشجار السرو المنتشرة بطول رصيف الشارع..
الساعة الآن السابعة والثلث صباحاً.. الجو بارد.. بارد..
أرفع الجوان إلى شفتى.. أسحب نفساً عميقاً.. أنفث
الدخان فيتكاثف على زجاج السيارة الأمامى..
متوتر..؟.. لا.. ما يملؤنى حالياً هو شعور شديد بالإثارة
والترقب.. كأننى أتابع فيلماً مثيراً على الـ DVD.. ما
يضايقنى فقط هو الإنتظار.. لكم أمقته..
أنظر إلى ساعتى .. السابعة وخمس وعشرون دقيقة..
نفس آخر.. المزيد من الدخان المتكاثف..
هاهوذا..

يرتدى training suit أزرق اللون وينتعل حذاء
كاويتشوكياً لابد أنه من أفخر الأنواع..
يغادر بؤابة فيلته.. يبدأ فى تكرار السيناريو اليومى
بشكلٍ ممل: الحارس الشخصى يتحرك ليتبعه - يشير
له أن يبقى فى مكانه - يبدأ فى الركض وحيداً حول
الفيلا لمدة عشر دقائق فى محاولة للتخلص من بعض
الشحوم التى تكسو جسده الممتلئ - يعود إلى الفيلا

ليغادرها بعد نصف الساعة - وقد اغتسل وأبدل ثيابه -
إلى (باراداييس آير بورت) ليستقل طائرته إلى مقر
الشركة بـ (القاهرة)..

هذا السيناريو المتكرر حفظته جيداً بعد شهر من
المراقبة اليومية.. أنا أعيش هنا فى الهايتس، لذا فمن
السهل على التنقل بين أرجائها والتواجد هنا للمراقبة
يوميّاً دون أن يساءلنى أحد.. من يجرؤ على ذلك..؟..
تمرّ خمسة دقائق.. من موضعى هذا ألحظ بسهولة
الإرهاق البادى عليه بسبب المجهود.. أكاد أسمع صوت
لهائه ودقات قلبه.. مع ذلك يستمر فى الركض..
نفس آخر.. المزيد من الدخان المتكاثف..

من خلف أشجار السرو - من نقطة لا يرصدها الحارس
الخاص- يبرز رجالى الثلاثة.. تتم العملية فى أقل من
خمسة ثوان.. ضربة قويّة على رأسه.. يسقط مغشياً
عليه.. أربعة أذرع مفتولة تتلقى جسده المترهل..
ترفعه.. تلقى به كالجوال فى صندوق السيارة المجاورة
لهم.. ينغلق الصندوق.. تنطلق السيارة بهم جميعاً..
فى اللحظة التالية.. ألقى أنا ما تبقى من الجوان من
نافذة سيارتى..

أحرك ذراع السرعات.. أضغط دواسة الوقود..

ألقيت نظرة على الشيك الموضوع أمامى على
المكتب.. تساءلت:
- ما هذا..؟..

أجاب الأستاذ (يوسف) -مدير الشؤون المالية-
بابتسامة واسعة:

- نصيب سيادتك..

نظرت له دون أن أتكلم، فأسرع يستطرد موضحاً:

- نصيب مكتب سيادتك من مكافأة التصحيح..
تصحيح امتحانات التيرم..

كنت أعرف هذه الأمور بالطبع بحكم السنوات الماضية
التي قضيتها كأستاذ فى الجامعة، غير أن معرفتى بها
شئ، وموقفى منها شئ آخر..

- أضف هذه الأموال إلى حساب مكافآت المصححين،
وقدم لى كشف كامل بها..

بدا عليه الذهول.. ردد بغباء وكأنه يستوضح الأمر:

- مكافآت المصححين...!!..

قلت بصرامة:

- أنت سمعتنى جيداً..

أسرع يقول:

- ولكن يا دكتور.. أعنى أن الدكتور (ماجد رسلان) كان
يحصل على حقه من المكافأة.. ليس هو فقط.. كل من
سبقوه من رؤساء الجامعة كانوا يفعلون.. هذا تقليد
معروف و..

- (مقاطعاً): لا شأن لى بأية تقاليد.. هذه مكافآت

مرصودة للمشاركين فى تصحيح الإمتحانات مقابل
جهودهم.. وأنا لم أشرك فى عملية التصحيح، لذا فلا
حق لى فيها.. مفهوم..؟..

- ولكن يا دك..
قاطعته مرة أخرى:
- (بلهجة حادة): (يوسف).. كلامى يُنفذ من دون
مناقشة..
إحتقن وجهه وهو يقول:
- أمرك يا دكتور..
إلتقط الشيك من على المكتب، واستدار لينصرف، غير
أنه عاد يلتفت إلى قائلاً بتردد:
- وماذا عن نسبة الأمن..؟..
- نسبة الأمن تذهب إلى مكتب العقيد (سليمان قنديل)
على الفور..

اللانشر يشق الأمواج بسرعة هائلة.. الأمواج تعلو
وتهبط، بينما الهواء المثلج يكاد يعصف بنا..
أتشبت بحاجز القارب.. الرذاذ يفرقنا.. الرجال يتبادلون
الحديث والنكات البذيئة.. يقهقون ساخرين.. أستمع
إليهم.. أبتسم.. أقهقه مثلهم..
ألقي نظرة على الجوال الملقى فى قاع اللانشر بالقرب
منى.. شعور جارف بالنشوة يملؤنى.. أمد قدمى لأضعها
على الجوال.. لا حركة.. البغل فاقد الوعى حتى
الآن..؟!.. لا بد أنها كانت ضربة قوية حقاً..
الرجال يتضحكون.. أضحك معهم..
نظرة من وراء كتفى على (باراداييس هايتس) التى
تبتعد من خلفنا.. حقاً كانت مغادرتها بهذا الصيد الثمين

يسيرة.. إجراءات الأمن مشددة فقط على الداخلين إليها.. أما الخارجين منها، فلا أحد يمكنه أن يعترضهم..
دعك من مفعول المال الذى لا مثيل له..
الغيوم تملأ السماء (كذا هى منذ أيام).. بأصابعى أزيح
خصلات شعرى المبتلة الملتصقة بجبينى.. (فتحى) -
الديلر وصديقى القديم من أيام المكتب- يناولنى
جواناً:

- نهارو لبن..

- لبن بحليب..

كذا قلت وأنا أتناول الجوان منه.. إنفجر ضاحكاً
فضحكت معه..

و من أمامنا راح ميناء بحرى القديم يقترب..
ويقترب..

فى ذلك الصباح استيقظت شاعراً بأننى لست على
مايرام.. صداع مؤلم يتملك رأسى، وشعور عام بالإرهاك
يملاً جسدى، بالإضافة لألم غير مألوف فى الظهر..
غريب هذا.. أذكر جيداً أننى أويت إلى فراشى فى
ساعة مبكرة من مساء اليوم السابق.. أى أننى نلت
قسطاً لا بأس به من النوم .. فما سر هذا الصداع
والإرهاك..؟!..

إعتدت جالساً فى الفراش.. ضوء النهار الوليد يتسلل
من بين فرج الستائر التى تغطى النافذة.. ألقيت نظرة
على عقارب الساعة الفسفورية على الكومودينو

المجاور، فوجدتها تشير إلى السادسة صباحاً.. أزحت
الغطاء ونهضت بسرعة لأتوضأ وأؤدي صلاة الصبح قبل
شروق الشمس عندما شعرت بأن هناك شئ ما غير
طبيعي..

تجمدت فى مكانى.. إمتدت أصابعى لتتحسس مقدمة
سرّوال منامتى.. غريب هذا.. السرّوال مبتل تماماً من
أعلاه...!!!.. ليس السرّوال فقط .. بل ولباسى الداخلى
أيضاً...!!!..

جلست على طرف الفراش ورأسى يدور.. ما الأمر..؟..
هل تبولت لا إرادياً..؟.. كيف هذا..؟.. أنا فى الرابعة
والخمسین من عمرى.. وما زال أمامى الكثير حتى أصل
لمرحلة التبول اللاإرادى.. فهل هو مرض أم..؟..

الصداع يمزق رأسى.. مددت أصابعى من جديد
أتحسس البلل.. خلعت السرّوال بالكامل وأدنيته من
أنفى.. لا أثر لرائحة بول على الإطلاق..

سمعت صوت (نشوى) زوجتى يأتى من خلفى محملاً
بالنعاس:

- ما الذى أوقظك مبكراً..؟..

لا شعوراً خففت يدي الممسكة بالسرّوال.. إلتفت إليها
مجيباً:

- الشمس تكاد تشرق.. قمت لألحق صلاة الصبح
حاضرة..

ظلت عيناها مغمضتين.. إبتسامة غامضة إرتسمت
على شفثيها وهى تقول بصوت ناعس:

- لن تجد وقتاً كافياً للإغتسال.. ستشرق الشمس قبلما تفرغ..

هوى على كلامها كالصاعقة.. لن أجد وقتاً كافياً للإغتسال...!!.. إذن فهي تعرف بأمر هذا البلبل الذى أصاب ثيابى.. ولكن كيف...!!..

- ظننت أنك ستنام حتى الظهيرة بعد سهرة الأمس..

سهرة الأمس..!!.. عم تتحدث..!!..

سألتها بانفعال:

- نحن سهرنا بالأمس..؟..

فتحت عينيها.. نظرة عابثة لم أرها منذ زمن بعيد.. ضحكة خافتة..

- شعرت وكأنّ الزمن قد عاد بنا عشرين عاماً إلى الوراء.. سبحان الله.. لم أكن أظن أنك مازلت محتفظاً بعافيتك لهذه الدرجة.. اللهم لا حسد..

الصداع.. رأسى يكاد ينفجر.. ما الذى يعنيه كل هذا..؟.. هتفت:

- عم تتحدثين..؟..

تلاشت ابتسامتها، والتمعت الدهشة فى عينيها، وكأنها تنظر إلى مجنون..

- (بحيرة): هل تمزح أم أنك حقاً نسيت..!!..

- نسيت ماذا..؟..

- ليلة أمس.. عندما نمنا سوياً.. لقد ضاجعتنى بقوة شاب فى أوج عنفوانه...!!..

أكره أن أتحدث عن موضوع شديد الخصوصية
كعلاقتي الجسدية بزوجتي.. أى إنسان يحترم نفسه
وأسرته يفعل.. غير أننى مضطر هذه المرة لأن أكون
صريحاً معك وستعرف السبب بعد قليل..

كما قلت لك.. أنا فى الرابعة والخمسين من عمري..
زوجتى تصغرنى بحوالى أربعة أعوام.. أى أنها بلغت
المرحلة المعروفة بسن اليأس منذ سنوات قليلة.. إنقطع
طمثها، وراح إقبالها على الممارسة الجنسية ينخفض
شيئاً فشيئاً.. وتوافق هذا مع التراجع التدريجى -بحكم
السن- فى قدرتى على الأداء أثناء العلاقة الجسدية..

النتيجة: تباعدت الفترات الفاصلة بين لقاءاتنا
الجسدية لتصل إلى شهور ثم ماهو أكثر مع أعباء عمادة
الكلية.. اللقاء نفسه فى المرات الأخيرة البعيدة لم
يتجاوز دقائق قليلة (مع استخدام منشطات مستوردة)
نستلقى بعدها متهاكين، قبل أن نستغرق فى نعاس
عميق..

لذا -وبعد كل هذه الأعوام- لك أن تتخيل مدى
ذهولى ودهشة زوجتى من قدرتى على مضاجعتها
طيلة الليل «كشاب فى أوج عنفوانه» على حد قولها..
والأكثر إثارة للجنون هو أننى لا أذكر شيئاً من كل
هذا...!!!

ألقيت نظرة من خلف الستائر الزرقاء المتسخة.. كل
شئ فى الشارع طبيعى.. المكتبة.. الفرارجى.. بوتيك

الملابس الحریمی.. محل الفول والفلافل.. العربة
الخشبيّة المحمّلة بثمار الفول الحراتى يقف بجوارها
كهل يرتدى جلباباً ويرفع عقيرته بالنداء على بضاعته..
صبي المقهى يكنس الرصيف أمام أبواب مقهاه.. عايزين
نسمع أبله فضيلة.. راح تحكيلنا حكاية جميلة..

كل شئ طبيعى.. لم يلحظنا أحد ونحن نحمل الجوال
الضخم من السيّارة إلى مدخل البناية..

أعدت الستائر إلى موضعها.. مشيت على الأرض
الموزايكو المتربة، بينما أخلع سترتى وقميصى.. عند
مرورى بجوار المرآة لمحت بطرف عيني جسد النحيل
المشدود وشعري الطويل المنسدل على كتفى، ولحيتى
الكثّة المشعثة .. كم مضى على من الوقت لم أهتم فيه
بتنظيف جسدى..؟.. لا أذكر حقاً..

وقفت فى منتصف الصالة.. تأملت الجسد الممتلى وقد
أخرجه الرجال من الجوال، ونزعوا عنه ثيابه.. تناولت
سكيناً ضخماً من على المنضدة..

أشرت بطرفه إلى الجسد مخاطباً الرجال:

- علقوه..

مطواة سويسريّة.. self- defence.. مجموعة من
شرائط الأقراص المخدرة أعرفها جيداً بحكم عملى..
شريط فياجرا مستورد.. نصف فص من الأفيون..

أشياء تعودت رؤيتها والتعامل معها - بدون تعاطى
طبعاً- أثناء تعاملى مع المدمنين ومرضى الإكتئاب فى

مستشفى الخاص.. لكن بصدق لا أملك تفسيراً
لوجودها في درج الكومودينو المجاور لفراشى...!!..

نظرت عبر شاشة الكاميرا الرقمية.. الصورة ليست
ممتازة، ولكنها تفي بالغرض.. صحيح أنّ الإضاءة معتمدة
إلى حدٍ ما لأننى قمت بإسدال جميع الستائر، ولكن
إضاءة الفلاش مع لمبة السقف ستقوم بعمل لا بأس به..
الجسد العارى الممتلئ معلق إلى جانس بالسقف.. يداه
مقيدتان خلف ظهره.. رأسه يكاد ينفجر بالدماء
المحتقنة فيه.. فمه مكتم.. الدماء متجلطة حول
جروحه، بينما آثار الحروق تملأ الذراعين والمؤخرة.. أما
العينان فمليئتان برعبٍ لا حد له..

الرجال الثلاثة واقفون حول الجسد المعلق.. أولهم
يحمل سوطاً.. الثانى يقبض بأصابعه على عصا خشبية
غليظة، أما الثالث فقد لف على يده سلك كهرباء..الحق
أنهم يستحقون كل مليم تقاضوه وسيتقاضوه بعد
أداءهم الإحترافى طيلة الساعة الماضية..

الجميل أنّ الرجل لم يصدر منه أثناء تعذيبه -بفضل
إحكام الكمامة على فمه- سوى أنين خافت ذكرنى بأنين
الأسطى (عقار) الذى ملأ مسامعى طيلة الشهور
الماضية.. ولكن بحق، كان هذه المرة أشبه بموسيقى
عذبة لا يستطيع (موتسارت) نفسه إبداعها..

إقتربت من الرأس المحتقن.. شعره أشعث.. وجهه
متورم.. قطرات العرق تسيل على بشرته ممتزجة

بالدموع المنهمرة من عينيه.. سألته بصوت هادئ:

- أمازلت مصراً على الصمت..؟..

هز رأسه بعنف.. إبتسمت قائلاً للرجال:

- نزلوه..

زخات المياه الدافئة تنهمر بغزارة من الدش.. تدفع
رغاوى الشامبو والبادى جيل عطر الرائحة.. تنزلق
بنعومة على جسدى العارى المكدود لتتجمع فى البانيو
قبل أن تنساب عبر البالوعة.. الماء الساخن يغمرنى
فيبعث بى إرتياحاً خاصاً يجعلنى لا أرغب فى الخروج
إلى حيث الهواء البارد..

أرفع وجهى لأعلى مستقبلاً القطرات المنهمرة.. أغمض
عينى وأفكر..

هل هو (ألزايمر)..؟..

قفزت إلى ذهنى على الفور الصور الشهيرة فى كتب
التشريح للجداول الليفية التى تتكون على المخ
والممييزة لهذا المرض الرهيب.. برغمى إرتجفت.. أحقاً
هو (ألزايمر)..؟.. أمر وارد.. لربما كان هذا النسيان هذه
أحد أعراضه الأولية.. فقدان متقطع للذاكرة..

زفرت بعمق طارداً قطرات الماء من أنفى، ثم عدت
أستقبل الزخات بوجهى.. إستعدت بالله فى سرى من
الشیطان الرجيم.. لآمل فى سعة رحمة الله.. لعله التوتر
والإرهاق.. لعله خرف الشيخوخة.. لعله أى شىء إلا هذا
المرض المخيف..

أزحت الستارة الرقيقة.. غادرت البانيو بحذر حتى لا
أنزلق على أرضية المسبح المصنوعة من البورسلين..
رحت أجفف جسدى المبتل بمنشفة وردية كبيرة..
أجفف بسرعة.. الجو بارد حقاً.. بخار الماء يملأ فراغ
المسبح.. يتكاثف على الجدران المكسوة بالسيراميك..
أجفف جسدى بعناية..
هنا لاحظت شيئاً..

هرعت إلى المرآة الكبيرة التى تعلو حوض غسيل
الأيدي.. كادت قدمى المبتلتان أن تنزلقا.. مسحت
بكفى بخار الماء المتكاثف على سطح المرآة.. رفعت
ذراعى الأيمن ودققت النظر.. جلدى يقشعر وشعر
ذراعى ينتصب..

متى وأين وكيف انطبع هذا الوشم الصغير لثعبانين
يدوران حول جمجمة قبيحة الشكل على ذراعى..؟!..

إنصرف الرجال أخيراً..
جلست إلى المنضدة.. قمت بإيصال الكاميرا باللاب
توب، ثم حققت الفيديو الذى صورته إليه..
بطرف عيني، ألقيت نظرة عابرة على الجسد العارى
المثخن المقيّد إلى مقعد خشبى بالقرب منى..
الكمامة على الفم تؤدي عملاً طيباً، ورغم ذلك فالأنين
لا ينقطع.. كم هذا ممتع..
فى الدقائق التالية قمت بإرسال الفيلم إليها كملف
مضغوط..

أشعلت جواناً جديداً، وطفقت أنتظر..

تفرّس العقيد (محمد السقّان) فى وجهى وسألنى:

- ماذا هناك...؟..

قلت بابتسامة مرتبكة:

- لا شئ..

رمقنى للحظة وكأّنه يسبر أغوارى بعينيه، قبل أن

يقلب فى أوراق الملف الموضوع على مكتبه قائلاً:

- الإنتخابات القادمة لن تكون سهلة أبداً يا دكتور

(حازم).. نادى أعضاء هيئة تدريس جامعة

(الإسكندرية) موقع مهم جداً، لانريده أن يضيع من

أيدينا كما حدث فى إنتخابات نادى جامعة (القاهرة)

العام الماضى و..

بصعوبة منعت نفسى من التلفّت حولى..

- أساتذة (٩ مارس) يعرفون ذلك جيّداً..

أنا متأكد من أننا -سيادة العقيد وأنا- وحدنا تماماً

فى حجرة مكتبه..

- قائمتهم تضم أسماء قويّة حقاً..

فمن أين يأتى صوت الأنين الذى يملأ مسامعى...!!!..

- منعهم بأى ثمن..

كأنّ أحدهم قد تمزقت أوصاله منذ وقت قليل فى

الجوار...!!!!..

ألقيت نظرة على ساعة يدي ثم قلت لها:

- لا وقت يا عزيزتى.. لابد أنهم وصلوا..

- (بقلق): من هم..؟..

لم أجبها.. نهضت من أمام الكاميرا.. ألقيت نظرة عبر النافذة من خلف الستائر الزرقاء المتسخة..

غريب هذا.. الشارع ساكن تماماً.. لا مازة.. لا سيارات.. المحال كلها مغلقة.. إختفت عربة الفول الحراتى ومعها صاحبها العجوز.. حتى صوت مذياع المقهى الذى لا ينقطع طيلة اليوم لم يعد له وجود..

هواء بارد يهب فيحرك بعض الأوراق القذرة الملقاة عبر الشارع، ويبعث قشعريرة باردة فى جسدى.. شعرت بأحشائى تتقلص من فرط التوتر.. تحركت إلى الردهة.. ألقيت نظرة عبر النافذة المطلة على المنور.. وهنا رأيتهم..

حمداً لله..

جميع الفحوصات وتقارير الأشعة التى أجريتها - بشكلٍ سرى طبعاً- فى مستشفى بالهايتس جاءت سلبية تماماً.. لا مشكلة عضوية لدى فى المخ.. لكن هذا لا يجزم بشئ.. مرض (ألزايمر) لا يمكن تشخيصه إلا بتشريح المخ، وبما أن هذا أمر مستحيل إلا بعد موتى، فلا وسيلة للتشخيص إلا باستبعاد الأمراض الأخرى، ومراقبة ظهور أعراض جديدة له كتهور فى القدرات العقلية أو العجز عن أداء بعض الأعمال اليدوية البسيطة وغيرها..

من هذه الناحية تأكدت من أنني على خير ما يرام..
ذهنى متيقظ دوماً، وأدائى لعملى أفضل ما يكون بدليل
التدابير المحكمة التى اتخذتها لإدارة إنتخابات نادى
أعضاء هيئة التدريس القادمة.. هذا أمر يستلزم تركيزاً
وجهداً كبيرين لا يتوفران لمريض (ألزايمر)..

بأى حال يمكننى الاطمئنان قليلاً للوضع الحالى.. لم
يثبت المرض على بصورة مؤكدة أو حتى شبه مؤكدة..
لأحاولنّ تجاهل ما حدث، وأركز أكثر فى الإنتخابات
القادمة، والأعراض ستفرض نفسها فى حال إصابتى بـ
(ألزايمر) لا قدر الله..

فقط لو يزول هذا الطنين الشبيه بالأنين من أذنى...!!!..

عدت قائلاً بلهجة جادة:

- لقد وصلوا كما توقعت.. رأيتهم عبر النافذة المطلّة
على المنور.. عددهم كبير..

هتفت بانفعال:

- من...؟..

- لا أعرف بالضبط إن كانوا من رجال الشرطة أم رجال
هذا الخنزير.. يرتدون ثياباً سوداء ويحملون الأسلحة..

- (بدهشة): كيف عرفوا مكانك...؟..

رفعت الهاتف الخلوى أمام الكاميرا..

- تعقبوا هاتفه المحمول بالأقمار الصناعيّة.. أعتقد أن
طبيعة المبانى من حولنا لعبت دوراً ما فى تأخر توصلهم
لموضعنا..

- لماذا لم تتخلص منه..؟..
- تقصد الهاتف المحمول.. إبتسمت ولم أرد.. صاحت:
- إهرب إذن..
- سأفعل يا عزيزتى.. بطريقة أو بأخرى سأفعل..

بينما أراجع بريدى فى مكتبى بالجامعة، وجدت
مظروفاً يحمل شعار المؤسسة القانونية التى أتعامل
معها.. فتحته، ورحت أقرأ محتوياته:

عقد بيع أملاك

فى ظل أحكام القانون ٤ لسنة ١٩٩٦

إنه فى يوم

.....

قد باع السيد (سعد نعمان الديب) التابع وكيلاً قانونياً
عن السيد (ممتازنجيب خشبة) بموجب التوكيل رقم
(.....) إلى (حسن سيد الأهل) وكيلاً قانونياً عن
السيد (حازم طه أبو زيد) بموجب التوكيل رقم
(.....) العقار رقم (....) حى (الزهور) قسم ()
باراديس هايتس (بقصد استعماله كسكن شخصى .

وقد اتفق المتعاقدان وهما بكامل الأهلية على البنود

الآتية:

بند ١ :

.....

....

بند ٢

.....:

.....

بند ٣ :

.....

.....

بند ٤ :

.....

.....

.....

.....

رفعت حاجبي متسائلاً:

- صديقان..؟..

لم ترد، وإن بدا التأثير واضحاً على ملامحها.. هزّت رأسها موافقة، بينما خيطان من الدموع ينسالان على وجهها.. إبتسمت بارتياح..

- الوداع إذن يا صديقتي العزيزة..

وقبل أن تتفوه بحرف، نهضت من أمام الكاميرا.. الطرقات قوية على باب الشقة.. كم سيتحمل..؟.. عبرت الصالة بخطوات سريعة واثقة نحو الغرفة الداخلية.. يدي اليمنى تقبض على زجاجة البلاك ليبل الصغيرة، وعندما ممرت بالجسد المقيد إلى المقعد الخشبي، مدت أصابع يدي اليسرى لأقبض على المسند

الخلفى للمقعد وجررته خلفى نحو الغرفة ..

طرقات عنيفة.. الجسد يئن.. يئن..

احرق ابن السافلة..

احرق..

احرق..

احرق..

جررت المقعد بحمله الثقيل و دفعته داخل الغرفة..
العرق يسيل غزيراً على جذعى العارى.. بأصابع مرتعشة
أشعل جواناً أخيراً.. إلى جوارى تستند إلى الحائط
بندقية آلية دفعت لرجالى مبلغاً طائلاً كى يجلبونها
لى.. الطرقات تزداد عنفاً.. حقاً أحسنت التصرف بوضع
المكتب الثقيل خلف باب الشقة ليدعمه..

احرق ابن السافلة..

احرق..

احرق..

احرق..

نفثت دخان الماريجوانا.. نظرت إلى إمارات الهلع
الحيوانى المرتسمة على وجه الرجل.. إبتسمت.. رشفة
من البلاك ليبل.. ثم رفعت الزجاجاة وسكبت ما تبقى
فيها على جسده العارى الجريح..

الطرق شديد حقاً.. الأئين ينقلب إلى صراخ مكتوم..

نفس طويل من السيجارة.. نفثت الدخان بعمق ثم
نظرت فى عينيه مباشرة.. ربث على رأسه الأصلع،
وقلت بصوت عميق:

- لا تقلق.. قليل من الألم.. ثم سينتهي كل شيء..
وفى اللحظة التالية، قذفت ما تبقى من الجوان
المشتعل على جسده الغارق بالكحول..

قال لى:

- لو أردت رأيي يا دكتور (حازم) فهذه الصفقة ليست
ممتازة..

إلتقطت نفساً عميقاً وسألته:

- ماذا تعنى ..؟..

تراجع فى مقعده قائلاً :

- تلك الفيلا التى كلفتنى بشرائها من (ممتاز خشبة)..
لقد دفعنا فيها مبلغاً طائلاً يفوق قيمتها الفعلية بكثير..
صغيرة، وموقعها متطرف بعيد عن الـ down town..
كما أنها ليست مجهزة و..

قاطعته بصوت مرتجف:

- أنا كلفتك بشراء فيلا..؟..

نظر إلى بحيرة وكأنه لا يفهم تساؤلى، قبل أن يقول:

- الفيلا يا دكتور (حازم).. هل نسيت..؟!.. عندما
هاتفتنى الإِسبوع الماضى، وطلبت منى شراءها من
(ممتاز بك) بأى سعر .. لقد أرسلت لك العقد الإبتدائى
منذ يومين.. ألم يصلك بعد..؟..

تمالكت نفسى بمعجزة.. رسمت ابتسامة على شفتى
بصعوبة وقلت:

- نعم .. نعم .. لا تؤاخذنى.. إنها المشاغل كما تعلم..

لقد وصلنى العقد بالفعل..

إبتسم قائلاً:

- كان الله فى العون يا دكتور..

شعرت بالمكان يدور من حولى بينما هو يردف بزهو:
- لقد بذلنا مجهوداً ضخماً لإتمام هذه الصفقة، فالسيّدة
(خشبة) زوجة (ممتاز بك) - كما علمت من وكيله
القانونى- لم تكن ترغب فى بيع الفيلا لأنها تمثل لها
ذكرى خاصة، ولولا السعر الضخم الذى عرضناه لما قبل
(ممتاز خشبة) -رجل الأعمال الفذ- البيع.. ودعنى
أصارك يا دكتور أنى لولا إصرارك على الحصول على
تلك الفيلا لما دفعت فيها أكثر من نصف المبلغ الذى
دفعناه و.. و.....

قبضت بقوة على البندقية الآلية.. هرعت إلى مدخل
الغرفة.. ثنيت إحدى ركبتي أمامى، وارتكزت على
الأخرى على الأرض.. أسندت كعب البندقية إلى كتفى
متخذاً وضع تصوير جيد عند الباب.. الردهة تمتد
أمامى مباشرة حتى باب الشقة الذى بدأ ينهار أمام قوة
الضربات..

الصراخ الشنيع يتصاعد من الجسد المشتعل إلى
جوارى، ورائحة اللحم المشوى تفعم المكان.. الجسد
يتلوى من الألم الرهيب، وينقلب بالمقعد ليسقط على
الأرض..

قلبى ينبض بعنف .. أتنفس بصوتٍ مسموع.. لن

يهضموننى -فكرت- بسهولة.. أزحت بجانب ساعدى
خصلات شعرى الطويلة الملتصقة بفعل العرق على
جبهتى.. رحت أدندن بصوت خفيض بالأمريكية..
احرق ابن السافلة..

احرق..

احرق..

احرق..

الباب والمكتب من خلفه يتهشمان أخيراً.. أجذب إبرة
البندقية.. أرى الأردنية السوداء والخوذات اللامعة..
تنقبض عضلاتى بقوة.. أعتصر زناد البندقية..

الغبار يكسو كل شئ..

تحركت بخطوات وجلة على الأرضية الخشبية تاركاً
آثار أقدامى مطبوعة على الغبار.. الهواء مكتوم.. لابد
أنّ النوافذ مغلقة منذ مدة طويلة.. خطوت نحو النافذة
العريضة فى الحائط المواجه.. أزحت الستائر التى
تغطيها، فتصاعدت منها سحب الأتربة.. سعلت..

ضوء النهار يملأ المكان.. أمد يدي و أضغط مزلاج
النافذة.. أسحب الضلفة المنزلقة، فيندفع الهواء النقى
داخل الصالة..

أدرت عينى فى المكان.. ليست فيلا بالمعنى المفهوم..
هى أقرب إلى شاليه مكون من غرفتين وصالة وحمام
وأوفيس.. الأثاث قليل مكسو بالتراب.. صورة كبيرة لـ
(جيفارا) معلقة على أحد الحوائط، وأخرى لـ (جمال

عبد الناصر) على حائط آخر..

بالرغم من أننى واثق من أنها المرة الأولى التى أرى فيها هذا المكان.. إلا أنه بدا لى مألوفاً.. مألوفاً لدرجة أثارت رعبى..

أنا أعرف هذا المكان جيداً.. أعرفه وكلفت وكيلى بشرائه..

المشهد لا يصدق بالفعل ..

أنا أصرخ بكل قوتى بينما سبابتى تعتصر الزناد..
الطلقات تشق فراغ الردهة من الجانبين.. تتطاير من حولى.. كتلة النيران المجاورة لى تتلوى صارخة.. قطرات العرق واللعاب تتناثر من وجهى وفمى..
البندقية ترتد للخلف مراراً (و هو رد فعل خبرته جيداً)، ومظاريف الطلقات الفارغة تتساقط كالمطر بين قدمى..
كم عددهم..؟.. كم سقط منهم..؟.. لن أعرف أبداً..

احرق ابن السافلة..

احرق..

احرق..

احرق..

سمعت دوى زجاج يتحطم..

إلتفت يساراً بحركة حادة، لأرى أحدهم يخترق نافذة الغرفة مهشماً زجاجها .. يتدحرج على أرضية الغرفة.. ينهض واقفاً ويصوب سلاحه نحوى بسرعة لا تُصدق.. أدت فوهة البندقية تجاهه.. أطلقت النار بلا تردد..

ورأيت جسده يثب إلى الورااء ليرتطم بالحائط قبل أن يسقط على وجهه.. جسد ثانى يعبرالنافذة فى نفس اللحظة.. أدير البندقية نحوه.. أضغط الزناد.. لا شئ إلا تكة معدنية تعلن عن فراغ الطلقات.. أقذف البندقية الفارغة وأندفع نحو الجسد المتشح بالسواد.. يرفع سلاحه نحوى.. أقبض على ماسورة المدفع الالى بأصابع من فولاذ.. أزيحها لأعلى.. الرصاصات تغادر فوهتها بعنف لتصنع خطأ من الثقوب ممتد رأسياً ثم أفقياً من الحائط للسقف.. أنزع السلاح بعنف من قبضته.. ثم ألتحم معه..

ما هذا الصوت..؟..

نتبادل الضربات.. أنا لاعب أيكيدو سابق، وتصبح هزيمتى فى قتال يدوى.. تمر ثوان قليلة قبل أن يفاجأ برأسه بين كفى.. أديره بعنف لأسمع صوت قرقرة مخيفة لفقرات عنقه إذ تتحطم قبل أن يسكن جسده تماماً..

ألقيته أرضاً.. رفعت رأسى إلى مدخل الغرفة.. سحب من الدخان الأبيض قادمة من الردهة.. قنبلة دخان..؟.. إنحنيت لألتقط مسدساً من على الأرض، فوجدت الدماء تغرق بطنى وجانبى الأيمن.. !!.. متى أصبت..؟.. وكيف لم أشعر..؟!.. الدوار ينتاب رأسى.. رفعت كفى الملوثة بدمائى.. أشعر بها تزن اطناناً.. نظرت إليها.. مسحتها بفمى ولحيتى..

احرق ابن السافلة..

احرق..

احرق..

احرق..

الغرفة تدور بى.. أنظر إلى الأرض.. ثلاثة جثث
إحدهم متفحمة تماماً.. شظايا الزجاج المكسور متناثرة
مختلطة بمظاريف فارغ الرصاص.. المسدس فى يدي
أقبض عليه بصعوبة.. الدخان الأبيض يزداد ويتكاثف..
أكاد أراهم يتقدمون من خلاله بحذر.. أسلحتهم
مشهرة.. الأقنعة الواقية من الدخان تغطى وجوههم..
تحركت بخطوات متثاقلة بين سحب الدخان.. رحت
أسعل.. أسعل.. غادرت الحجرة، وحاولت اختراق
السحب البيضاء ببصرى لأرى أى شئ.. لا فائدة..
أسعل.. الدماء تتناثر من فمى..

احرق ابن السافلة..

احرق..

احرق..

احرق..

الدخان الأبيض يخفى كل شئ، ولكننى أراهم أمامى
جميعاً يصوبون أسلحتهم نحوى.. رجال الشركة.. قوات
الشرطة.. فرق الكاراتيه.. جيش الدفاع الإسرائيلى..
المارينز الأمريكان.. (لوسيفر) نفسه.... يالهذا الدوار...!!
رفعت المسدس فى قبضتى.. أطلقت صرخة من
أعماق روحى.. إندفعت بكل ما تبقى لى من قوة
مخترقاً سحب الدخان وأنا أصرخ..

ضغطت الزناد مزّة..

إثنتان..

ثلاثة..

إقتلعتنى طلقاتهم من على الأرض.. جسدى يطير إلى
الوراء.. يشق الهواء.. يهوى ليرتطم بأرضية الردهة..
الغريب أننى لا أشعر بأى ألم.. فقط أشعر بأننى أغوص
فى الأرض.. أرى خيوط العنكبوت التى تغطى سقف
الردهة تبتعد.. تبتعد..

وجوه تطل على من أعلى.. ما زلت أشم رائحة الشواء..
ولكننى سعيد لأن الأنين قد توقف.....

لا لم يتوقف..

حتى عندما استيقظت مفزوعاً من نومى.. ظل يتردد
خافتاً فى مسامعى...

تحسست جسدى بلهفة.. تنهدت..

الظلام يخيم على الغرفة فى تلك الساعة المتأخرة من
الليل.. أنفاس منتظمة تصدر عن زوجتى النائمة إلى
جوارى.. دقائق خافتة قادمة من ساعة الحائط.. صفير
الرياح التى تعوى فى الخارج.. أصوات.. أصوات...
آآآآآآآآآآآآآآآآ...

فزع هائل ملاً نفسى.. ماذا أصابنى..؟.. أية قوة
شيطانية سيطرت على..؟.. أقوم بأفعال لا أدرى عنها
شيئاً، ولا أذكر عنها شيئاً.. مصرع (أحمد خشبة) يزورنى
مراراً فى كوابيسى.. ثم الأنين الرهيب..

د. حازم أبو زيد

برغم أنّ هذا الفرض مستحيل من الناحية البيولوجية والفيزيائية، إلا أنه بدا لي التفسير الأكثر ملائمة لتلك الأعراض غير المسبوقة التي صرت أعانى منها.. أثار الأمر رعبى بحق.. هل هذا ممكن فعلاً..؟.. ما الذى يمنع حدوثه..؟.. ألم يحدث من قبل مع (أحمد خشبة)..؟.. بلى.. ولكن هذا تم من خلال ظروف معينة لم تتوافر فى حالتى.. ومن أدراك أنّ ظرفاً آخر لم يتوافر فيتسبب فى إنتقال إكتوبلازم الفتى إليك بعد مصرعه..؟.. ظرف مثل ماذا..؟.. أى ظرف.. أليس من المحتمل أن يكون للإكتوبلازم المتحرر إرادة ذاتية وقدرة على الإنتقال إلى شخص بعينه..؟.. ولكن هذا مستحيل.. مستحيل أو غير مستحيل.. لن يفيدك بشئ إطلاق الأحكام المجردة.. دع العلم يقول كلمته..

كلام سليم جداً.. لم أضع وقتاً.. من جديد هرعت - بمجرد شروق الشمس - إلى مستشفى الخاص.. هو كما قلت لك تخصصى لعلاج الأمراض النفسية والعصبية، وبه معمل مزود بأحدث أجهزة الفحص والتحليل والأشعة.. جلست إلى نائبى الشاب الدكتور (محسن عبد الفتاح) - وكانت آثار النوم مازالت ظاهرة على وجهه بعد أن أيقظته مبكراً - وشرحت له سلسلة الفحوص والتحليل التي سنقوم بها.. بدا عليه الغباء وهو يسألنى:

- أين الحالة الذى سنجرى عليها هذه الفحوص...؟..

أجبتة بنفاد صبر:

- لا توجد حالة.. سنجرى الفحوص على أنا لإختبار الأجهزة..

أطلت الدهشة من عينيه، وفتح فمه ليسأل فرفعت كفى مقاطعاً بحزم:

- لا أسئلة.. إبدأ من فضلك..

وبعد ساعة واحدة كنت جالساً أمام المونيتور أتابع الفيلم الذى تم التقاطه لى داخل غرفة الأشعة خلال مجال للأشعة تحت الحمراء.. المؤثرات التى تعرضت لها تتوالى على الشاشة أمام عينى، وسيل البيانات التى تنقلها الأقطاب التى تم توصيلها بجسدى تتتابع بانتظام..

النتيجة: سلبية تماماً.. لون وشكل وحركة السيال الحيوى الخاص بى طبيعى جداً.. لا أثر لأى شئ غير عادى..

سألنى الدكتور (محسن) الواقف خلف مقعدى:

- هل هناك شئ ما يا دكتور..؟..

لم أرد.. جرت عيناى بسرعة على النتائج المطبوعة للفحوص التى أجريتها خلال الساعة الماضية.. لا جديد.. كل شئ على مايرام..

عاد الفتى يسألنى بالحاح:

- هل هناك مشكلة ما يا دكتور..؟..

رفعت عينين زائغتين إليه مردداً:

الظروف عادية، ولكن الأمر كان جد خطير.. القائمة الأخرى لديها أفكار وسياسات تنحو إلى تسييس الوسط الجامعي، وهو ما يتعارض بشدة مع منهجى كرئيس للجامعة، ولا مناص عن مقاومته بأى وسيلة، والضرورات كما قلنا تبيح المحظورات..

جاء اليوم الموعود.. تدفق الأساتذة والمدرسون والمعيدون على مقرّات الإنتخاب بأعداد كبيرة أثارت دهشتى.. لم أر من قبل إقبالاً بهذه الكثافة.. رحلت أراقبهم من خلف زجاج نافذة مكنتى (حيث جعلت أهم المقار الإنتخابية فى مجمع المباني الإدارية بشارع الجيش)، وقد شعرت بتوجس.. لقد بذلت بالفعل جهوداً كبيرة لضبط هذه الإنتخابات، ولم أدرج جهداً أو مالاً فى الدعاية لمرشحي قائمتنا، ولكن مشهد جموع الأساتذة والمدرسين المتوجهين للإدلاء بأصواتهم جعلنى أفكر فى إحتمالية فوز القائمة المنافسة.. هل هذا ممكن حقاً..؟.. أمر وارد.. ماذا سيكون من أمرى إن فى هذه الحالة..؟.. بالتأكيد سيعتبروننى مُقَصِراً فى عملى.. وفى أقرب فرصة سأفقد منصبى كما حدث مع سلفى (ماجد رسلان).. وسيضيع منى وعد الدكتور (زكريّا) بالوزارة.. و.. و..

شعرت برأسى يكاد ينفجر من حدة الأفكار.. الأئين..؟.. لا يفارقنى إلا لأوقات متقطعة، وأبذل مجهوداً جباراً لتجاهله.. جلست إلى مكنتى، وطلبت فنجاناً من الكركديه.. فككت ربطة عنقى قليلاً وأسندت رأسى إلى

مسند الرأس بمقعدى الوثير..

..... م م م م م م م م م م

..... م م م م م م م م م م

..... م م م م م م م م م م

أول وأهم وأخطر أزمة ستواجهك هي النشاط
الإخوانى فى الجامعة.. وهو السبب الحقيقى فى إقالة
سلفك الدكتور (ماجد)..

..... م م م م م م م م م م

..... م م م م م م م م م م

..... م م م م م م م م م م

الانتخابات القادمة لن تكون سهلة ابدأ يا دكتور
(حازم).. نادى أعضاء هيئة تدريس جامعة
(الإسكندرية) موقع مهم جداً، لانريده أن يضيع من
أيدينا كما حدث فى إنتخابات نادى جامعة (القاهرة)
العام الماضى و..

..... م م م م م م م م م م

..... م م م م م م م م م م

..... م م م م م م م م م م

بشكل أو بآخر.. إنفصل الإكتوبلازم الخاص
بالباشمهندس (أحمد خشبة) عنه - مع خروج أنفاسه
الأخيرة - وانتقل إلى...!!!...

..... م م م م م م م م م م

..... م م م م م م م م م م

..... م م م م م م م م م م

احرق ابن السافلة..

احرق..

احرق..

احرق..

عيناه متقدتان بالغضب.. قال بصوت يجمد الدم فى العروق:

- فسر لى ما حدث..

أطرافى باردة كالثلج .. قلت بحروف مرتعشة:

- مجرد خطأ يا (محمد بك).. خطأ بسيط قمت بتداركه على الفور..

ضرب بقبضته على سطح مكتبه صائحاً بصوت هادر:

- أعرف أنه خطأ.. وأطلب تفسيراً له حالاً..

خفضت رأسى ولم أعرف بم أرد..

ماذا أقول له..؟!.. أننى أمر بحالة ميتافيزيقية غير

مفهومة..؟!.. أخبره أننى لم أكن فى وعيى عندما مزقت

كشف النتيجة المزورة التى أرسلها لى العقيد (سليمان

قنديل) - قائد الحرس الجامعى - كى أعتمدها..؟!..

أننى لا أذكر شيئاً عن تلك المكالمة التليفونية التى

سببت الرجل فيها وأخبرته أن يدس نتائجه المزورة فى

مؤخرته..؟!..

هل سيصدقنى عندما أخبره أننى لا أذكر شيئاً مما

جرى، وأن مدير مكتبى هو الذى روى لى هذه التفاصيل

الصادمة..؟!..

- (بغضب): أجبني ولا تقف كالصنم هكذا..

قلت بصوتٍ خفيض:

- صدقني يا سيادة العميد.. كنت أمر بظروف خاصة
فى غاية الصعوبة و..

قاطعنى:

- طظ فى ظروفك كلها.. ما شأن الظروف الخاصة
بالعمل..؟..

عدت أطرق برأسى أرضاً من جديد.. العرق يغمر
جبينى، ويدي اليسرى ترتعش بصورة لا أسيطر عليها..

- (ثائراً): حينما هاتفنى العقيد (سليمان) وأخبرنى بم
فعلت لم أصدق.. هل جنت يا دكتور..؟.. هل نسيت
كلامى لك عندما أتيت إلى مكتبى قبل توليك
منصبك..؟..

رفعت رأسى هاتفاً بحرارة:

- الرحمة يا (محمد بك).. أعطنى فرصة أخرى بالله
عليك.. أنا خادمكم المطيع.. لقد نفذت أوامرك بالحرف
طيلة الفترة السابقة.. إعتمدت النتيجة المطلوبة،
وذهبت إلى العقيد (سليمان) فى مكتبه واعتذرت له
وقبلت رأسه.. أرجوك.. فرصة أخرى واحدة..

راح يحدجنى لثوان بنظرات مخيفة، قبل أن يشير
بكفه نحو باب المكتب قائلاً:

- إذهب الآن وانتظر مئى تليفوناً..

هوى قلبى بين ضلوعى.. كدت أبكى وأنا أهتف
مستعظفاً:

- لا تقض على يا (محمد بك).. أبوس يدك.. إمنحنى
فرصة أخيرة.. أنا خادمك.. أنا رهن إشارتك.. أنا...
- (بلهجة قاطعة): تفضل...

لا أعرف كيف أصف لك كيف مرّت على الأيام الفاتئة
منذ خروجى من مكتب العقيد (السقّان) وحتى هذه
اللحظة.. هل أنت معى..؟.. فى لحظة واحدة يتداعى
الحلم، وينهار كل ما كافحت من أجله.. كيف..؟.. بأى
منطق..؟.. لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم..

لم يتصل بى حتى الآن.. صرت أذهب كل يوم إلى
الجامعة، وأتابع سير العمل فى المستشفى بألية تامة..
أرى وجوهاً.. أسمع كلاماً.. دون أن أعى شيئاً مما أرى أو
أسمع.. كيانى كله يربض متحفزاً مترقباً رنين هاتفى
المحمول.. منتظراً سماع صوت (السقّان) ليطمئننى أو
ليخبرنى بنهاية أحلامى وطموحاتى..

من جديد أحاول تحليل الموقف.. كيف حدث هذا..؟..
الفحوص والأشعة تقطع بأننى سليم، وسيالى الحيوى
خال من أى شئ غير عادى.. أى أن الخلل هنا ليس
عضوياً.. فهل من الممكن أن يكون نفسياً..؟..

حقاً لم أعد أدر.. شيئاً فشئ أفقد قدرتى على التفكير
العلمى المنظم.. وكيف لى أن أفكر أصلاً بينما ال...

..... م.....

..... م.....

..... م.....

يملاً أذنى وعقلى وكيانى كله..؟..

لاحظت زوجتى فى دهشة أننى صرت عصبياً سريع
الغضب.. سألتنى عن سبب غيابى المتكرر عن المنزل
فى غير أوقات العمل، فلم أجد ما أرد به عليها.. أنا
نفسى لا أدرى..

إستيقظت ذات ليلة من نومى لأجد نفسى فى مكان
مجهول.. أصابنى الهلع.. إستغرقت وقتاً لأستوعب أن
هذا المكان هو الفيلا التى إبتعتها -من دون أن أدرى-
من (ممتاز خشبة).. أذكر جيداً أننى أويت إلى فراشى
فى فيلتى.. كيف إذن جئت إلى هنا..؟.. ومتى..؟.. لا
أعرف..

أثار رعبى أكثر ذلك الجسد المستلقى على الفراش
الذى نهضت من عليه لتوى.. هذا الشعر الطويل.. إنها
امرأة.. امرأة مغطاة بملاءة بيضاء مستغرقة فى النعاس
بجوارى..!!.. من هى..!!.. وكيف جاءت إلى هنا..؟..
وكيف جئت أنا نفسى لأجدنى إلى جوارها..!!..

لحظات من الحيرة والعجز عدت بعدها إلى الفراش،
وأدرت ظهرى لها.. إما أن هذا حلم وسأستيقظ منه،
وإما أننى أتيت إلى هنا حقاً بوسيلة شيطانية، وسأعود
بذات الكيفية التى أتيت بها.. أغمضت عينى بقوة.. يا
إلهى الرحيم.. لا تدعنى لهذا الجنون..

..... م.....

..... م.....

..... م.....

لاحظت (نشوى) - زوجتى - ما صارت إليه أحوالى من تدهور وعصبية وقلّة التركيز والكوابيس المتواصلة طيلة الليل.. أدركت بذكاء الأنثى أننى أمر بمشاكل غير معتادة تختلف عن مشكلات العمل التقليدية.. أتتني فى التراس عقب صلاة فجر عليها غطفة الصلاة، تحمل صفحة عليها فنجانين من الشاي الأخضر بالنعناع يتصاعد منهما البخار.. جلست إلى جوارى وراحت تداعبنى بلطف، قبل أن تسألنى عمّ بى..

نظرت إليها وفكرت.. لمّ لا..؟.. كنت أفضل عدم إقحامها فى الموضوع، ولكن الأزمة غير العادية التى أمر بها وصلت لدرجة لا تُحتمل.. وعقلين أفضل من عقلٍ واحد.. دعك من أننى بالفعل فقدت القدرة على التفكير السليم..

كانت خيوط أشعة الشمس تتسلل على استحياء من بين الغيوم التى تكسو السماء، عندما وضعت فنجان الشاي على المنضدة، وبدأت أروى لها..

إستغرق الأمر مئى ما يقرب من الساعة، تناوبت خلالها الإنفعالات إياها على وجهها، حتى انتهيت.. (طبعاً تجنبت ذكر بعض التفاصيل كقصة تلك المرأة التى صحت ليلاً فوجدتها إلى جوارى فى فيلا خشبة القديمة).. صمتت قليلاً مفكرة، قبل أن ترفع عينيها إلى متسائلة بهدوءٍ أدهشنى:

- متى بدأت تسمع أصوات الأئين..؟..

- لا أذكر..

- حاول أن تفعل..

صمت مفكراً للحظات قبل أن أهز رأسي قائلاً:

- لا أذكر..

- (بالحاح): قبل أم بعد اتصال تلك الإعلامية بك..؟..

- بعد..

ظلت تتطلع إلى صامتة، فقلت بعصبية:

- فيم تفكرين..؟..

- (ببطء): التشخيص واضح يا عزيزي..

نظرت إليها متسائلاً، فتابعت:

- بعيداً عن كل هذا الكلام عن انتقال الإكتوبلازم من

شخص لآخر.. هذه حالة ازدواج شخصية double

personality واضحة جداً.. ويدهشني أنك (وأنت

أستاذ الطب النفسى) لم تشخصها..

إزدواج الشخصية أو ال double personality هو

مرض نفسى شهير عبارة عن اضطراب نفسى يحدث

فيه - فى ظروف معينة - انشقاق جزء من الشخصية

غالباً ما يكون جزء مكبوت أو كامن ليمارس قيادة

الشخصية للحظات أو ساعات أو أيام، فيفعل خلالها ما

تعجز عنه أو تخجل منه الشخصية الأساسية فى

سياقها المعتاد..

الحالة مشهورة للعامة، وظهرت فى أعمال أدبية وفنية

عديدة كرواية (ستيفنسون): (الحالة الغربية لدكتور

جيكل ومستر هايد) ورواية (إحسان عبد القدوس):

(بئر الحرمان) التي تحولت لفيلم شهير.. وإن كان هناك خلطاً كبيراً بين هذا المرض وبين مرض آخر هو الفصام (Schizophrenia) وهو اضطراب نفسى شديد ينتج عن خلل عضوى بالمخ ناتج بدوره عن اضطراب فى الجينات أو فى تركيبة المخ أو فى كيمياء المخ أو كل ذلك معاً.. ولكن هذا بعيد عن موضوعنا..

يندرج إزدواج الشخصية تحت بند حالات الإضطرابات الإنشقاقية (Dissociative disorders).. وهى حالات هستيرية تصيب فئة من الناس يعجزون عن رؤية وقبول مناطق معينة من أنفسهم أو يتنكرون لبعض احتياجاتهم أو يعجزون عن التعبير عن رغباتهم ومخاوفهم، فيلجأ جهازهم النفسى إلى حيلة الإنشقاق، خاصة أن هذا الجهاز لديهم يكون هشاً وضعيفاً، لذلك يسهل على الجزء المتمرد داخل النفس أن يقوم بانقلاب مؤقت فيستولى على مركز قيادة الشخصية لفترة معينة تطول أو تقصر، يمارس خلالها كل ما كان يتمناه من طيش أو نزق أو تحقيق نزوات أو إعلان رغبات أو التهرب من مسئوليات، إلى أن تفرغ الشحنة، فتعود السلطة مرة أخرى إلى القيادة المعتادة للشخصية، تلك الخاضعة تماماً للمعايير الإجتماعية السائدة المكبلة بقواعد أخلاقية أو عائلية ليست مقتنعة بها، ولكنها تخشاها..

كل هذا جميل.. ولكن ما شأنى أنا به..؟!..

حالتك بشكل يكاد يكون خال من الثغرات..

- (مشدوهاً): كيف..؟..

- رد فعلك الأول بمجرد معرفتك قصة (إيجى - نيرجى) كان -كرد فعل أى شخص فى موضعك- هو الذهول والاستبشاع الشديدين.. الأمر مريع بالفعل.. لدرجة أنك أخفيتته عنى.. (تنظر لى نظرة لائمة).. وعندما حاورك الدكتور (زكريا) وأقنعتك بشرعية ومشروعية عمل الشركة، ظل جزء ما بداخلك معترضاً مستبشعاً.. هذا الجزء الذى حرصت أنت على قمعه وكتبته فى أعماقك لأنّ خروجه وتمرده سيجلب علينا وبالأ كبيراً كما حذرك الدكتور (زكريا)..

والتقطت أنفاسها للحظة قبل أن تتابع:

- الذى حدث بعد ذلك أنّ الجزء المتمرد بداخلك بدأ يعلن عن نفسه بشكل أقوى.. بدأت تسمع أصوات الأنين -أنين العمال المعذبين داخل ماكينات التعذيب- بشكل مستمر.. ترى تفاصيل مصرع (أحمد خشبة) فى أحلامك، وهذا العَرَض الأخير بالذات له دلالة واضحة لأنّ الجزء المتمرد بداخلك يرغب فى مقاومة (إيجى - نيرجى) على ذلك النحو الجذرى الذى قام به (خشبة) من حرق (يوسف محيى الدين) مدير الشركة والصدام الدموى مع قواتها.. ومع تفاقم الصراع الداخلى فى أعماقك، بدأت تدخل فى طور من الإضطرابات الإنشاقية..

ولقا وجدتنى أتابعها بعينين خرساويّتين، سألتنى بقلق:

- هل تتابعنى..؟..

أومات برأسى مجيباً دون أن أنطق بحرف، فالتقطت نفساً عميقاً وتابعت:

- بدأ ذلك الجزء المتمرد من عقلك الباطن ينشق عنك..
يسيطر على قيادتك لأوقات معينة يغيب فيها عقلك
الواعى المؤمن بدواعى الحرص وتجنب الخطر، ويقوم
-أى الجزء المتمرد- بممارسة كل ما تكبته وتكتمه فى
أعماقك من ثورة وغضب.. ونظراً لأن (أحمد خشبة)
أصبح بالنسبة له مثلاً أعلى بما قام به من مقاومة
بطولية للشركة -من وجهة نظره طبعاً- فإنه فى
إنشاقه عنك يميل إلى تقمص دور (خشبة) وممارسة
أفعاله.. هل تذكر تلك المرة التى نمنا فيها سوياً
وتضاجعنا طيلة الليل، ثم فوجئت فى الصباح بأنك لا
تذكر شيئاً عنها..؟..

قلت بحيرة:

- نعم..

- هذه واحدة من المرات التى مارس فيها الجزء
المتمرد سيطرته على عقلك الواعى متقمصاً دور (أحمد
خشبة).. قمت أنت - فى غيبة من وعيك- بشراء تناول
أقراص (الفياجرا) -تلك التى وجدت بعض منها فى
درج الكومود- وضاجعتنى بقدرة شاب فى عمر
(خشبة) بصورة لم تحدث منذ كنا شباباً، وعندما عادت
السيطرة إلى عقلك الواعى، نسيت كل هذا، وأثار
ذهولك أن ضاجعتنى ووجدت بقايا أقراص (الفياجرا)

بحوزتك.. وليس هذا فقط..

- ماذا أيضاً..؟..

إعتدت مجيبة:

- هناك أيضاً المخدرات التى عثرت عليها فى درج الكومود.. وشم الثعابين المطبوع على ذراعك.. فيلا (خشبة) التى قمت بشراءها.. وربما أشياء أخرى فعلتها ولا تذكرها.. كل هذا قمت به ويشير إلى تقمصك لشخصية (أحمد خشبة) تحت تأثير سيطرة الجزء المتمرد منك على عقلك الواعى..

وتنهدت مردفة:

- والمخيف فعلاً أن كل هذه الأعراض مقدمة لما هو أخطر..

رددت بخوف:

- أخطر..!!..

راقبت للحظة يمامة رمادية حطت على أغصان شجرة الياسمين، قبل أن تدير عينيها إلى قائلة:

- الجزء المتمرد مارس سيطرته على وعيك أثناء انتخابات مجلس إدارة النادى، وهو الذى فجر ثورتك على العقيد (سليمان قنديل) عندما طالبك بتعديل النتائج.. توارى الدكتور (حازم أبو زيد) الرصين العالم بحقائق الحياة وبمن يسيطر على مقاليد الأمور فى الجامعة وانفجر (أحمد خشبة) الشاب الطائش الثائر ليمارس نزقه وثورته فيسب الرجل ويكاد يفسد نتائج الإنتخابات تماماً لولا أن عادت السيطرة لعقلك الواعى

قبل ضياع كل شئ.. وهذا أخطر ما فى الموضوع.. لو لم نبدأ فى معالجة حالة الإنشقاق الهستيرى هذه، فستكفل بضياع مستقبلك السياسى تماماً..

- (بيأس): هذا إن لم يكن ضاع بالفعل..

تشخيص -فكرت- منطقى جداً.. طبيبة نفسية بارعة هى حقاً وإنى بها لفخور..

هممفف (زفرة)..

مريض أنا إذن بالفعل.. ومرضى ليس بسيطاً.. يا أرحم الراحمين.. رغماً عنى إحتشدت الدموع فى عينى.. دفنت وجهى بين كفى هامساً بصوت باك:

- يا إلهى..

نهضت لتجلس بجوارى.. إحتوتنى بين ذراعيها، وربتت على كتفى قائلةً بدفء:

- هؤن عليك يا عزيزى.. الأمور لم تفلت بعد من أيدينا.. يمكنك أن تكلم الدكتور (زكرياً).. الرجل يحبك.. سيدعمك ويقف إلى جوارك بإذن الله..

إستكنت بين ذراعيها.. تمتمت:

- وماذا عن الإضطراب الإنشقاقي..؟..

ضمتنى بقوة إلى صدرها وهى تقول:

- سنبدأ برنامج العلاج على الفور.. برنامجنا سيقوم على الإستبصار بالكيانات والذوات التحتية بداخلك بشكل أكبر.. والتعرف على الرغبات والإنفعالات التى تكبتها وتقهرها فى أعماقك.. سنعمل على التصالح بين الكيانات المختلفة، وتقوية نفسك للوصول بها إلى درجة

من النضج لتستطيع تجاوز هذه المحنة.. هل أنت
معى..؟..

- (بخفوت): نعم..

أبعدتنى بذراعيها.. حدقت فى عينى مباشرة قائلة
بنبرة جادة (تستدعيها دوماً فى مواقف محددة):

- ولكن تذكر.. قبل أى شئ لا بد أن تؤمن من أعماقك
أنه لا إثم عليك فيما فعلت.. هذا أمر مؤكد.. ما تقوم به
(إيجى - نيرجى) سليم تماماً من الناحية الشرعية،
وليس فيه شيئاً مما يغضب الله ويستدعى ثورتك..
واجه نفسك بهذه الحقيقة واستمت فى ترسيخها
بداخلك.. وفكر فى المستقبل الرائع الذى ينتظرك، وما
يمكن أن يحقق به من جراء أى تهور..

و عادت تضمنى إلى صدرها مرددة برقة:

- وستشفى إن شاء الله يا حبيبى..

أكثر ما أثار دهشتى هو تلك البساطة التى تلت بها
الحقيقة الخفية لشركة (إيجى - نيرجى).. توقعت أن
تصيبها صدمة من الذهول والألم والخوف، ولكننى
فوجئت بتلك الإنفعالات تتوالى على وجهها ثم تتلاشى
بأسرع مما تولدت.. كأننى كنت أحكى لها عن أحداث
خيالية أو أحداث حقيقية تدور فى مكان آخر.. نظرت
لها بحيرة وكأننى أراها للمرة الأولى.. هل هى إنسانة
قوية، أم بلا قلب..؟.. أم أنها لم تستوعب بالضبط ما
أخبرتها به..؟.. أم أننى أنا الذى أبالغ فى ردة فعلى..؟..

تأملتها وهى واقفة أمامى ترفل فى عباءة الصلاة وأشجار الحديقة الخضراء الزاهية من خلفها.. امرأة طيبة صالحة هى.. كافحت معى طيلة السنوات السابقة بلا كلل أو تعب، وكانت مثلاً للزوجة حسنة الدنيا كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ولكن..

ثمة شعور.. شعور بسيط بالحنق ينبثق من قلبى تجاهها.. رغم كل مزاياها إلا أنى أشعر أحياناً -قليلة جداً- وكأنها لا تعبأ بى.. كأنى صرت بالنسبة لها أداة لجمع المال والإرتقاء لمستوى إجتماعى واقتصادى أعلى.. أتذكر إصرارها على بقائى فى الخليج لسنوات طويلة واعتراضها الشديد على عودتى حتى لا تضيع فرصة جنى المزيد من المال.. المواقف المتزمته التى اتخذتها من أشقائى أثناء توزيع تركة والذى رحمه الله (وقدرتها على تقديم الأدلة الشرعية لكل مواقفها حتى لو تعارضت)..

ما تقوم به (إيجى - نيرجى) سليم تماماً من الناحية الشرعية، وليس فيه شيئاً مما يغضب الله ويستدعى ثورتك.. واجه نفسك بهذه الحقيقة واستمت فى ترسيخها بداخلك..

طموحها الجارف وتطلعها المتنامى للأعلى كان دافعاً قوياً لى دوماً لتقديم التنازلات.. منذ بدء عملى بالجامعة كانت دوماً حاضرة.. تلح وتضغط على لطاعة ومجاملة رؤسائى ولو على حساب العملية التعليمية.. فلان ابن الدكتور علان لابد أن يحرز الترتيب الأول على

الدفةة حتف فمكن طلفه كمفعد.. ترتان له موقف
سفاسف؁ ومطلوب حرمانه من درجات العملف.. مطلوب
عدم تعففن معفدفن -رغم حاجة القسم- من هذه
الدفةة لتبقى أماكن شافرة لعدد من أبناء الأساتذة فى
دفةة العام القادم.. إلخ.. تنازلات.. تنازلات..
همفففف (زفرة).....

أرجو منك أن تنسى لحظة المصارحة هذه.. ولنعد إلى
موضوعنا.. (أمل)..؟.. ماذا عنها..؟.. ألم أخبرك
بحكايتها..؟.. لم أستكملها ..؟.. عجباً..!!.. ظننتنى
فعلت..؟..

أمل الشافعى

fine.. أبدلى ثيابك، وستجدين (لاندروفر) سوداء
تحمل رقماً مفرداً بانتظارك أمام مدخل بيتك.. سيكون
المستر (فريد شهاب الدين) المستشار القانونى لـ (Egy
Nergy -) بانتظارك داخلها.. سيكون عليك الذهاب
معه ولا تنسى اللاب توب..

ألقيت نظرة حذرة على (اللاندروفر) من أعلى سطح
البيت.. سيارة فاخرة بالفعل تشغل أكثر من نصف
عرض شارعنا الضيق.. نظرة أخرى على بقية الشارع..
كل شئ يبدو طبيعياً.. تراجعت للخلف..

.....

.....

.....

ما الذى سأجنيه من انضمامى إليهم..؟.. الثروة..؟..
النجاح..؟.. النعيم..؟.. الأمان..؟.. حسناً.. كم سأعيش
إنى لأتمتع بكل هذا..؟.. عشر سنوات مثلاً..؟..
عشرين..؟.. لنقل أربعين مثلاً.. جميل.. ماذا بعد
إنى..؟.. ما الذى سأحتفظ به معى يوم يضعون جسدى
فى القبر ويهيلون عليه التراب..؟..

كان (كمال فودة) يتكلم ببطء وثقة كاسحة كأنه القدر،
بينما رأسى يموج بأفكار محمومة يرتجف لها جسدى..
سأموت وأقف أمام خالقى وخالقه وخالق السماوات

والأرض يوم المشهد العظيم.. مذنبه.. كسيفة.. منكسة
الرأس.. مرتعشة البدن.. مُحَمَّلة بالجرائر.. سيسألنى لِمَ
شاركت فى قتل وتعذيب عباده.. بم سأجيب..؟
سأقول: لم أعذب أحداً يا رب.. ولكئك شاركت
بالصمت.. عرفت الحق ولم تجهرى به.. كان بوسعك
إنقاذهم من الألم والعذاب، ولكئك آثرت السكوت.. كنت
خائفة يا رب.. ولكن بِمَ سأجيب إذا سألنى لِمَ خفت
منهم ولم أخف من خالقهم..؟..

هبت نسائم باردة من الشرفة إقشعز لها جسدى
وجعلت الستائر تطاير بقوة.. كنت واقفة وسماعة
الهاتف المحمول فى أذنى.. (كمال فودة) يتكلم
ويتكلم.. متى يمكن أن يحدث هذا..؟.. الآن..؟.. ما
المانع..؟.. لربما كان ملك الموت يدنو منى فى هذه
اللحظة بالذات.. إرتجف جسدى لهول الفكرة..
قال (كمال فودة):

- أمامك مسز (أمل) الفرصة للقفز من خندق العناصر
غير ذات المعنى فى معادلة العالم الجديد، إلى وضع
آخر.. حقيقى ومجسد.. ليس مجرد طنطنة وجعجعة
بلا طحين..

Pleace.. كونى موضوعية وتحبرى من أية شعارات
بالية وحماقات عاطفية..
هلا أبلغتنى بقرارك..؟..

بدا لى صوته -على عكس ما كان منذ لحظات-
ضعيفاً خافتاً مختنقاً، وكأنه صادر عن قزم قمئ..

التقطت نفساً عميقاً..

- (بصوت مبحوح): تريد قراراً يا مستر (كمال)..؟..

- Sure ..

.....

.....

.....

هتفت بلوعة:

- ولماذا أنت بالذات وليس غيرك..؟..

تنهدت.. جذبتها برفق إلى باب الشرفة المفتوح..
أشرت إلى شجرة مجاورة لسورها.. إلى عصفور رائع
الجمال يقف بين الأوراق الخضراء.. يمد منقاره القابض
على بعض الطعام، ويسقطه -الطعام طبعاً- فى أفواه
صغاره القابعين فى عشهم..

- هل ترين هذا العصفور الذى يطعم صغاره..؟.. يغادر
عشه فجراً.. يظل يحلق فى السماء حتى يرجع بالطعام
إلى الصغار.. هذه هى مهمته المقدسة فى هذه الدنيا..

وربت على وجنتها وحاولت أن أبتسم وأنا أتابع:

- النار تحرق.. الماء يسقى.. الشمس تضى وتدفى..
الهواء.. الزهور.. القمر.. البحر.. الكل له دور جاء إلى
الدنيا لأدائه.. ونحن بنو آدم لسنا إستثناء.. ولا أحد له
أن يقوم بدور آخر.. هل أنت معى..؟..

لم ترد.. خيطان من الدموع صنعا مجريين لامعين لهما
على وجنتيها عصرا قلبى عصراً.. إحتضنتها بقوة
هامسة:

- إعتنى بنفسك جيداً..

قلتها وأسرعت أغادر الشقة.. سمعت صوتها الباكي من خلفي يناديني، ولكنني لم أتوقف.. رحت أصعد الدرج بسرعة إلى السطح وأنا أكنم دموعي بصعوبة..

.....

.....

.....

أخذت نفساً عميقاً لأتمالك نفسي.. خطوت بحذر على أرض السطح الملى بالكراكيب ومخلفات البناء.. صياح الدجاج القادم من العشة الخشبية المجاورة يملأ المكان.. تشبث بأسياخ الحديد البارزة من بلاطة السطح، ومددت ساقى لأنتقل إلى سطح البناية الملاصقة محاذرة السقوط في المنور المشترك بين البنايتين.. هبطت سلالم البناية بسرعة.. نظرة من بين فراغات الزخارف الرديئة التي تملأ حديد باب المدخل.. اللاندروفر مازالت متوقفة في موضعها.. إرتديت منظاري الشمسى ورفعت ياقتي معطفي.. أزحت الباب الثقيل ببطء، وانسلت من الفتحة بين الضلفتين.. مشيت بخطوات واسعة نحو مدخل الشارع المزدهم.. الخوف كل الخوف أن..

- (صوت عال): إتفضلي يا دكتورة..

هو قلبى بين قدمي.. بالله عليك يا عم (حبشى).. دعنى وشانى هذه المرة.. تجاهلته وزدت من إتساع خطواتي و..

- (بصوت أعلى): دكتورة (أمل).. إتفضلى نورينا..
الله يخرب بيتك.. إختلست نظرة من وراء كتفى كانت
كافية جداً لألمح أبواب اللاندروفر تفتح ويغادرها
عملاقين يرتديان البذل و المناظير الداكنة..
- مدام (أمل)..

جاءت هذه بالطبع من أحدهما.. لم أتوقف طبعاً.. كان
الرعب قد سرى فى كيانى كله كالكهرباء، فلم أدر بنفسى
إلا وأنا أعدو بكل قوتى نحو مدخل الشارع.. لابد أن
أهل الشارع وأصحاب الحوانيت المجاورة لن ينسوا
منظر المدام المحترمة التى يعرفونها منذ سنوات وهى
تعدو هاربة من مطاردة رجلين لها..

كانت سيارتى مازالت فى موقع التصوير فى الساحل
الشمالى (لا تنس أن ميخائيل هو من أقلنى إلى هنا
عقب سقوطى صباح أمس)..

هل كان هذا منذ أربعة وعشرين ساعة فقط...؟!..
وحتى لو كانت هنا، فلم تكن لدى أى فرصة لبلوغها..
إخترقت الشارع المزدهم بصعوبة.. لم أتوقف لحظة
أو ألتفت خلفى.. وصلت شارع (لاجيتيه).. الزحام هنا
أخف قليلاً.. أجرى.. ألهث.. أكاد أنكفى على وجهى..
أستعيد توازنى.. أجرى.. كنت بعيدة النظر عندما
إرتديت حذائى الكاويتشوكى..

- مدام (أمل).. توقفى..
تضاعف رعبى.. هم مصرون على اصطيادى.. اللعب
الآن صار مكشوفاً.. منك لله يا عم (حبشى).. كانت

لتكون مناورة ناجحة أربح بها وقتاً لأختفى وأرتب أوراقى، ولكنك نسفتها تماماً بصوتك الجهورى هذا.. ألهث.. أنا فى الأربعين من عمرى.. جسدى صار ممتلئاً لا يسمح بهذه المغامرات.. أجرى.. أتنفس بصعوبة..

محطة ترام (الإبراهيمية).. الترام أصفر اللون يغادر ببطء.. إلى أين..؟.. لا أعلم.. أجرى.. ألهث.. أجرى.. عربات الترام تزداد سرعة.. أثب درجات المحطة القليلة.. أعدو على الرصيف.. ألهث.. الناس تنظر لى دهشة.. أسمع خطوات ركض العملاقين من خلفى.. أكاد أشعر بأطراف أصابعهما الممدودة تلمس طرحتى.. بما تبقى لى من قوّة أثب لأتعلق بالعمود المعدنى المثبت بمدخل عربة الترام الأخيرة.. أتشبث به.. آلام مبرحة فى ذراعى.. أسمع شهقة.. الترام يتجاوز المحطة.. وجوه الركاب تحرق بى فى دهشة.. الأذرع تمتد لتسحبنى و..

هنا شعرت بالأصابع القويّة تلتف حول كاحلى.. شهقت برعب.. أدت رأسى فوجدت أحد العملاقين يتشبث بحافة باب العربة بيد، ويقبض على كاحلى بالأخرى.. صرخت بفرع وأنا أحاول جذب ساقى من بين أصابعه الفولاذية.. الركاب متجمدون فى أماكنهم.. الوغد متشبث بقوّة.. خصلات شعره تطاير مع اندفاع الهواء بسبب سرعة الترام، وشبح إبتسامة يتلاعب على شفتيه وكأنه يقول لى «لن أتركك فلا تتعبى نفسك بالمقاومة»..

بادج أحمر مستدير يحمل حرفي (E.N) مثبت على صدر سترته..

يضع قدمه على إحدى درجات سلم المدخل.. كيانه يتضخم أمام عيني المذعورتين حتى ليكاد يسد فتحة الباب و..

وفي اللحظة التالية سمعت دوى إرتطام هائل.. تخلت الأصابع الفولاذية عن ساقى، واختفى العملاق من أمامى.. تعالت صرخات الركاب.. إندفع كثيرون منهم ليطلوا من الشبابيك.. كلام كثير.. إستغرقت وقتاً لأفهم أن جسد العملاق (وكان نصفه لا يزال خارج العربة) إصطدم بأحد أعمدة الإنارة المزروعة على جانب قضبان شريط الترام فأطاح به..

كنت مازلت راقدة على الأرض.. صدرى يعلو ويهبط، وقلبي ينبض بعنف.. أنهضونى وأجلسونى على أحد المقاعد.. التعليقات والأسئلة تنهمر من حولى كالمطر.. لم أجد بى قدرة على التفوه بحرف من فرط الإجهاد والانفعال.. بأصابع مرتعشة أشعلت سيجارة.. شعرت بسرعة العربة تنخفض، فأدركت أن محطة (كامب شيزار) قد دنت..

كان إسمه أول من ورد على ذهنى عندما بدأت الأحداث الأخيرة..

إستغربت جداً.. كم مضى من الزمن على المرة الأخيرة التى وقعت فيها عيناي عليه..؟.. عشر سنوات تقريباً..

لا أقل من هذا..

كان آنذاك شاباً نحيفاً.. طويل القامة.. ليست بملامحه
وسامة زائدة أو قبح زائد.. ملامح عادية جداً تجد مثلها
الكثير فى وجوه جيرانك أو زملائك بالعمل أو الجالسين
قبالتك بالترام..

فقط تميّزه تلك النظرة المفعمة بالثقة والإصرار
والتحدى.. نظرة شخص يعرف ما يريد.. ويعرف أنه
سيحقق ما يريد.. أو على الأقل لن يهدأ له بال حتى
يحقق ما يريد..

(أحمد بشير الهالى).. طالب الحقوق المشاغب.. الثائر
المتحمس.. الناصرى المخلص، وصداع الأمن بجامعة
(الإسكندرية).. كنت قد حدثك عنه من قبل لو تذكر..
أذكر أنّ نوعاً من التنافس على قلبى إشتعل بينه وبين
(بشير الهالى) طالب الحقوق الشاب، وصاحب الميول
السياسية الناصرية التى جلبت على رأسه الكثير من
المشاكل..

دعك من أنّ (بشير) كان يغادر المعتقل ليعود إليه مرّة
أخرى، وانتهى من دراسة الحقوق فيما لا يقل عن التسع
سنوات..

كم مرّة تحوّل للتحقيق..؟.. كم مرّة تعرّض للفصل..؟..
كم مرّة تعرض للإعتقال..؟..

مرّات عديدة.. سنوات ضاعت من عمره بين
المعتقلات.. مَحَنَ عِدَّة تعرض لها كوفاة والدته مثلاً
وهو معتقل على ذمّة إحدى قضايا أمن الدولة (قبض

عليه أثناء قيادته لمظاهرة طلابية ضد التطبيع فيما
أذكر).. الشلل الذي أصاب ثلاثة من أصابع يده اليمنى
من جراء التعذيب الوحشي.. ومأس غيرها خرج منها
قويًا متمسكاً بفضل صلابة نادرة إمتاز بها دوماً..

علاقتي به..؟.. بدأت مع عامى الدراسى الثانى بكلية
الإعلام.. فى ندوة نظمها مجلس الكلية حول العلاقة
بين الديمقراطية والإصلاح، وكان رئيس الوزراء ضيفاً
على الندوة.. فى مثل هذه الحالات يتم اختيار أسماء
الحضور من الأساتذة والطلبة بدقة شديدة بحيث لا
يُسمح بحضور الندوة إلا للعناصر المعروفة للأمن
وإدارة الجامعة بولائها للحزب أو على الأقل العناصر
الغير مثيرة للمتابع.. وذلك حتى لا تحدث أثناء الندوة
أية منغصات قد تسبب حرجاً للضيف العظيم أو لإدارة
الجامعة..

لا أحد يعرف كيف تمكن (بشير الهلالي) - كذا كنا
نناديه متجاوزين إسمه الأول - من تجاوز النطاق
الأمنى المحكم، والتسلل إلى قاعة الندوات.. كنت
جالسة بين رفيقاتى نستمع إلى حديث سيادة رئيس
الوزراء المكرر حول الخطوات الواسعة التى قطعتها
الحكومة فى مسيرة الإصلاح، عندما علا صوت
(الهلالي) كالرعد من بين مدرجات الفتیان:

- عن أى إصلاح تتكلم يا دكتور والبلد يحتضر منذ
عقود..؟..

مازلت حتى الآن أذكر تلك اللحظات القليلة الصامتة

المشحونة بالكثير من الإنفعالات وأنتى مَرّت عقب هتاف (بشير).. أذكر امتقاع وجه رئيس الجامعة واحتقان وجوه نوابه.. وحده رئيس الوزراء هو الذى تمالك نفسه بحنكة إكتسبها خلال سنوات بقائه فى منصبه (وكانت آنذاك قد جاوزت الخمس سنوات).. إكتسى وجهه بابتسامة الرجل الديمقراطى الذى يرحب بمناقشة جميع الآراء حتى المعارضة لرأيه.. قال:

- من الذى يحدد ما إذا كان البلد ينمو أو يحتضر..؟..

بدا الفتى -آنذاك- قوياً واثقاً وهو يجيب:

- أحوال الناس..

- (مبتسماً): أحوال الناس من الحسن إلى الأحسن..

الدخول فى إزدياد دائم .. العلاوات فى إرتفاع مستمر..

الغذاء مدعوم.. الكساء مدعوم.. العلاج مدعوم..

الكهرباء مدعومة.. معدل النمو يرتفع عاماً بعد عام..

الناس مرتاحة ومبسوطة.. ما الذى يضايقك أنت..؟..

قالها وهو يفتح كفيه ويتلفت حوله بحركة مسرحية

المقصود بها استجلاب السخرية من كلام (الهلالى) الذى

هدر صوته:

- الناس المرتاحة المبسوطة هم فقط المسئولين أمثال

سعادتك يا دكتور.. أما أهل البلد الحقيقيون فيعيشون

حياة إلى الموت أقرب.. إهبط يا دكتور إلى الأحياء

والحوارى وشاهد الناس وهم ينبشون القمامة بحثاً عما

يسد رَمَقهم.. وهم يحفرون الأرض بأظافرهم بحثاً عن

الماء.. وهم يذبحون بعضهم البعض للظفر برغيف

عيش.. رغيف عيش يا دكتور..

مع آخر حروف كلماته إندلع التصفيق مدوياً من بين
أف الحاضرين من الطلبة والأساتذة، وقد إنتشوا
لوجود من يصرخ بما يرونه ويعلمونه وتمتلى به
صدورهم، وكنت أنا أكثرهم حماسة.. وبدا لى (الهالى)
لحظتها بطلاً شامخاً قادماً من عالم الأساطير.. شجاعاً
لا يتردد فى البوح بكل ما يملأ صدور الجالسين
العاجزين عن الفعل مثله.. إنتقلت عيناى إلى رئيس
الوزراء الذى ظل محتفظاً بالإبتسامة إياها، وقال (بعد
أن انتهى التصفيق طبعاً):

- أنت شاب متحمس، ولكن تنقصك الموضوعية..
بالتأكيد هناك مشاكل وسلبيات عدة، ولكن من الجيد أن
تنظر أيضاً إلى النصف المملوء من الكوب.. مشكلتك
أنت وأمثالك من الشباب أنكم تأخذون ثقافتكم من
صحف المعارضة التى لا تبغى سوى الإثارة
والتحريض.. ولكن لو هبطتم إلى الواقع ونظرتم حولكم
بحيادية لوجدتم إنجازات كبيرة تحققت وتحقق..

- إذا كنت تتحدث عن الواقع الخيالى المصنوع على
شاشات التليفزيون الحكومى، فلك كل الحق فيما تقول
وأكثر.. أما الواقع الحقيقى فنحن مغموسون فيه حتى
شعورنا.. نعانى ونشقى ونتعذب..

بدأت الإبتسامة المستفزة تتلاشى من على شفتى
الرجل، وهو يقول بنبرة تحمل الغضب:

- هناك برلمان منتخب يدافع عن حقوق المواطنين

ويحاسب الحكومة إذا قصرت في أداء واجبها..
- (متهكماً): ذاك برلمان يعرف القاصى والدانى كيف تم
انتخابه.. أقصد تعيينه بواسطة ضباط الشرطة وأمن
الدولة وتحت إشراف لجنة السياسات بالحزب..
إحتقن وجه الرجل وهو يقول غاضباً:
- لا تردد كلاماً لا دليل عليه.. هذا يعرضك للمساءلة
القانونية..

- الأدلة ملء الأسماع والأبصار لمن يريد لها يا دكتور..
هنا تدخل رئيس الجامعة.. أمسك بالميكروفون وصاح:
- أخرجوا هذا الوقح..

تحرك رجال الأمن وكأثما تم توصيلهم بقابس كهربى..
هرعوا يجذبون الفتى من ملابسه ويدفعونه خارج قاعة
المؤتمرات وهو يردد بصوتٍ مدو:

- كفى غشاً وخداعاً.. إنكم تعتصرون أرواح الناس
عصراً بينما ألسنتكم لا تتوقف عن ترديد الأكاذيب.. لو
كنت صادقاً أخبرنا ماذا حدث لصاحب العبارة والوزير
الذى سرطن الناس والمليارديرات الذين نهبوا ثروة
الشعب وفزوا إلى الخارج و.. و..

ظل يهتف ويهتف بينما الأمن يجزه من ثيابه حتى
تلاشى صوته تماماً مع خروجه من القاعة..

إنكم تعتصرون أرواح الناس عصراً بينما ألسنتكم لا
تتوقف عن ترديد الأكاذيب..

يالله.. هل كنت تقرأ المستقبل حقاً يا (بشير)..؟!.. هل
كنت تعلم شيئاً عن مشروع (إيجى - نيرجى)..؟!.. لكم

كنت دقيقاً صائباً.. ولكم كنت قوياً عندما دفعت ثمن نضالك من صحتك وسنوات عمرك التى ضاعت فى المعتقلات..

أين صرت يا (بشير)..؟.. وماذا فعلت بك الأيام..؟.. ما سمعته عنك منذ سنوات أنك نزحت إلى (القاهرة) وافتتحت مكتباً للمحاماة هناك.. أمازلت معارضاً متحمساً كما كنت..؟.. أم أن اليأس تملكك ومرور الزمن أنهكك..؟.. هل تذكرنى..؟..

آخر لقاء تم بيننا عندما حضرت لتعزيتى فى وفاة (مجدى).. طلبت منى آنذاك أن أوكلك لترفع قضية تعويض تختصم فيها إدارة المستشفى التى تسببت فى موت طفلى ووزير الصحة، بل ورئيس الجمهورية ذاته.. ساعتها رفضت أنا الأمر تماماً، ولم تجد محاولاتك معى محاولاتك لإقناعى فتيلاً.. كنت أرى أنه ما من فائدة أجنيها من وراء كل هذا بعد أن خسرت ما هو أغلى وأثمن من أى شئ.. أسرتى.. بل على العكس.. ستنتفتح أبواب الجحيم فوق رأسى ورأس أهلى من وراء تحدى الكبار، حتى لو كان ذلك قانونياً، ولن يغفروا لى أبداً ما سيصيبهم جراء هذا.. أما أنت فكنت متحمساً كعادتك..

- حالة طفلك الراحل ليست الوحيدة.. هناك المئات يلقون نحبهم سنوياً فى المستشفيات بسبب الإهمال وقلة الخبرة.. وينبغى محاسبة جميع المسؤولين عن هذه الجرائم البشعة، حتى نضع حداً لها..

- محاسبة الطبيب أو مدير المستشفى أو حتى عميد

كلية الطب ممكن.. و لكن رئيس الجمهورية..؟!..

- أولهم رئيس الجمهورية لأنه هو ونظامه المسؤولين
ولا أحد سواهم عن وضع هؤلاء الفشلة على مقاعدهم..
وإزاء إصرارى على الرفض، غادرت أنت غاضباً.. أذكر
جيداً كلماتك الأخيرة التى ألقيتها على مسامعى أثناء
توديعى لك على درج البناية..

- تذكرى جيداً أن نقطة الخلاف بينى وبين (مجدى)
رحمه الله كانت فى أنه يتجاهل السبب الأسمى
للمشكلة، ويفضل الدوران حولها وإحتوائها كما تفعلين
أنت الآن.. كان ينادى بالإصلاح ويتجاهل دعاوى الثورة
والتغيير التى صرخ بها شرفاء كثيرون.. وصدقينى
وفاة طفلك وزوجك من بعده ما هما إلا آثار ذلك الفساد
الذى نخر أعمدة البلد، والذى تجاهل زوجك وتجاهلين
أنت الآن أن منبعه هو الرأس وليس القاعدة..

قد نتفق أو نختلف أنا وأنت و(مجدى) رحمه الله فى
الأساليب، ولكن كل منا يعرف أن الآخر ليس وغداً ولا
أفأقاً.. فرغم خلافكما، كان (مجدى) يردد دائماً أنكما
تحدثان بلغتين مختلفتين ولكنكما تقولا نفس الكلام،
وكان احترامه لك لا يهتز..

(بشير).. هل تسمعنى..؟..

أنا فى ورطة يا (بشير).. البلد كلها كذلك.. ستقول لى
أنها كذلك منذ دهر، ولكننى أحمل لك تفاصيل مرعبة
أثق أنها ستصيبك بالذهول.. لا أعرف أحداً سواك
يمكننى اللجوء إليه والإعتماد عليه..

أين أنت يا (بشير) ..؟..

غادرت الترام مسرعة وسط نظرات الركاب من محطة (كامب شيزار).. حالة من التوجس والخوف إنتابتهم فلم يجرؤ أحدهم على استيقافي، حتى الكمسارى لم يطالبنى بقطع تذكرة.. الشارع الرئيسى مزدحم.. لو كانت اللاندروفر ورائى، فلن تستطيع اللحاق بى وسط هذا الزحام.. جسدى لا يزال يرتعش من انفعال المواجهة السابقة.. أسمع رنين هاتفى المحمول.. - هل تعرفين ما فعلت بنفسك أيتها العاهرة..؟.. - قالها بالأمريكية وبصوت بارد مشحون بغضب هائل..

..... -

- هل تظنين أنك بوسعك عمل شئ..؟.. هل تعتقدين أنك قادرة على تحدى..؟.. ألا تعرفين يا سافلة أنك ستكونين فى قبضتى خلال دقائق..؟.. إلتقطت نفساً عميقاً لأتمالك نفسى، وقلت: - مستر (كمال).. لا رد عندى على أسئلتك.. ولكن لى تعليق واحد يردده أحياناً المصريون الذين ترغب أنت فى إمتصاص أرواحهم.. هل تحب سماعه..؟.. - ما هو..؟.. - يحموك ف كنكة..

وفى اللحظة التالية كان الهاتف المحمول يسبح فى الهواء، ثم يهوى ليتهشم على أسفلت الشارع قبل أن تسحقه عجلات السيارات، وهى خطوة تأخرت عليها

كثيراً، لأننى أعلم أن تكنولوجيا التتبع عبر الأقمار الصناعية تستطيع بسهولة التوصل إلى مكانى عن طريق هاتفى المحمول..

رحت أجد السير مسرعة بين الشوارع والطرق.. فى تلك اللحظات ملأنى شعور غريب.. لكأنّ حملاً ثقيلاً كان يجثم على صدرى ويخنق أنفاسى إنزاح لتوّه.. شعرت بنفسى خفيفة تكاد قدمائى لا تلمسان الأرض.. شعور عارم بالثقة أفعمنى.. أنا قويّة.. وقوية جداً كذلك.. وسأغلب هؤلاء السفلة بإذن الله..

دلفت إلى مكتب إتصالات.. وطلبت رقماً من الفتاة السمراء المحجبة الواقفة خلف الكاونتر الخشبي.. أشارت لى بدخول إحدى الكبائن ففعلت..
- (بغضب): أين ذهبت يا هانم..؟..

(محمود) - شقيقى الأكبر - عصبى جداً.. لاريب أنّ أمى اتصلت به مولولة وأخبرته بما كان مئى..
- إسمعنى..

- أمك منهارة تماماً.. من هؤلاء الناس الذين كنت تجربين منهم فى الشارع..؟..

بهذه السرعة..؟!.. طبعاً.. بالتأكيد صدم منظرى - وأنا أعدو فى الشارع- الكثيرين ممن يعرفوننى وممن لا يفعلون.. ولا بد أنّ العديد منهم هرعوا إلى بيتنا ليستفسروا..

- سأخبرك فيما بعد.. فقم..

قاطعنى غاضباً:

- بل ستخبريننى الآن..

- إسمعى..

قلتها بصوت عال ولهجة حادة لم يألها منى.. بُهت للحظة فأسرعت بكلمات سريعة أخبره بأننى أعانى مشكلة ضخمة فى عملى ستضطرنى للسفر لفترة قد تطول، وطلبت منه أن يبذل مجهوداً مع أمى لإقناعها بالسفر معه إلى (جدة) حتى لا تبقى بمفردها فى البيت..

بان القلق واضحاً فى صوته وهو يقول:

- ما الأمر بالضبط يا (أمل)..؟.. ومن الذين كانوا يطاردونك..؟..

تنهدت قائلة:

- ثق أننى بخير وأمان.. هو تحقيق صحفى أقوم به لا مجال لسرد تفاصيله الآن.. إدع الله أن يوفقنى..

- وكيف سأعرف أخبارك..؟..

- إن شاء الله سأكون على اتصال مستمر بك.. إتفقنا..؟.. أستودعك الله..

- إنتظرى.. ماذا عن (إيهاب)..؟..

شعرت مع سؤاله بغصة فى حلقى.. صمّت للحظات، ثم أجبته بصوت مبحوح:

- أخبره بأننى لن أجد من هو أفضل منه.. ولكننى لست مستعدة الآن للزواج..

- لماذا يا (أمل)..؟.. أخبرينى بما يجرى..

- الوقت لن يسمح.. إلى اللقاء..

- إنتظري.. ماما تريد محادثتك..

- لن أستطيع.. إلى اللقاء..

أنهيت الإتصال وأسندت رأسى إلى جدار الكابينة الخشبي.. دمعة باردة سالت على وجنتى.. لم أكن مستعدة لسماع صوتها الحبيب الملتاع فى هذا التوقيت.. أنا بحاجة إلى كل مؤازرة ودعم للحرب القادمة، وتوسلات أمى لى بالعودة هى آخر ما ينقصنى.. أزحت باب الكابينة وقلت للفتاة الجالسة خلف الكاونتر:

- رقم آخر من فضلك يا آنسة..

*** _

- أين أنت يا ريسة..؟!.. طلبتك أكثر من مرّة ووجدت

هاتفك مغلق.. كيف حال صحتك الآن..؟!.. وك..؟!..

قاطعته وأنا أبتسم رغماً عنى:

- توقف عن الثرثرة واسمعنى..

- تحت أمرك..

- أين أنت الآن..؟!..

- خرجت لتوى من القدّاس بـ (مار جرجس).. سأذهب

إلى المكتب على الفور..

- إسمعنى جيداً.. لدى مصلحة عاجلة سأضطر للسفر

من أجلها.. ستتولى إدارة المكتب بنفسك وتقوم بتنفيذ

الحلقتين المتبقيتين من البرنامج، وإستلام ما تبقى من

دفعات حسابنا من المحطة.. وسيكون بيننا اتصال

مستمر إن شاء الله..

- هل ستتغيبين كثيراً...؟..
- العلم عند الله.. هناك شئ آخر..
- (باهتمام): ما هو..؟..
- صمت للحظة ثم قلت:
- الأعمار بيد الله.. لو قدر لى الله ألا أرجع، فسيكون المكتب مسئوليتك.. سأرسل لك بإذن الله توكيل رسمى بالبيع والتصرف فى الأملاك.. إنقل ملكية نصف المكتب إلى حوزتك، والنصف الآخر ستبحث عن مشترٍ له.. هل أنت معى..؟..
- (منزعجاً): لم تقولين هذا الكلام يا ربسة..؟..
- قيمة النصف المباع ستوزع على وراثتى وفقاً للشرع.. وأنا واثقة تماماً من أنك ستتصرف بأمانة..
- فوجئت بصوته يتهدج بالبكاء وهو يقول بحرارة:
- أنا لا أريد شيئاً يا ربسة.. فقط عودى لنا بالسلامة..
- إنهمرت الدموع من عيني وأنا أقول:
- ثم لى التوفيق يا (ميخائيل)..
- سأصلى من أجلك.. وستعودين سالمة إن شاء الله..
- شكراً يا صديقى العزيز..

- (مصر).. (مصر).. اللى نازل (مصر).. اللى نازل (مصر)..

إتخذت موضعى فى الميكروबाص إلى جوار النافذة فى الصف قبل الأخير.. أنظر عبر زجاج النافذة.. الموقف مزدحم بالرائحين والغادين.. الكل يتحدث.. الكل

يدخن.. الكل يتعارك.. الكل يضحك..

تتشششششششش..

أنظر إلى يمينى عبر النافذة الأخرى، فأرى ذلك الفتى
النحيف الأسمر يقذف -بسرعة البرق- قطع العجينة
الخضراء فى وعاء الزيت المغلى، وبعدها بثوان يمد
المغرفة فيلتقط بها أقراص الفلافل ذهبية اللون رائعة
الجمال شهية الرائحة تلمع بالزيت..

- (مصر).. (مصر).. اللى نازل (مصر).. اللى نازل
(مصر)..

الشمس متوارية كعادتها فى ذلك الوقت من السنة
خلف الغيوم.. عربات الميكروباص لا تتوقف عن الحركة
جيئةً وذهاباً.. إلى جوارى سيّدة عجوز بدينة ترتدى
السواد وتحمل كيساً بلاستيكيّاً تفوح منه رائحة رنجة
واضحة.. تسألنى وهى تلهث:

- هى العربية دى بتنزّل فىن فـ (مصر) يا بنتى..؟..

فتحت فمى لأجيب عندما تطوع رجل أصلع كـ
الشارب يجلس فى المقعد الذى يسبقنا بالإجابة:

- (عبود) إن شاء الله يا حاجة..

- (مصر).. (مصر).. اللى نازل (مصر).. اللى نازل
(مصر)..

الجو بارد.. من تليفزيون المقهى القريب أسمع (تامر
حسنى) يردد أن «كل مرّة أشوفك فيها.. بابقى نفسى
آ.. آ..».. العربية تتمايل وتتأرجح إذ يدخلها رجل ملتح
ضخم يرتدى الجلباب الأبيض.. يحنى رأسه ويتحرّك

بصعوبة حتى يستقر على الأريكة الخلفية ورائى..
رائحة المسك التى تفوح منه تفعم أنفى فتطرد منها
رائحة الرنجة..

- (مرسى مطروح).. واحد (مرسى مطروح)..
- و(المرسى ابو العباس) ما انت محمل نفر واحد قبل
ما أطلع انا يا بن الوسخة..
شجرة مجلجلة تدوى فى الفضاء ثم..
- عشنا وشفنا اليوم اللى ولاد ال «.....» بتوع (غيط
العنب) طلع لهم فيه صوت.. طب ورحمة شرف أمك ما
انت محمل النهاردة نفر واحد يا «...» يا بن ال «.....»..
«أجيلك أقولك إنك كلك على بعضك عندى بالحياة..
طب آ.. آ..».. الرجل الملتحى من خلفى يزفر بضيق
مردداً: «أستغفر الله العظيم».. أصوات الصفعات
واللكمات والسباب البذئ المنهمر كطلقات المدفع..
الأجساد تتدافع والأذرع تمتد لتحول بين المتعاركين..
- (عامرية).. (عامرية).. اللى نازل (العامرية)..
(عامرية)..

ياللتفاصيل الحبيبة التى تحيط بنا طيلة الوقت دون
أن ننتبه إلى حميميتها .. فقط نستشعر مذاقها عندما
نفتقدها.. تنهدت.. لو استمرت (إيجى - نيرجى) -
فكرت- فى عملها، فستتلاشى كل هذه التفاصيل فى
غضون السنوات القليلة المقبلة..

أتنقل ما بين فيس بوك وتويتر و(مصراوى) و(الدستور
الأصلى) والجزيرة على محمول جديد -ابتعته قبل

ساعة- دون أدنى تركيز.. طويت الجريدة وأسبلت جفنى.. العربة تتحرك أخيراً لتغادر الموقف.. المسافة من (الإسكندرية) إلى (القاهرة) تستغرق ثلاث ساعات تقريباً.. منذ عودتى إلى بيت أسرتى فى (الإسكندرية) وأنا لا أطيق البقاء فى (القاهرة) ولا أسافر إليها إلا عندما يتطلب عملى ذلك.. غير أننى الآن أجدها الملاذ الآمن لى بعد كل ما حدث..

هل كنت حمقاء بالفعل عندما رفضت عرض (كمال فودة) وتحديثه هو ومن خلفه..؟..

(عرض لا يمكن رفضه) بلغة (المافيا).. لأن قبوله يعنى أن تربحى كل شئ، ورفضه ليس فقط أن تخسرى حياتك (فهى لا تمثل شيئاً).. بل ستتحوّلين إلى ناتج قسمة المجموع على الصفر.. لا معنى لها..

لا أعتقد أنه صادق تماماً فى عرضه يا دكتور (حازم).. هو فقط يريد أن يضمن أن دليل إدانته لن يتسرّب إلى أى جهة.. دعك من أنهم مَخُوا الفيديو الذى يحمل إقرافات (يوسف محيى الدين) من على بريدى الأليكترونى، فمن الممكن جداً أن أكون قد صنعت منه نسخة أو أكثر، وأرسلته إلى أى أحد من خلال صندوق بريد أليكترونى آخر (وهو للأسف ما لم أجد فرصة لفعله بسبب الإنهيار العصبى الذى أصابنى).. هو إذن يريد التأكد من إخفاء سرّه، وبمجرد أن يفعل، تنتفى حاجته إلى -دعك من مسرحية حاجته إلى خدماتى الإعلامية- وبالتالي يصبح التخلص منى هو الحل

الأمثل..

كم تساوى قدرة فرد واحد أمام كيان قارى ك
(هالبيرتون)..؟.. الإجابة: غير ذات معنى، كحاصل
قسمة أى رقم على الصفر..

لا يا سيد (كمال).. كذبت فى هذه أيضاً.. سواء أنت..
سواء والدك.. أو حتى (هالبيرتون) هذه.. لستم آلهة ولا
حتى أنصاف آلهة.. برغم قدراتكم الخرافية إلا أننى
أشعر بأننى أقوى منكم جميعاً.. لأنّ الله معى وهو نعم
المولى ونعم المصير..

لم أدر متى ولا كيف غفوت.. ولكننى وجدت نفسى
أسير حافية القدمين على رمال الشاطئ البيضاء..
السماء صافية.. الأمواج تداعب أصابع قدمى بركة.. من
بعيد أرى جسدين يقتربا.. راحا يدنوان منى بينما
تفاصيلهما تتضح أكثر فأكثر..

- (بدهشة وفرح): (أحمد)..!!؟..

وجهه ناصع وسيم كما لم أره من قبل.. إبتسم فظهرت
سنته الأمامية المكسورة وقد اكتملت.. قال وهو
يصافحنى:

- وحشتينى..

صافحته بحرارة وأنا أقول: وانت كمان..

أشار إلى رفيقه قائلاً:

- مش هاتسلمى على صاحبى..؟..

نظرت إلى الرجل الأسمر.. متوسط القامة متين
البنيان.. وقعت عيناي على ساعده الأيمن فوجدته

مبتوراً.. هتفت بدهشة:

- إنت..؟!..

قال (أحمد):

- الأسطى (عقار)..

صافحنى الرجل بيسراه وهو يبتسم..

- إزى حالك يا مدام ..؟..

رددت عليه بتمتمة غير مفهومة، وأنا أهدق فيهما
بانهار..

قال (أحمد) بجديّة:

- أنا قلقان عليكى يا (أمل)..

- ليه..؟..

- الطريق أدامك طويل وخطير..

قلت بثبات:

- هامشيه لآخره إن شاء الله..

نظر لى بإعجاب للحظة قبل أن يقول:

- مهمتك مش سهلة أبداً.. عارفة إيه اللى هاحصل لو

فشلتى أو عرفوا يوصلوك..؟..

نظرت له مستفسرة، فأشار بسبابته جهة البر.. أدت

رأسى حيث يشير، فلفحتنى موجة حارة لاهبة جعلتنى

أشهب.. رأيت ناراً هائلة مشتعلة على مرمى البصر..

سمعت صراخاً وأنيباً وعويلاً.. سحابة سوداء عظيمة

من الدخان تملأ السماء.. ملايين الأطياف الصارخة

المتألّمة تنبعث من بين أسنة النيران.. تتصاعد لأعلى..

تشفط بواسطة أنبوب عملاق شفاف.. أرى من بين

الأطياف وجه أمى وأبى الراحل.. أشقائى وأزواجهم
وأبناءهم .. (مجدى) و(ميدو).. (ميخائيل).. عم
(حبشى).. كل من أعرفهم ومن لا أعرفهم يتعذبون
ويصرخون بألم رهيب.. الأنبوب العملاق ممتد من البر
إلى البحر.. إلى هناك إلى (باراداييس هايتس)..

السماء صارت حمراء قانية بلون الدم.. الرمال
برتقالية.. الأمواج سوداء كالحة..

أصوات الأنين تتصاعد لتملأ رأسى.. يا أرحم
الراحمين.. يا للحرارة.. أغمضت عيني بقوة، وسددت
أذنى بكفى..

رحت أين.. أين...

سألتنى السيدة العجوز الجالسة إلى جوارى بحنان
فطرى:

- فيه حاجة يا بنتى..؟..

فتحت عيني.. نظرت إليها بعينين متسعيتين.. زفرت
بعمق وقلت:

- لا أبداً يا أمى.. ده بس كان حلم وحش..

إستعازت بالله من الشيطان الرجيم وطلبت منى أن
أفعل بالمثل ففعلت..

كانت الشمس قد مالت إلى الغروب، واصطبغ الشفق
بلون أحمر قان.. تساءلت:

- فاضل كثير على (مصر)..؟..

أجابنى أحدهم:

- إحنا خلاص على وصول..

ساد الصمت بعدها إلا من صوت أزيز المحرك، وصفير الرياح بالخارج.. أخرجت مصحفاً من حقيبتي.. وعلى ما تبقى من نور الشمس الغاربة بدأت أقرأ بصوت خفيض..

بسم الله الرحمن الرحيم
(ألم .. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً و هم لا يُفتنون)

فى (القاهرة) حاولت الإتصال بـ (ميخائيل)..أخبرتني خطيبته (ميران) -بلهجة تفوح منها رائحة الإتهام- أن المباحث أقت القبض عليه.. لا بسبب الدعوة التى رفعها (رأفت عابدين) -مالك محطة (ASC)- على مكتبنا يتهمنا فيها بالتربح من وراء البرنامج الذى ننفذه لحساب محطته من خلال عمل دعاية غير مباشرة لأحد توكيلات الملابس الجاهزة بما لا يتفق والعقد المبرم بيننا وبينه..

أقت المباحث القبض على (ميخائيل) بتهمة التهرب من الضرائب باعتباره مدير المكتب فى غيابى.. صعقنى الخبر أول الأمر، لأننى أدفع ضرائب بانتظام، ولدى أوراق تثبت هذا.. ثم فطنت إلى أن الأمر يتجاوز ذلك.. ولكنك لا تستطيعين تخيل مدى ما أستطيع القيام به.. إذن فقد بدأت (إيجى - نيرجى) تتحرك.. هاهو (ميخائيل) بين برائن الأمن.. ويعلم الله ما الوسائل التى سيستخدمونها لإجباره على البوح بمكانى (وهو

مالا يعرف عنه شيئاً).. ياللفتى البائس.. طمأنت الفتاة
الباكية بأن الأمر لا يعدو كونه خطأ قانونى لأنّ موقفنا
المالى سليم تماماً.. وبعد أن أنهيت إتصالى بها، حاولت
الإتصال بـ (محمود) أخى سواء على هاتفه المحمول أو
هاتف منزله بـ (جدة).. لا مجيب.. تقلصت أحشائى..
أمنّ الممكن أن ..؟..

أنا - سيدتى - ملك (مصر) الغير متوج..
جزّبت الإتصال بمنزلنا فى (الإبراهيمية).. نفس
النتيجة.. منزل شقيقتى فى (سموحة).. نفس
النتيجة..

أعدت السقاعة إلى موضعها.. غادرت مكتب الإتصالات
وأنا أكاد لا أرى أمامى شيئاً.. لا يحتاج الأمر لعبقرية
خاصة.. لقد سقط أهلى كلهم فى قبضة الشركة..
بل ستتحولين إلى ناتج قسمة المجموع على الصفر.. لا
معنى لها..

إعتصرت قبضة باردة قلبى.. أمى.. إخوتى.. يا الله..
كيف أنتم الآن..؟.. ومضت بذهنى صور خاطفة لهم
وهم قابعون فى أقبية كالحة الجدران عارية من الأثاث
يتعرضون لأبشع ألوان التعذيب.. بل لربما هم - فى هذه
اللحظة بالذات- داخل ماكينات (إيجى- نيرجى)..
أغمضت عينى بقوة.. ورحت أمشى بخطوات أسرع..
أسرع..

.....

.....

.....

.....

سامحنى يا دكتور (حازم) إذ لن أخبرك عن مكانى
الحالى.. أنا فى مكان ما من قلب (القاهرة).. لا تحاول
التخمين.. لربما كنت فى باحة (الأزهر الشريف).. ولربما
كنت أسير فى شوارع وسط البلد أو أقف أمام مذبح
(سانت تيريز) بـ (شبرا).. أنتظر الأوتوبيس فى الحى
السابع أو أعبّر ميدان التحرير.. سنترال (أماظة) أو
محطة (كوتسيكا).. (القاهرة) شاسعة جداً وسيصعب
عليهم الإيقاع بى فيها.. أما أنا فلن يصعب على العثور
على (بشير الهلالي).. سأجده وأحكى له كل ما أعرف
عن (إيجى - نيرجى).. أنا أعرفه جيداً.. ستثور ثائرته
وينتابه جنون أنا فى أشد الحاجة إليه لينزع الخوف من
قلبى.. ستتشابك أصابعنا، وستتحرك معاً لنفضح هذه
الجريمة غير المسبوقة.. ولسوف ننقذ أبناء وطننا من
الفناء فى آلات هؤلاء المجرمين بإذن الله..

سنكون بحاجة لعونك وعون كل شريف فى هذا البلد
يا دكتور (حازم) فى حربنا القادمة ضد (كمال فودة)
ومن معه..

أعلم أنّ التحدى ليس سهلاً، ولكنى أثق كثيراً فى
عقلك وأخلاقك وتقواك برغم أى خلاف سابق بيننا..
وأتوقع منك المساندة عندما أطلبها منك..

انتظر مكالمتى التالية وتأهب للحرب القادمة يا دكتور
(حازم).. فهى لن تكون هيئة على الإطلاق.. ولكن

خوضها بأى حال أهون من نتائج تجاهلها والفرار منها..

د. حازم أبو زيد

لم تتصل بي منذ ذلك الحين.. ولم أسمع عنها أية أخبار..

كنت غارقاً حتى النخاع فى مشكلتى الجديدة.. وحاولت بإخلاص إتباع خطة العلاج التى وضعتها زوجتى.. سافرت معها فى رحلة قصيرة لأداء العمرة.. وعدت لأعتكف فى بيتى.. أصلى وأقرأ القرآن وأستمع بجمال الطبيعة من حولى.. أفادتنى هذه الفترة جداً فى التقرب من الله عز وجل.. عملى بالجامعة..؟.. أباشره هاتفياً مع نوابى..

تجلس (نشوى) معى يومياً.. تناقشنى فى موضوعات مختلفة، تؤدى كلها بنا فى النهاية إلى موضوع شركة (إيجى - نيرجى).. تمارس طريققتها فى الإلحاح والإقناع بضرورة التفكير بمنطقية والنظر إلى الأمام والسعى لمستقبل أفضل و.. و.. وكم كانت سعادتها عندما أخبرتها أننى تحسنت، وأن الكوابيس وأصوات الأنين زالت عنى..

كنت أكذب بالطبع للخلاص من إلحاحها.. الأنين لم يفارق أذنى يوماً.. وأكثر من مرّة آوى إلى فراشى، ثم أستيقظ لأجد نفسى فى ملهى ليلى.. أو مستلقياً على الفراش فى فيلا (أحمد خشبة) - التى ابتعتها من دون أن أدرى - وبجوارى نسوة لا أعرفهن.. أو أوضاع غريبة شاذة أخرى لا داع لذكرها...

الأئين لا ينقطع.. والكوابيس لا تتوقف.. وأعصابى لم
تعد تحتل.. فى الليلة السابقة لإتصالى بك، بدأت فكرة
الإنتحار تلح على بشكل مستفز.. الخلاص من كل هذا
العذاب بشكل جذرى سريع.. ها هى الفرصة -فكرت-
قد جاءت للشيطان على طبق من ذهب للإيقاع بى..

.....

.....

.....

همفففففف (زفرة)..

.....

.....

.....

إسمعنى جيداً..

أنت عرفت القصة بكامل تفاصيلها.. لا أظنى نسيت
شيئاً..

إن كنت ترى أنى محق فى موقفى فبالله عليك
أخبرنى بذلك.. أريد أن يطمئننى أحد أنى سليم لا غبار
على.. أحتاج أن أسمع هذا من شخص أثق به..

وإن كنت والعياذ بالله لا ترى هذا فافعل ما تجده
صواباً.. أنت حر الحركة عنى ولا يتهددك ما يتهددنى..
خياراتك مفتوحة ومجالك واسع.. يمكنك البحث عن
(أمل) و(بشير).. يمكنك أن تجمع الأدلة.. يمكنك إثارة
القضية وفضح أسرارها.. يمكنك ان تفعل الكثير
والكثير لأن ما يكبلنى لا يكبلك.. فقط -وهذا أهم ما

فى الموضوع- لىكن كل ذلك بعىداً عنى..
خذ وقتك فى التفكىر يا صدىقى؁ ولكن بالله عليك لا
تتأخر على..
رجائى لك أياً كان موقفك أو رد فعلك أن تسرع لأن
الأنين بالفعل يكاد يقتلنى.. ولا أرانى قادراً على تحمل
المزىء..

خاتمة

أنا

من أنا..؟..

لا أعتقد أنّ إسمى أو هويتي مهمين أو يمكن أن يفيدا أحداً.. أنا مواطن مصرى وكفى.. لى كل ما للمصريين وعلى ما عليهم.. وليس بى أى شئ يميّزنى عنهم، اللهم إلا ذلك السر الرهيب الذى أخبرنيهِ الدكتور (حازم أبو زيد) قبيل وفاته بعدة أيام..

كيف ثوفى..؟.. غريب هذا...!!... ألم يبلغكم الخبر..؟.. لقد عُثر على جثته العارية مهشمة أسفل ذلك الجرف العملاق شرق (باراداييس هايتس) الذى تقع عليه تلك الفيلا التى ابتاعها من (ممتاز خشبة) رجل الأعمال الشهير..

حادث مدو بالفعل نظراً لأنّ الراحل كان شخصيّة مرموقة تشغل منصباً هاماً، وكانت مرشحة لتولى منصباً وزارياً فى التعديل القادم.. قرأت النعى فى (الأهرام)، وشعرت بالحزن..

تذكرت نظرتة الصامته المنكسرة وهو يصافحنى على رصيف ميناء (باراداييس هايتس) عند مغادرتى.. نوع من الرجاء يطل من عينيه الكسيرتين وهو يقول بخفوت:

- (يتصاعد البخار من فمه): طبعاً لا داعى لأن أذكرك بأن يَظَلّ إسمى بعيداً عن هذا الموضوع..

ربت على كتفه مطمئناً، قبل أن أخطو على رصيف المرفأ، وأهبط إلى الزورق البخارى الخاص به -بالدكتور

(حازم) - المستقر بين أقرانه من الزوارق الفاخرة الخاصة بسكان الجزيرة، والذي إنطلق بي على الفور صوب (الإسكندرية).. وبينما هو يشق الأمواج المظلمة وأنا أفرك كفى من البرد رغم دفء الكابينة التي أجلس فيها.. حانت منى نظرة إلى الوراء.. رأيت الرجل يقف على رصيف المرفأ الخالي.. وحيداً.. نحيفاً.. بائساً.. ومن خلفه تتألق بشدة أضواء (باراداييس هايتس) بقصورها وأنديتها ومولاتها و مراقصها كأنها شعلة من النار لتحيل الليل المظلم نهاراً، وتنعكس أنوارها على سطح الأمواج لمسافات بعيدة..

النعي يحتل صفحة كاملة.. تتوسطه صورة كبيرة للراحل، تعلوها آية قرآنية، وأسفلها حشد من أسماء عائلته وإعلان عن موعد ومكان تلقى العزاء وهو قاعة المناسبات الملحقة بمسجد (مبارك) ب (باراداييس هايتس)..

هل أنا واهم أم أن ثمة حزن دفين يطل من عينيه فى الصورة..؟..

تناولت الصحف حادث الوفاة الغامض بمعالجات تنوعت ما بين الرغبة فى دفن الموضوع، والرغبة فى نبشه للوصول إلى الحقيقة، لأن الراحل كما أسلفت لم يكن شخصاً عادياً..

ترى ما هى ملابس وفاته..؟.. هل زلت قدمه مثلاً فهوى من النافذة..؟.. أم قتله رجال الشركة بعد أن عرفوا بشكل أو بآخر صلته بنشاطهم..؟.. أم أنه قرر

الانتحار فوثب من النافذة بكامل إرادته..؟.. وإن كانت الأخيرة فهل كانت لشعوره بالذنب أم أنّ الشخصية المنشقة المتمردة بداخله سيطرت عليه ودفعته لقتل نفسه..؟..

أثار انتباهي تحقيق عن هذا الموضوع نشرته (الشروق)، ذكر فيه أنّ الشاهدة الرئيسية في القضية وهى أخصائية تدليك (الإسم الرسمي لفتيات الليل فى باراداييس هايتس) نَفَت معرفتها بشخصية الراحل، وبكونه رئيساً لجامعة (الإسكندرية)، وادّعت بأنّ الإسم الذى أخبرها به هو (أحمد خشبة) - إسم مالك الفيلا السابق - وذكرت أنّه كان غريب الأطوار كثير الشرود، وأنّه كان يعتمد على مولد خاص لتوليد الكهرباء بعيداً عن مصدر التغذية الذى يغذى (باراداييس هايتس) كلّها بالكهرباء...!!..

أكاد أراه وهو يقف عارياً أمام النافذة المفتوحة.. الستائر تتطاير من حوله.. القمر فضى كامل الإستدارة.. صفحة البحر الزرقاء اللامعة ممتدة إلى مالانهاية.. يتنفس بعمق.. إبتسامة ارتياح وخلص ترتسم على شفتيه..

وفى صفحة أخرى من ذات الجريدة لفت انتباهي خبر جانبى صغير عن تكرار إصابة بعض الشباب فى (باراداييس هايتس) بنوبات من الهياج الغير مبرر، عزاه أطباء إلى إدمان المخدرات وعقاقير الهلوسة.. طويت الجريدة وأنا أبتسم بمرارة.. برغم كل شئ..

هاهم أولاء ضحايا (إيجى - نيرجى) يعودون بعد موتهم لينتقموا من قاتليهم بطرقهم الخاصة.. وإنى لواجد فى هذا عدالة من نوع خاص جداً لم يكن يخطر ببال أحد من القائمين على هذا المشروع الرهيب..

لو فكرنا إذن بموضوعية لوجدنا أنفسنا أمام احتمالين:
١ - الدكتور (حازم أبو زيد) يكذب أو يختلق أوهام وأكاذيب كعَرَضَ لمرض نفسى يؤكد هو إصابته به، بغض النظر عن أسبابه..

العينان لامعتان مفعمتان بالراحة.. يفرد ساقيه.. يقف على حاجز النافذة.. يظل ثابتاً فى هذا الوضع للحظات ثم..

٢ - الرجل صادق بالفعل، وهو الإحتمال المرعب الذى أتمنى نفيه، وإن كنت أميل إلى تصديقه لأن الحكاية معقدة جداً، ويصعب إختلاقها..

يهوى لأسفل من هذا الارتفاع الشاهق.. مفرد الذراعين.. مسبل الجفنين.. إبتسامة حالمة تتلاعب على شفتيه.. وكأنه يحلق فى السماء بنشوة واستمتاع لا مثيل لهما..

والمصير الذى ينتظرنا جميعاً فى هذه الحالة أشنع من أى كابوس حلم به فيلسوف أو شاعر أو أديب أو مفكر أو أى إنسان، ولم يكن -على حد علمى- من نصيب أى من شعوب الأرض حتى الآن..

أبتلع ريقى بصعوبة..

أين أنت الآن يا (أمل)..؟.. هل عثرت على "بشيرك"

هذا، أم كانوا هم أسبق فى العثور عليك...؟..
واقفاً على المكعبات الحجرية العملاقة بمحاذاة سور
الكورنيش .. البحر هائج و رذاذ الأمواج العالية يفرق
وجهى و ثيابى .. مذاق الماء المالح يداعب فمى ، بينما
رائحة يود البحر تفعم أنفى .. أسمع حديث رجلين
يسيران من خلفى على الكورنيش:

- باين عليها نوة شديدة..

- أمال.. أشد نوة.. دى اللى هاتغزق البلد كلها..

يمن

من بعيد.. أرى أمواجاً سوداء عاتية كالجبال تعلو
وتدنو أكثر فأكثر.. أرفع رأسى لأعلى فألمح أسراب
النوارس تحلق فارة نحو البر على خلفية من سماء
ملبدة بغيوم غليظة داكنة تذكرنى بلوحات (أجريكو)..
خائف..؟.. نعم.. أنا خائف.. الخوف جزء مئى.. رضعته
من صدر أمى وتنفسه مع الهواء طوال حياتى حتى
صار جزء من تكوينى.. لست بأفضل من الدكتور (حازم)
رحمه الله ولا أشجع.. خائف أنا طيلة الوقت على نفسى
وأهلى وبيتى وعملى..
همممفففف (زفرة)..

مشادة عنيفة تنشب بين مجموعة من الشباب على
الرصيف المقابل للكورنيش.. يتبادلون الشتائم بأقذع
الألفاظ، قبل أن تنهمر اللكمات والركلات كالمطر من
وإلى الطرفين.. لم يتعاركون..؟.. لا أعرف.. لربما بسبب
طوابير الخبز.. أو لركوب الحافلة.. أو بسبب معاكسة

الفتيات..

الأسباب مختلفة وكلها واهية.. ولكنها شحنة الغضب
المكبوتة فى أعماق كل منهم والتي جعلتهم أقرب إلى
براميل من البارود يكفى عود ثقاب واحد لإشعالها..
الرايات السوداء تخفق بقوة على امتداد الساحل..
النوة قادمة ولا شك.. وستكتسح كل ما أمامها.. ماذا
سأفعل..؟.. لقد فعلت.. كتبت هذه الأوراق التي
تقرأونها.. أنتم الآن تعرفون السر مثلى تماماً.. والواجب
الملقى على عاتقى صار على عاتقكم أنتم أيضاً.. نعم أنا
خائف.. ولكنى بينكم لست كذلك..

المشادة التي تحولت إلى معركة تكاد تتحول إلى
مجزرة.. الأسلحة البيضاء تلمع.. قطرات الدماء تتناثر..
الصرخات تتعالى..

والأمواج السوداء تعلو فى الأفق أكثر وأكثر..

تمت بفضل الله

شريف ثابت

القاهرة - ٢٠٠٩

(*)- فكرة إستخلاص السعال الحيوى عن طريق التعذيب هى نظرية متخيلة للدكتور (أحمد خالد توفيق) فى روايته (كليمنجاور) و(الظاهرة)..